

الجزء الثانى

الأرض والتطور البشرى

تأليف: لوسيان فيفر

ترجمة: محمد السيد غلاب

مراجعة: إبراهيم أحمد زرقانة

تقديم: فاروق عبد الجواد شويقة

المركز القومى للترجمة

ميراث الترجمة

1789

الأرض والتطور البشرى

الجزء الثانى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1789
- الأرض والتطور البشرى: الجزء الثانى
- لوسيان فيفر
- محمد السيد غلاب
- إبراهيم أحمد زرقانة
- فاروق عبد الجواد شويقة
- 2014

هذه ترجمة كتاب:
La Terre et l'évolution humaine
Par: Lucien Febvre

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الأرض والتطور البشرى

الجزء الثانى

تـأليـف: لـوسيـان فيـڤـر

ترجمة: محمد السيد غلاب

مراجعة: إبراهيم أحمد زرقانة

تقديم: فاروق عبد الجواد شويقة



2015

فيفى، لوسيان.
الأرض والتطور البشرى/ تأليف: لوسيان فيفى؛
ترجمة: محمد السيد غلاب؛ مراجعة: إبراهيم
أحمد زرقانة، تقديم: فاروق عبد الجواد شويقة. ـ
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥.
مج ٢؛ ٢٤ سم.
تدمك ١ ٠١٤٨ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الجغرافيا البشرية.
أ ـ غلاب، محمد السيد. (مترجم)
ب ـ زرقانه، إبراهيم أحمد. (مراجع)
ج ـ شويقة، فاروق عبد الجواد. (مقدم)
ء ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٤٨٧٢/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977- 92 - 0148 - 1

ديوى ٥٧٢،٩

المحتويات

الباب الرابع: المجتمعات السياسية والتجمعات البشرية

الباب الثالث
الإمكانيات وأساليب الحياة

الفصل الأول
بيئات: الجبال والسهول والهضاب

والآن، فلنستعرض مناقشتنا من بداءتها فى الفصل الثانى من الباب الثانى.

لقد استبدلنا بفكرة الأرض الغامضة، فكرة العالم، كوحدة منسقة تتكون من مناطق مناخية ونباتية، كل منها وحدة عضوية، وكلها تتوزع توزيعا منتظما على جانبى خط الاستواء.

أما عن فكرة «الإنسان» فقد استعضنا عنها بالجماعات الإنسانية أو المجتمع البشرى وقد بينًا حقيقة سلوك هذه المجتمعات وعلاقتها بعالم الحيوان، وعالم النبات فى الأقاليم المختلفة. ولكن لا تزال المشكلة الرئيسية كما هى:

أهمية الإقليم الطبيعية التى تنقسم إليها الكرة الأرضية للإنسان. ولقد واجهنا هذه المشكلة أو قل هى واجهتنا من حين إلى آخر، ويجب علينا أن نوليها الاهتمام اللائق بها.

وعلينا الآن أن نوضّح تعبيراتنا ومعلوماتنا. فبعض الكتاب يتحدث عن الأقاليم الطبيعية، وهى أقاليم مناخية نباتية، كأنها مستودع قوى تؤثر مباشرة على الإنسان، فهى قوة سيطرة حاكمة، وتترك طابعها على كل نواحى نشاطه المتعددة، التى ليست إلا أثرًا من آثارها إلى حد كبير. وهذه هى النظرية الحديثة. ولقد أشرنا من قبل إلى صعوبة الأخذ بهذه النظرية، وقلنا إن الأقاليم الطبيعية ليست إلا مجموعة من الإمكانيات للمجتمع البشرى، يختار منها ما يشاء، ولكنه ليس مسيرا بها، ولكننا لم نكوّن بعد نظرية خاصة عن المجتمع البشرى وأسلوبه

الخاص فى نشاطه، وأكثر من هذا فإننا لم نوضح المشكلة إلا بشكل عام فقط.
وعلينا الآن أن نناقش التفاصيل.

- ١ -

مجالات الإمكانيات

التكرار الاجتماعى المنظم

لقد كان من المعتاد فى السنوات الأخيرة التحدث عن المجتمع الإنسانى كشىء ملحق بالأقاليم المناخية النباتية الكبرى. وكان من المسلم به أيضا أن تلك الأقاليم، تعتمد اعتمادا تاما على الظواهر الجوية. ولكننا لا نكل من أن نكرر باستمرار أن ليس لهذه الأقاليم المناخية النباتية قوة طاغية أو سيطرة غريبة على المجتمع الإنسانى. وسنبين ذلك بكل وسيلة ممكنة. ويكفينا الإنسان مؤونة ذلك، فهو يستعرض إمكانيات بيئته وينظر إليها نظرة ناقدة. ولا حاجة للجغرافى أو المؤرخ أن يحتفظ بوصف دقيق للبيئة التى يدرسها كأجزاء من نظام سبق وضعه وترتيبه.

وليس لهذه الحقائق أى قيمة حتمية على البشر وعلى وجودهم. بل إن النباتات نفسها، وهى أكثر خضوعا من الإنسان لعوامل البيئة لا تقاسى من سيطرة البيئة الخارجية الجبروتية كما يبدو لبعض الناس، وأن الإنسان ومجتمعاته لقادر على أن يحمى نفسه من سطوة البيئة أو جبروتها.

ويجب أن نعترف أن الإغراء قوى يدفع الكاتب إلى أن يصنف أقاليم طبيعية ذات نشاط بشرى خاص بكل منها، حيث ينفرد كل إقليم بميزات خاصة متجانسة من الناحيتين الطبيعية والبشرية، تميزها عن الأقاليم الأخرى.

ومن الأمثلة الرائعة لذلك «مس سامبل» فى كتابها الذى أنفقت جهدًا كبيرًا فى تأليفه وعنوانه «أثر البيئة الجغرافية» ونحن لا نجد سواها من الجغرافيين قد آمن بفكرة الحتمية إيمانا عميقا وعبر عنها بحماس بالغ.. وهى تؤكد لنا فى كتابها أن سواحل المحيط المتجمد تكون إحدى البيئات الجغرافية المحددة التى

يمكن دراستها دراسة قائمة بذاتها[1]. وحيث تحمل حقائق النبات والحيوان والحياة البشرية أثر عامل واحد بشكل واضح، هذا العامل هو المناخ.

فالاستياك واللاب والساموید وشعوب سيبيريا، كلها ذات صفات مغولية وكلها كأنما صبت فى قالب واحد، ولكن ماذا عن الإسكيمو؟ تقول المؤلفة: إن صفاتهم تختلف عن غيرهم من الشعوب التى تسكن المنطقة القطبية. وهذه صعوبة خاصة، ولكن هذا لا يهم، فسواء كانوا من أصل مغولى أم من أصل هندى أمريكى فهم على رأى مس سامبل «شعب انتقالى» وبذلك تختفى مشكلة أصلهم، فهم من ناحية طول القامة والمنظر العام ولون البشرة يمتون بصلة القرابة للسيبيريين. ولكن إذا فحصت جماجمهم فهم أقرب إلى الهنود الأمريكيين. وبذلك يتم لها أن تنشئ إقليما طبيعيا بشريا واحدا من المنطقة القطبية ببذل قليل من الجهد.

ولنأخذ مثلا آخر وننتقل من المناطق الجليدية إلى المناطق الحارة دون المدارية[2] هناك إقليم يقع جنوب الصحراء الكبرى ذو ميزات طبيعية خاصة، كما يمتاز بسكنى الزنوج. وهذا الإقليم ضيق يحده مدار السرطان شمالا، لامتيازه بالتنوع فى التضاريس يخضع لنظام مناخى واحد، يؤثر على تربة متجانسة تقريبا، يعيش أهله حياة رتيبة متأخرة، يعملون بالزراعة البدائية وبأدنى مراتب الحياة الرعوية، ولا فائدة من أن نحتج على ما تكتبه المؤلفة من قضايا عامة وأحكام شاملة، وأن الصورة التى ترسمها لهذا الإقليم غير دقيقة إطلاقا، وأبعد ما تكون عن الواقع، وأن أحكامها قائمة على معرفة سطحية بالجغرافيا الطبيعية والبشرية لإقليم لا يزال الرواد والمكتشفون يميطون اللثام عن خصائصه العديدة، ويشيرون إلى ما يحمله من إمكانيات واسعة، وما يشتمل عليه من ثروات متنوعة عذراء. وأنه فى الواقع يتكون من عدة أقاليم لكل منها صفاته وموارده الخاصة، وأنه يسكنه عدد غفير من القبائل التى تنتمى إلى مختلف السلالات. وكيف نستطيع أن نرفع صوتنا بالاحتجاج أمام مؤلفة تؤمن بفكرة وتشّهر فى وجهنا سلاح الأحكام التقريرية التى لا تقبل النقاش.

---

(١) سهل (٦٠) الفصل السادس.

(٢) المرجع نفسه.

وهذه أيضا أحد مقررات راتزل «إذا كان المكان محددا لا يمتاز بالتنوع فإن العناصر الطبيعية والبشرية فيه قد تكون متجانسة «ونحن نرى العكس تماما. نحن نقبل الإطارات الإقليمية بمعناها العام وأما مميزاتها الطبيعية فهى تقدم لنا إمكانيات عديدة، ودعنا نضيف إلى ذلك تحفظا مهمًا حتى يُمكننا الرد على ما قد يعترض علينا به، فى أى إقليم من الأقاليم. وإذا أمكن لهذه الإمكانيات أن تظهر وتتحقق فإنها لا تتحقق على أيدى مختلف الشعوب بنفس القوة فى نفس الوقت وإلا لانهار اعتراضنا على الحقيقة بأن نقدم نحن حتمية أخرى عوضا عنها. إذ إننا سنكون كمن يبين أهمية العامل الجغرافى (الحتمية) بشكل آخر. ومن المفيد بهذه المناسبة أن نذكر حكمة الفيلسوف ليبتز، وهى أن الإمكانيات جميعا ليست إمكانيات مركبة.

إن كل الإمكانيات فى سبيل تأسيس مجتمع إنسانى معين فى بيئة جغرافية معينة لا تفرض أثرها فى نفس الوقت وبنفس القوة. وهذه الحقيقة اضطر معتنقو فكرة الحتم الجغرافى إلى قبولها، فتقول مس سامبل مثلا - وهى على حق فى ذلك[1]، «إننا يجب أن نشك فى التعميمات، إذ إن عدم تحليل العناصر تحليلا كافيا قد يوقعنا فى أخطاء نزوّر بها الحقيقة، بل ننتهى إلى نتائج بعيدة عن الصواب وأحيانا نميل إلى إعطاء بعض العوامل أهمية أكثر مما تستحق، إذ إن النشاط البشرى لا يعتمد على عامل واحد، بل على عدة عوامل فإذا غالينا فى أحدها وقللنا من أهمية الآخر أو مررنا بها مرورا عابرا، انتهى بنا البحث إلى الخطأ». وتقول مس سامبل: «إن العوامل الجغرافية لا تتساوى جميعا فى أهميتها» وتعنى بهذا أن العوامل الجغرافية التى تؤثر فى النشاط البشرى لا تعمل بنفس القوة فى فترات التاريخ المختلفة. ثم تحل هذا الاختلاف فى فعل العوامل الجغرافية تحليلا دقيقا وتلخص ملاحظاتها تحت ثلاثة أبواب رئيسية.

فهى تلاحظ أولا أن المجتمع البشرى قد حرر نفسه شيئا فشيئا من ربقة الأقاليم الطبيعية، فتقدم المدنية العادية وتقدم الطب قد مكنا الإنسانية كلها أو جزءًا منها من الخروج عن النطاق البدائى الذى كان مفروضا أن تبقى فيه، ولكن

---

(١) سامبل (٩٠) الفصل الأول.

هذا لم يتم إلا بعد أن أدخلنا تعديلات شتى فى ملابسنا وعاداتنا ونظمنا الصحية. بل إن أهم ميزات الأوربى أنه وحده بفضل ما تحت يديه من وسائل ومقدرات مدنية حديثة هو القادر على أن يعيش فى الأقاليم القطبية الباردة، وأن يعيش فى وسط أفريقيا الحار. أما الهنود الحمر الذين جمعهم بيزارو من الساحل فقد ماتوا بردا فى الهضاب الداخلية، وارتعد الحمالون الذين جمعهم من حول مدينة مكسيكو وماتو بالحمى عندما هبطوا إلى ڤيرا كروز[١].

ونلاحظ ثانيا: أن الظروف الجغرافية قد تختلف فى المنطقة الواحدة، فى القوة والقيمة. فمثلا قد تستفيد المدنية وهى فى دور الطفولة من بيئة منعزلة محصورة تجد فيها الأمان. ولكن نفس البيئة (بنفس الصفات التى تتميز بها والتى كانت ذات فائدة كبرى فى مرحلة سابقة) قد تصبح عائقا لها فى وقت آخر، وقد عرفت تلك الفترات كل من مصر وفينيقيا وكريت وشبه جزيرة اليونان. فكل منها كانت تتمتع بشىء من العزلة مكنها من اكتساب ميزاتها الخاصة فى بيئة آمنة، ولكن بعد أن اكتمل نموها لم تصبح العزلة ميزة بعد، بينما نجد سهول روسيا كانت مقفرة موحشة فى بادئ الأمر ثم أصبحت أهم وأغنى بقاع دولة قومية مزدهرة.

ثالثا وأخيرا، إذا أردنا أن نقدر أهمية إقليم ما، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار مسألة مواصلاته. فتطور الطرق التجارية الكبرى والمواصلات العالمية عامل له أكبر الأهمية ، كما أن شبكة المواصلات الداخلية التى تربط أطراف الإقليم بجيرانه مهمة كذلك لترابطها السياسى والاقتصادى وللصلات الاقتصادية والفكرية التى تربطها بجيرانها وهذا أمر لا يحتاج إلى إيضاح.

تقوم المجتمعات البشرية وتنمو وتزدهر عند نهايات الطرق التجارية العالمية فى نقط التقائها. ويؤكد المؤرخون أثر الطرق الكبرى فى جميع العصور، ولنذكر الفرنسيين منهم فقط على سبيل المثال (ديشيليت) فى مجال ما قبل التاريخ وكاميل جوليان فى تاريخ الغال القديم، وفيدال دى لابلاش فى تاريخ فرنسا[٢].

---

(١) كابيتان ولوران (٢٠١) ص ٤٠١.

(٢) سنعود إلى هذه النقطة فيما بعد. انظر الفصل الثانى من الباب الرابع.

هذا كله صحيح ولا يدعو إلى النقد بشرط ألا يكون هناك أى حديث عن الضروريات. فليست هناك ضرورة حتمية صلبة آلية. ولنكرر مرة أخرى تلك الحقيقة التى لا تحتاج إلى بيان وهى أن هناك تفاعلاً بين الأرض وسكانها، وأن هذا التفاعل يشتمل على الكثير من المتوافقات ـ والمتناقضات «مثل جميع الأجسام العضوية المنسجمة تنمو بالشد والجذب ولا تفتؤ تتأرجح حول نقطة جذب واحدة» على رأى ركلوس[1] فهناك حالات نمت فيها المجتمعات وخصوصا الكبيرة منها نظرا لسهولة اتصالاتها بالعالم الخارجى، ولكثرة هذه الاتصالات وتعددها. بينما استفادت أخرى من شدة عزلتها وابتعادها عن الطرق الكبرى ووعورة الوصول إليها.

ويصور هذا تصويرًا رائعًا تاريخ روسيا، حيث كانت السهول الجنوبية وهى أغنى بقاع روسيا، الأرض السوداء، طريقا ومعبرا للغزوات الكبرى، ولم يقتصر تيار هذه الغزوات على العصور الوسطى فحسب، بل استمر حتى العصر الحديث. ولذلك لم يستطع المجتمع فى جنوب روسيا أن يتكون وهو تحت ضغط تلك الهجمات وصدماتها المتتالية. فما إن يؤسس شعب لنفسه مجتمعا فى هذا الإقليم حتى يندك من أساسه وتطوِّح به غزوة أخرى تكتسح كل شىء فى طريقها. بل أكثر من هذا فقد كانت سهول روسيا جنوب مقاطعة أوريل «صحراء جرداء»[2] فى أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر ثم عادت «فترة الاضطراب» مرة أخرى فى القرن السابع عشر عندما اجتاحت جحافل التتار هذا الإقليم مرة أخرى[3] فكانت الشرنوز أو التربة السوداء الخصبة غير مجدية بينما استعمر الروس السهول، بل إن شمال روسيا نفسه كان أقل إيحاشا وقفرا من الجنوب، ولكن هذا التناقض انتهى عند حده فى أيام الملك بطرس الأكبر فقط.

وهكذا تنشأ الدولة الروسية فى الإقليم الذى يقع على الطريق الكبير بين آسيا وأوربا المفتوح أمام جحافل الغزوات، بل إنها نشأت فى الأجزاء الفقيرة المنعزلة البعيدة عن طريق الغزوات. حيث نظف الفلاحون قطعا من أرض الغابات

(١) ركلوس (٨٧ أ) مجلد، ص ٦١٩.

(٢) ملبوكوف (٢٢٧)، ص ٧٠.

(٣) نفس المرجع، ص ٧٢.

البوليانى «Polia, poliany»[١]. متناثرة وسط الغابات شمال الأرض السوداء ومن ثم كانت نشأة المدن التاريخية القديمة مثل روستوف على ضفاف البحيرة المعروفة بهذا الاسم، وبرياسلاف زالشكى وفلاديمير الشكى ومعناها ما وراء الغابة، أبو ريف بولستكوى أى مدينة «الأرض المنظمة من الغابات» وأخيرا موسكو التى كان يحيط بها نطاق من الغابات.

هنا نجد افتراقا غريبا بين فكرة الخصوبة والثروة الطبيعية، وإمكانيات البقاء. وهذا مثل غريب للمُثل المقلوبة ولكنه ليس المثل الفريد فى بابه. إذ إن الغابة قد لعبت وحدها دور الدرع الواقية لنشأة روسيا. وقد لعب هذا الدور - فى إقليم آخر يمتاز بمناخ مختلف - عاملاً طبيعيًا آخر هو سلسلة من البحيرات المنقطعة القحلة والمسارب المائية السيئة الصرف، والمستنقعات التى كونتها شطوط ضيقة منتظمة عزلت مساحات من ماء البحر داخل خط الساحل غير المحدد، بفعل رواسب الليدى (Lidi) التى كونت عددا من الجزر الصغيرة. هذه الدرع حمت قيام جمهورية البندقية، حيث وجد سكانها ملجأ لهم وراء البحيرات المنقطعة والمستنقعات وفى الجزر الصغيرة ملاذا من بطش القينوم مثل مونتسليس وبادوا اللتين قامتا فى أراض غنية تشملها الطرق المهمة من قديم الزمن، ولكن هذه الميزة الطبيعية التى جعلت من تربتها الخصبة مزارع غنية عرضت تلك المدن لغزوات الغزاة المتكررة مثلها فى ذلك مثل جنوب روسيا، فاضطر أهل تلك السهول إلى الاعتصام فى تورشيللو وبورانو وموران‍و ثم جنويا فى مالموتشو[٢]، شيوجى قبل أن يجدوا طريقهم إلى مثوى جمهورية البندقية فى أرض ريالتو وليفولو وسبينالونجا[٣] التى كانت مهجورة من قبل.

إن الحقائق من الوضوح بحيث تضطر النظريين وأتباع نظرية الحتم الجغرافى إلى أن يسلموا بها وما لهم غير ذلك سبيل، بالرغم من أنهم يحاولون إثبات وجهة

---

(١) دالميدا (١١) ١٩١٠ ص١٨٠.

(٢) Malmocco, Chioggia, Rialt Olivolo Spinalunga,

(٣) دالميدا (١١) ١٩١٠ ص ١٨٠.

Molmente, la vie a Venice 1895. Chap. I, Diehl, Une republique parricenne; Venice, Paris 1913. Chap. 10

نظرهم بشكل غير منطقى، ولكن التاريخ ملىء بالحالات القياسية كما هو ملىء بالطفرات الفجائية الجديدة.

وسنذكر مثلا كلاسيكيا آخر هو الحالة الجزرية لبريطانيا ـ يقول أصحاب نظرية الحتمية الجغرافية إن قوة بريطانيا البحرية ترجع إلى اقتران العنصر ـ إذ إن بعض السكان يرجعون إلى العنصر النورماندى ـ بحالة البلد الجزرية، فركوب البحر كان غريزة فى عدد كبير من سكان بريطانيا والملاحة ضرورة حيوية للجزيرة. ولنسلم بهذا ولكن ما وجه الشبه بين إنجلترا أيام الملكيات المسيحية وبين إنجلترا النورماندية وإنجلترا الكرمولية؟ وبالرغم من ذلك فإن البيئة لم تتغير كما أن عناصر السكان لم تتغير كذلك منذ قرون.

إننا لا نريد أن نحول اتجاه المشكلة فلا يجب أن يقال إن إنجلترا وطن الملاحين وقدر لها أن تكون كذلك، فهى قد مرت بكل بساطة وإن كان بشكل عكسى فى نفس الأدوار التى مرت بها أمة كتب عليها أيضا أن تكون أمة بحرية الا وهى أمة الإغريق. لقد كانت اليونان القديمة أمة بحرية كبيرة بينما هى الآن أمة صغيرة. وفى رأى الحتمية لم يكن هذا التغير فى قيمة بلاد اليونان لتقاعس من همم الإغريق بقدر ما كانت لتغير ظروف البيئة الجغرافية. لقد كان الإغريق يقومون بنشاطهم البحرى قديما فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، الذى كان يشمل أهم أجزاء العالم المتمدين، وهم لا يزالون حتى الآن يقومون بهذا النشاط فى نفس المنطقة، ولكنها لم تعد أهم أجزاء العالم المتمدين، بل مجرد جزء غير مهم فى هذا العالم المتمدين.

وعلى العكس من ذلك إنجلترا التى كان نشاطها البحرى محدودا فى جانب واحد من المحيط الأطلسى وفى بحار ذات أهمية محلية فقط، ومن ثم لم تكن دولة مهمة. ولكن الثورة الملاحية الكبرى التى قامت فى القرن الخامس انتهت بأن قفزت بهذا النشاط ورفعت به إلى المقدمة التى لا تزال تحتلها. ولكننا سنبين أن هذا القياس العكسى ليس صحيحا. فقد كان نشاط إنجلترا البحرى فى أيام إليزابيث غير ذى أهمية. وقد بينّ رتشارد أهرنبرج[1] بجلاء فى كتابه عن

(1) Ehrenburg, Hamburg and England, Jena, 1896, p. 27.

هامبورج وإنجلترا فى العصر الإليزابيثى كيف ولماذا ازدهر هذا النشاط البحرى. ونحن نتتبع معه كيف أن تصدير المنسوجات الذى احتكرته نقابة التجار المغامرين انتقل بعد نهاية القرن الخامس عشر إلى تجارة مرور، وقبل ذلك كانت إنجلترا مجرد بلد زراع يقوم أهله بالزراعة وتربية الماشية ويعيشون على التربة الزراعية، ويلتصقون بها. ولم يكن الإنجليز أمة بحرية ولم يتحولوا إلى البحر إلا نتيجة حدوث انقلاب لم يكن لهم فيه يد. أى كان عاملا أجنبيا عنهم ولكنه نقل مركز النشاط البحرى من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسى. أى من مجال بعيد عن البريطانيين إلى مجال يحيط بهم من كل جانب. فالحق أن إنجلترا غيّرت طبيعتها لأسباب لا تتعلق بالعنصر أو البيئة الجغرافية ولكن نتيجة لاتفاق قوى كانت ثاوية فى ضمير الغيب ثم فجأة ظهرت فى الوجود.

والتاريخ حافل بأمثال هذه القوى المنبثقة. وأهم من هذا تاريخ العلاقات المتبادلة بين الشعوب. تاريخ الطرق البرية الكبرى التى قامت بدور كبير فى حياة الأمم والدول وكان لها الأثر الأكبر فى ازدهار المجتمعات، وستسنح لنا فرصة قادمة فى الباب الرابع للعودة إلى هذا الموضوع وإلى أن نصل إلى هذا الباب دعنا نكرر مرة أخرى: ليس هناك شىء ثابت دائم لا نعرفه، لا شىء مطلقا سوى الاحتمالات.

فحتى الطرق البرية التى يبدو أنها ثابتة لا تتغير خضعت لعدد كبير من المؤثرات الحغرافية التى يمكن تفسيرها. فشبكات الطرق تنشأ ثم تنفض ثم تنشأ من جديد، فقد شهدت أوربا فى العصور الحديثة مد السكك الحديدية من شمال القارة إلى جنوبها إلى حوض البحر المتوسط، ومنها إلى الشرق الأدنى. وقد عبرت هذه الطرق ممرات الألب فى سويسرا، تلك الممرات التى كانت عوائق أمام المسافرين من قبل. وقد شهدت القارة سباقا بين الدول فى شق الأنفاق الجبلية.

وكان سباقا يتطلب الكثير من الجهد والمهارة والعمل، ففتح نفق السمبلون ومن بعده مدت الخطوط النمسوية عبر تاورن ـ برن ـ كاراوانكن، فى عامى (١٩٠٩ ـ ١٩١٠). ثم افتتح نفق لوتشبرج البرنى فى أغسطس سنة ١٩١٢، ثم نفق هاوتشاين ونيس شونينو عن طريق تندا وعدد كبير من المشاريع الضخمة من جبل مونت بلان إلى سبلوجن وجريتا.

وتتكرر نفس القصة فى البحر أيضًا. وقد تحول النشاط البحرى كما يقولون من مجال إلى آخر. من مجال البحر الأبيض المتوسط إلى مجال المحيط الأطلسى فى القرن السادس عشر. وهذا الحكم يحتاج إلى تعديل. فإن الثورة أو الانقلاب البحرى لم يحدث غداة اكتشاف أمريكا مباشرة. فبعد سنة ١٤٩٢، كما كان الحال قبلها، كانت أهم نشاط تجارى لموانئ البحر البلطيقى وبحر الشمال التجارية مع دول شمال أوربا. ولم تفعل إنجلترا أو هولندا سوى اقتسام تركة مدن الهانسا. ولم تظهر آثار اكتشاف العالم الجديد ونتائجه إلا ببطء فيما بعد. ولاسيما أن العالم الجديد كان يعيش عالة على العالم القديم. وكان تقريبا خاليًا من السكان أو نادر السكان ولم تلعب منتجات أمريكا (فيما عدا الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة) دورًا ذا بال فى اقتصاديات أوربا إلا منذ القرن السابع عشر. وكان لابد من هجرات واسعة تخرج من أوربا لتعمر أمريكا قبل أن تستطيع هذه القارة أن تلعب دورها وقبل أن يصبح المحيط الأطلسى مجالا لطرق ملاحة منتظمة بين العالمين القديم والحديث.

بعد هذا التخطيط نستطيع أن نقبل الحكم الذى قلناه فأصبح المحيط الأطلسى أهم من البحر الأبيض المتوسط كمجال للطرق الملاحية. ولكن لما شقّت قناة السويس عاد هذا البحر إلى مجده القديم. وإلا فما فائدة تلك الأنفاق العديدة فى جبال الألب؟ هل للوصول إلى إيطاليا من أجل إيطاليا ذاتها؟ إن قيمتها الاقتصادية لا تستحق هذا العناء. فليست إيطاليا إلا مجرد بوابة تقود إلى الشرق، إلى الإسكندرية ومصر[1]. وهكذا كانت عندنا ثلاث فترات للنشاط البحرى: تفوق البحر الأبيض المتوسط ثم اضمحلاله ثم ازدهاره مرة أخرى. أليس اكتمال طريق بغداد الحديدى سيتضمن تهديدًا خطيرًا لهذا الازدهار الأخير؟ أم أن نمو تجارة المحيط الهندى وبعبارة أخرى الدول الفتية التى تطل عليه مثل اتحاد جنوب أفريقيا ستعوض السويس الخسارة التى ستحيق بها من تحوّل المسافرين إلى طريق حيدر باشا إلى بغداد والخليج الفارسى؟ لابد أن وضع

---

(1) Eisenmann : Les chemins de fer transalpins. Rev.des cours et conferences.

تصميم توسيع ميناء السويس وإنشاء معمل لتكرير البترول فيه قد أخذ علمًا بهذا الاعتبار الأخير.

ومن ناحية أخرى فكم من الطرق القديمة التى تطاول عليها العهد فى أفريقيا وآسيا والأمريكتين قد هجرت فجأة وتركت تنعى من مهدها، بالرغم من أن الظروف الجغرافية ظلت كما هى لم تتغير؟

كما أن كل يوم يشهد انبثاق طرقات جديدة يلاحق بعضها بعضا كأنها فى سباق. فعلينا أن نتتبع يوما بعد يوم بل لحظة بعد أخرى نحو شبكة الطرق العالمية إذا أردنا أن نكون ملمين بالأمور فى حينها. هذا بالرغم من أن التضاريس باقية كما هى وشكل القارات لا يزال على حاله. والناس على عاداتهم باقون. والإمكانيات قد تبدو واحدة ولكنها فى الحقيقة تغفو لتستيقظ ثم تعود مرة أخرى إلى سبات عميق. فإنها لا تظهر جميعا مرة واحدة أو فى نفس الوقت. إنها كأصابع البيانو إذا وضعنا أصابعنا على إحداها دون نغمة معينة ولكننا لا نمسها جميعا فى وقت واحد أو بنفس القوة، ندق على بعضها باستمرار وبعضها يستمر لمدة قرون ولكنها لا تكف عن إصدار نغماتها، بينما يظل بعضها سادرًا فى نومه ينتظر من يوقظه وهذا لا يرجع إلى مجرد المصادفة بل إلى نشاط المجتمع البشرى.

- ٢ -

تعريف الإمكانيات

والآن فنلخّص ما سبق أن فصلنا ـ لقد ضيّقنا مجال المشكلة بخطوات متتابعة. فلم تصبح الأقاليم الطبيعة سوى مجالات لإمكانيات الجماعات البشرية. ولكن إذا كانت هذه الإمكانيات تكون نظرة محددة ثابتة فما جدوى نقاشنا، ألا تشبه نظم الإمكانيات مجموعة من القوى سبق أن تحدثنا عنها؟ أليس معنى هذا أنا احتفظنا بنفس الشئ مع تغيير فى الأسماء؟ أليس معنى هذا أن هذه الإمكانيات قد ضيقت الخناق على الإنسان؟ وحكمته بيد من حديد؟ كلا ـ حيث إنه لا يوجد شيء حتمى ضرورى مقدر على البشر من الأزل ـ بل تنوعات متغيرة باستمرار وطفرات جديدة منبثقة على الدوام، فترات من السبات ثم يقظة مفاجئة وكلها ترجع إلى النشاط البشرى. ولكن كيف تدرس تلك الإمكانيات على أساس علمى إذا كانت لا تلعب سوى دور قصير متقطع فى حياة البشر؟

نستطيع الآن أن نحدد المشكلة الحقيقية بدقة، إنها تتكون أولا من تحليل فكرة «الإمكانية» تحليلا دقيقا. وثانيا من تقسيم الأقاليم حسب ترتيب اتساع إمكانياتها أو ضيقها. أو بالأحرى إذا أردنا أن نكون أقل طموحا أن نلخص ترتيب الإمكانيات فى الأقاليم الطبيعية. وتختلف الأقاليم الطبيعية فى مجال الإمكانيات الذى تقدمه وفى وضوح هذه الإمكانيات وقيمتها. ولما كانت هذه الإمكانيات لا تظهر ظهورا ذاتيا آليا فإنها كلما كانت عديدة واسعة المجال فى إقليم ما كان الاحتمال أكثر فى ظهور بعضها فى زمن ما. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نبنى النظام التصاعدى الذى أشرنا إليه. ولكنه لا يزال صعب البناء نظرًا لصعوبة تعريف الإمكانيات.

أهم الاحتياجات الطبيعية الأساسية اللازمة لتكوين مجتمع إنسانى ونموه هى بيئة غنية بثروة حيوانية تكفى مطالبها. ولكن هل تكفى هذه القاعدة مجرد حساب رياضى بسيط له نتائج آلية لعدد الأنواع الحيوانية والنباتية التى تقع تحت تصرف البشر؟

إننا لا نستطيع أن نستنتج فوائد الإقليم أو مضاره لجماعة إنسانية بمجرد تقييم ثروته الحيوانية والنباتية. وبمعنى آخر إننا لا نستطيع أن نكوّن فكرة صحيحة عن غنى إقليم أو فقره بمجرد دراسة قائمة لنباتاته وحيواناته، وقد يبدو متناقضا ـ نقول يبدو فى الظاهر فحسب ـ أن الغنى الفاحش فى هذه الثروة ينتهى بنفس النتيجة التى يحملها الفقر المدقع فيها بالنسبة للإقليم. ففى بعض الأقاليم التى تمتاز بغنى الحياة النباتية والحيوانية لا يستطيع الإنسان أن يجد له مأوى ويشق طريقه بصعوبة فيها. فالغنى الزائد يتساوى عمليا فى نظره، بالفقر المدقع، وكأن الحياة الزاخرة من حوله قد شلت حياته يدل على هذا ملاحظة أى إقليمين متجاورين كالإقليم القطبى ودون القطبى من ناحية والأقاليم التى تقع بين المدارين من ناحية أخرى. ومن العبث عقد مقارنة بين هاتين الحالتين، ففى حالة الإقليم القطبى الشمالى والجنوبى تواجه الإنسان عقبات عديدة لا قبل له بها، نظرا لفقر موارد هذين الإقليمين النباتية والحيوانية، أما فيما يختص بالأقاليم التى تقع بين المدارين فإن البحث يعوزه الدليل.

لقد كانت العادة تجرى من قبل فى وصف الثروة النباتية والحيوانية للأقاليم المدارية بحماس كبير. فكانت تسمى بأرض المعاد، حيث تجود الطبيعة بخيراتها وتغرق الإنسان فى فيض برها، فوفرت عليه الكد والنصب وجنبته مشاق العمل، فلا حاجة له فى أن يعمل ليكسو نفسه أو يبنى مسكنه أو حتى يطعم نفسه، تحيط به أشجار الفواكه العديدة المغذية فما عليه إلا أن يمد إليها يده ليقطفها. والطبيعة تقدم له ألوانًا عديدة من الغذاء المفيد الشهى، ثم أقيمت نفسية كاملة للبدائى اللطيف فى هذه البيئة الحارة، قائمة على هذه المقدمة المضللة، ولكن هل حل محل هذه الخرافة القديمة شىء آخر قائم على أسس واقعية سليمة؟ إن

علماء النبات وقد تأخذهم الحماسة لعملهم قد رسموا صورة عاجلة [1] للغابات الاستوائية التى تدعو إلى التقاعس، فى حوض الأمازون والكونغو هناك يعيش الإنسان فى إجازة دائمة، فهذه أماكن الصيف الدائم حيث تنمو النباتات الاستوائية العظيمة.

هناك يعيش الإنسان بدون نصب، إذ يكفيه محصول شجرتين أو ثلاث مؤونة الكد طوال العام، حيث يجد أنواعا عديدة من الفاكهة والطعام الشهى حيثما اتجه. بل أكثر من هذا فقد دعا هذا الوصف بعض الكتاب إلى أن يشير إلى هذه المنطقة كالوطن الأصلى للإنسان، فهنا يستطيع الإنسان الأول أن يعيش، دون أن يتعرض للموت جوعا، كما قد يتعرض له فى الأقاليم الباردة، ومن المحتمل جدا أنه نشأ فى هذا الإقليم الحار الاستوائى، ومنه انتشر إلى بقية أنحاء العالم[2] وسنترك أحلام كاتب هذه العبارة ـ كوكانى ـ إذ إنه وقع فى أخطاء بلغت من الضخامة حدا لا يحتاج إلى مناقشة، بل يكفى أن الحقائق التى حملها العلماء والمكتشفون حديثا ترد عليه بما فيه الكفاية.

إن الغابة الاستوائية إقليم صعب لحياة الإنسان، هذا هو ما أجمع عليه كل من رحل إليها وعاش وسط تلك الغابات الكثيفة المتشابكة، التى ترتفع إلى كبد السماء، والتى تتشابك أغصانها فتحجب السماء عن السائر فيها، وتكون شبكة سميكة من النباتات المتسلقة والأحراج والنباتات الطفيلية التى تحاول أن تصل إلى الضوء، الذى تحجبه الأشجار الشاهقة [3]، ولذلك كان من المتعذر على الإنسان أن يتحرك فى هذه الغابات إلا إذا كان من أهلها الأصليين الذين يعرفون طرقها وممراتيها.

هذا كلام معاد. فعهدنا بستانلى وخطاباته إلى الديلى تلجراف من مانيمينا فى جنوب أفريقيا ليس ببعيد، إذ إنها ترجع إلى أول نوفمبر ١٨٧٦، وقد استطاع

---

(١) مقدمة الكتاب ١٠٥ وما بعدها.

(٢) قارن هذا الرأى بما ورد في ول (١٦) ١٩١٦ مجلد ٢٧ ص ٤٩٨.

(٣) كونستانتين ١٠٤ ص ١٩٤ ومابعدها.

ستانلى أن يبدد سراب الغابة العذراء التى تثير فينا الشوق ونحن نراها عن بعد، من فوق قمة تل، ولكن ما إن نحاول أن نقتحمها حتى تبدو لنا على حقيقتها، موحشة، مقفلة أمام الإنسان، وكما يقول ستانلى فى أحد خطاباته، معجزة فى صمتها وسكونها وبعدها عن التناسب والاتساق وبعدها عن الاقتراب من الإنسانية. ولا ريب أن معلوماتنا عنها قد تقدمت منذ أيام ستانلى، وقد استطعنا الحصول على معلومات دقيقة عن هذه الغابات بعد رحلات شيفالييه Chevallier وكوماندات، برتين (Bertin)، ورحلة كونت دى بروى (J. de Broy) إلى ما يامبى، وقد بينوا جميعا أن كثافة الأشجار فى الممرات المؤدية إلى الغابة تخدع المسافر كثيرا، وأن الغابة تحتوى على مساحات. كثيرة مكشوفة من النبات، وأن أماكن الأحراج القصيرة أوسع مما نتصور، فهناك فى الواقع تداخل بين إقليمى الغابات الاستوائية والسافانا، وبهذه الطريقة تعدلت فكرتنا عن هذا الإقليم فلم يصبح قفراً تماما من السكان كما كنا نظن وكما يوضحه أطلس بارثلميو عن الجغرافيا الاقتصادية فى خريطة توزيع السكان فى العالم[1] وبالرغم من هذا كله فإن أحد الرحالة الحديثين الباحثين فى قبائل أواسط أفريقيا وهو دكتور كورو[2] لا يزال يردد أقوال ستانلى من قبل وربما كانت هذه الدراسة مسرفة قليلا فى الخضوع للنظم العلمية والترتيب المنطقى وربما كانت مجهدة شيئا ما ولكنها فى مجموعها تحتوى على معلومات مفيدة. فربما كان من الصعب التفرقة بين السهل المكشوف وبين الغابة كما فعل. فالغابة العذراء متشابكة ساكنة نائمة متجانسة غير ملونة، اللون العام لها هو الأخضر الداكن ولون التربة أسود ضارب إلى الحمرة الداكنة وإذا دخلتها فأنت تحت سقف من الخضرة الكثيفة التى تعذبك تحت وطأتها وتحت وطأة الحرارة الشديدة والرطوبة المرتفعة. فتكون لك هذه الخضرة الداكنة اليابسة سوط عذاب ثم تبدأ العقبات تظهر لك واحدة بعد أخرى، تجعلك تقفز

(١) بارثلميو ١٠ لوحة رقم ٧ حيث تظهر من الخريطة كثافة السكان فى الغابات الاستوائية الأفريقية ١٠ ـ ٢٥) نسمة فى الكيلو متر المربع (٢٦ ـ ٦٤ فى الميل المربع) بينما هى أقل من نسمة واحدة فى الكيلو متر المربع فى البرازيل.

(٢) كورو ٧٩ ص ٣٠.

من فوق الجذور الضخمة التى تعترض طريقك بينما قدمك تغوص فى بساط كثيف من أوراق متساقطة أو فى الجذور المتعفنة. ثم يقارن الكاتب بعد ذلك بين ساكن السهول المكشوفة وبين ساكن الغابة الذى يعيش فى حذر دائم وغموض شامل داخل الغابة. فإذا خرج منها بهرته الأضواء الساطعة كما يعيش الخفاش فى ضوء النهار[١] ولكن «رجل الغابة» فى رأى الحتميين يملك كل السبل للرفاهية، وقد أعطانا الدكتور كورو (Cureau) فكرة جيدة لحياة سكان الغابات القلقة المبتسرة ولا يرجع هذا إلى غنى الحياة النباتية الفاحش وحجم الغابات الضخمة وصراعها نحو الضوء فحسب، بل إلى الخطر الذى سجله كل مخلوق مهما كان ضئيلا صغير الحجم، الطفيليات المهلكة والحشرات النهمة التى تشير إلى حياة حيوانية زاخرة والنتيجة لهذا كله أن هذه البيئة خالية من البهجة والسعادة، إذ إن الطبيعة تمثل دور امرأة الأب بالنسبة للإنسان فهى قد حرمته أول مطالب الحياة وهو الطعام. حيث إن الأشجار تحمل ثمارها على ارتفاع شاهق كما أن الصيد مسألة تتوقف على الحظ. وهى تحرمه من الشمس مصدر الصحة والعافية، وليس هنالك عود من الحشائش يملأ ناظريه جمالا أو عشبا يريح عليه أطرافه المتعبة.

هذا عن أفريقيا فإذا سألنا من هم على علم بأمريكا[٢] الجنوبية وغابات الأمازون فإنهم يرددون نفس الإجابة. أول ما ينطبع فى الذهن عن هذه الغابات وفرتها النباتية التى لا تنفذ. الأرض حارة رطبة والنتيجة لذلك نمو النباتات ونضوجها بسرعة وبدون توقف كما يقول ريفيه[٣] ولكنه بعد أن يدرس الإقليم يعيد النظر فى حكمه ويقول إن خصوبة الغابة أمر ظاهرى أكثر منه حقيقى. ويوافقه ليكوانت[٤] فالتربة فقيرة رملية طينية أو صخرية فوقها طبقة رقيقة يمكن أن ينمو عليها النبات. وهذه تكتسحها الأمطار بسهولة إذا قطعت الأشجار

---

(١) نفس المرجع ص ٣٠، و ص ٣٠٢.

(٢) نفس المرجع ص (٢٩ - ٣٠).

(٣) فى «١٦» ١٩٠٧ ص ٨٣.

(٤) مناخ الأمازون (١١) ١٩٠٥.

من فوقها. ومن الواضح أن هذه البقاع ليست إلا صحارى مغطاة بالخضرة تنتظر دورها لكى تختفى. هذه ولاشك طبيعة نباتية لا تجتذب الإنسان، إذ لا تقدم له أى مورد طبيعى. ولذلك كان سكان وسط أفريقيا يعيشون فى مجاعة دائمة. ان كل ما يحلم به الزنجى هو أن يأكل حتى يتخم[1] يا له من تناقض! سكان الغابة العذراء التى تزخر بالحياة يعيشون فى شبه مجاعة دائمة. ولكن هذا أمر يسير الفهم فالصيد قليل، والحيونات قوية الشكيمة متوحشة مفترسة مثل الفيلة وأفراس النهر والثور الوحشى، أما تربية الماشية فمتروكة للماشية نفسها. إذ إنهم لا يعنون بها وكذلك كانت الماشية صغيرة الحجم ضئيلة لا تشبع ولا تغنى عن جوع، ولا توجد ماشية ثقيلة نظرا لتفشى الأمراض المعدية بينها[2] والزراعة جزئية قليلة القيمة بعض الحقول من الكسافا والسغم والدخن والبطاطا حيث يمكن تنظيف الغابة وإعداد مكان للزراعة. ولا يرجع هذا إلى بدائية الزراعة فحسب، فحتى أساليب الزراعة الراقية لا تستطيع أن تفعل شيئا فى هذه البيئة. فجهود الأوربيين فى ميدان الزراعة لم تأت بعد بنجاح فالأعداء يتربصون بالنبات من كل مكان، إلى جانب الصعوبات المناخية إذ قد يتوقف المطر مرة واحدة فيهلك الزرع أو قد تسقط الأمطار بغزارة فتقتلعه من جذوره، والموارد الطبيعية للتربة هنا تتكون من الجذور والدرنيات وهى (أطعمة مجاعات) كما يقول شفالييه[3] إذ إنها تحتوى على الجيلوكوز بشكل يتطلب إعدادا طويلا قبل أن تكون صالحة للأكل، ولا تزخر الطبيعة إلا بالديدان والضفادع والحشرات والنمل والفراشات. وكلها نهمة فى تناول الطعام حتى لقد قيل إن أشد الأحياء افتراسا وتوحشا فى الغابة الاستوائية هى الحشرات[4] ولكن قبائل الباندا والمانجا وغيرها تعيد التعادل فى الطبيعة بأن تصطادها وتجمعها ملء السلال وتأكلها فى فصل الشتاء وهذه الحشرات تمدها بالمادة الدهنية اللازمة لها.

---

(١) كيورو «١٧٩»، ص٢٥٢.

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٨.

(٣) شيفالييه «١٧١» ص ١١٢.

(٤) شيفالييه «١٧٨» ص ٨٩ ـ ٩٠.

ومن ثم فلا عجب أن كانت المجاعات تجتاح هذه الإقليم من حين إلى آخر وإن التوحش وأكل لحم البشر لا يزالان فى بعض قبائله. إذ إنها ترتبط دون شك بمشكلة الطعام وربما نشأت فى الأصل على شكل طقوس دينية وكان الغرض منها تقمص صفات الشخص بأكل بعض أجزائه أو آكله كله، ولكن مما لاشك فيه أن قبائل الباندا مثلا التى تعيش فى أوبانجى كانت تضطر كما رآهم شيفالييه، إلى اصطياد جثث الموتى والتهامها إذا عضها الجوع بنابه. ويقول دكتور كيورو[1]: إن أحد حكام أو بانجى اضطر إلى إقامة حرس على المقبرة ليدفع عنها هجمات الجياع الذين لا يتورعون عن نبش القبور لأكل جثث الموتى، وهم لا اعتراض على ذلك لأنهم كما يقولون لا يأكلون رائحة الجثة بل لحمها.

إلا أن الغابة ليست كل الإقليم المدارى. أليس من الضرورى أن نفحص تربة اللاتريت، ذلك الطين الذى تكون من تحلل الصخور القديمة مثل الجرانيت والنيس والديوريت بفعل الأمطار القوية الغزيرة لكى نتبين ما عسى أن يسهل الحياة للجماعات البشرية هنا؟ ألا تزدهر الجماعات البشرية فى التربة الحمراء فى الدكن والهند الصينية ومدغشقر والكونغو؟ ويقول إميل جوتييه، الذى قام بأبحاث فى مدغشقر: إن التربة هناك لها صلابة وخصب الطوب الذى اشتقت اسمها منه، ويقوم السكان بحفر حفر صغيرة فى التربة وغرس البذور ولكن ليس معنى عدم وجود الغابة وجود اللاتريت، ولكن إذا سقطت على هذه التربة النهمة كمية كافية من الأمطار هل يتغير الوضع وهل تكون هناك إمكانيات للاستقرار؟ نعم ولكن فى نطاق الأقاليم المعتدلة التى لا تقارن بالأقاليم المدارية فى غناها الموهوم أو بالأقاليم القطبية وما دونها فى فقرها الحقيقى.

---

(١) كيورو ١٧٩٠، ص٢٥٢.

- ٣ -

بيئات البشر: السهول - والهضاب - والجبال

لقد تحدثنا عن المجموعة الأولى من العناصر التى نحتاج إلى تحديد إمكانياتها. إذ إن إمكان قيام مجتمع إنسانى يحتاج لتوفر أمرين الأول: توفر ثروة نباتية وحيوانية كافية لكى يؤسس حياته عليها تأسيسا سليما، والثانى: سهولة الاستفادة من الموارد الطبيعية الموجودة فى تناول يده، ولاسيما من ناحية الحيوان والنباتات حيث ينبغى أن يكون فى استطاعة المجتمع الاستفادة من هذه الثروة بسهولة استفادة تعود عليه بالنفع. أى ينبغى ألاّ تكون من الغنى والتنوع بحيث يعجز الإنسان عن ضبطها. ومعنى هذا أننا لا نهتم بإحصاء تلك الأنواع النباتية والحيوانية إحصاء رياضيا.

ففكرة الجغرافيا عن غنى الإقليم وفقره تقاس من ناحية مختلفة تماما كما بينًا، بحيث لا يمكن أن نبنيها على الظروف المناخية فحسب، بل إن المجتمعات الإنسانية تحتاج لظروف طبيعية يمكن لها فيها من أن تحاول البناء والتعمير، إذ إن هناك أنواع نباتية وحيوانية تعوق النشاط البشرى ولا يستطيع الانسان أن يغزو المملكة الحيوانية أو المملكة النباتية ويسخرها لمصالحه وحاجاته إلا بعد أن يؤسس قواعد خاصة يقيم عليها جهوده ونشاطه، وفكرة نقطة البدء هذه - (Point d'appui) فى غاية الأهمية من حيث المنهج والمادة ونقطة البدء تستمد من الصفات التضاريسية للإقليم وهى تخرجها من رقابة فكرة الإقليم المناخى النباتى والحدود بين هذه الأقاليم وتعطى هذه الأقاليم المناخية النباتية تنوعا وغنى فى الإمكانيات. ولكن الصعوبة تواجهنا عندما نحاول أن نبرز هذه الفكرة ونحللها ونعطيها تعريفا واضحا محدودا.

تقسيم سطح الكرة إلى جبال وسهول وهضاب تقسيم تقليدى قديم، وهى فكرة ورثها الجغرافيون المحدثون عمن سبقهم ولم يهجروها. وربما كان ذلك خطأ. لأنهم لا يزالون يستعملون الألفاظ القديمة ويكتفون بتحليلها وتوضيح مدلولاتها، ثم أضافوا نوعا جديدا من التضاريس وهو الأحواض والمنخفضات وبذلك أصبح عدد الأقسام التضاريسية أربعة ولا تزال التعريفات القديمة فى غموضها ومدلولاتها العامة.

ولنأخذ أحد الكتب المدرسية التى تعالج هذا الموضوع وهو كتاب «تطور الأرض والإنسان» لمؤلفه ليسبانيول Lespagnol (١٩٠٥) وهو كتاب وسيط بين الكتب المطولة وبين الكتب الابتدائية فى موضوع الجغرافيا العامة وهذا الكتاب يقسم التضاريس إلى أربعة أقسام[١].

ويقسم الجبال إلى جبال تكتونية وجبال التوائية وجبال تراكمية، والأولى تنقسم إلى جبال التوائية وجبال انكسارية وجبال أتت عليها عوامل التعرية والتحات وأصبحت سهولا مموجة.

وقد يبدو أن هذا التقسيم سينتهى بنا إلى اختصار فكرة الجبل وقصرها على نوع واحد ليس هذا هو الواقع؛ فالجبال كما يقول المؤلف تمثل أجزاء من سطح الأرض ارتفعت عن المستوى العام ارتفاعا كبيرا، وهذا تعريف غامض جدا وما هو المستوى العام ومن أى ارتفاع يبدأ؟ هل هو يقصد الأرض التى تحيط بالجبال أو سطح البحر؟ هناك جبال الألب والبرانس والهيمالايا والجورا والمورفان وجبل ثورنجيا والفوج والغابة السوداء، كما أن هناك ريمس[٢] (٨٨٢ مترا) ولاون (١٨١ مترا) وكاتس (١٥٨ مترا) ومونت كاسل (١٠٦ أمتار) ثم بعد ذلك الجبال المستوية وهى جغرافيا سهول أو هضاب[٣] وهناك أيضا كثبان الصحراء الرملية التى قد ترتفع إلى ٢٠٠ متر، هل هذا يدل على استقرار فى البحث أو التعريف فاسم الجبل قد أطلق على التلال المنخفضة التى لا ترتفع أكثر من ٢٠٠ متر، إذ

---

(١) ليسبانيول ٧٩ الفصل التاسع، ص ٢٦١ وما بعدها.

(٢) نفس المرجع ص ٢٧٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٨.

إنه من الصعب تحديد الارتفاع الذى يتحول فيه التل إلى جبل صغير فارتفاع الجبل مسألة نسبتية تتوقف على ارتفاع الجبل على المستوى الذى يطل عليه(١).

كذلك تأثير الهضبة ليس دقيقا فقد شاهدنا أن هناك جبالاً من ناحية التركيب ولكنها أصبحت سهولا من الناحية الجغرافية. فما هى الهضبة من الناحية الجغرافية؟ إنه اسم يطلق على مساحة من الأرض ارتفعت ارتفاعا منتظما. إذًا فارتفاعها لم يحدد وفى العادة يحدد أقصى ارتفاع السهل بنحو ٢٠٠ متر، ولكن هناك سهولا على ارتفاع تفوق هذا الارتفاع، كما أن من ناحية أخرى لا تصل هضبة اللورين إلى هذا الارتفاع، وقد رأينا أن بعض المرتفعات التى لا تصل إلى ٢٠٠ متر تسمى جبالا فى جهات مختلفة من العالم، ونحن لا نستطيع أن نقبل أن الهضبة شىء وسط بين الجبل والسهل، كما أن الهضاب المرتفعة التى يتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ متر مثل هضبة التبت لا تمثل مطلقا سطحا مستويا.

وأخيرا السهول فهذه هى المناطق الأدنى ارتفاعا وبعضها سهول فيضية وبعضها ساحلية وبعضها داخلية. ولكن ما هى الظاهرة التى تفصل حقيقة بين السهل والهضبة، فمثلا ماذا يفصل هضبة لبرادور فى الشمال عن سهل لبرادور الذى يطل على خليج هدسن، هل هو الارتفاع النسبى أو التركيب الجيولوجى كل هذا لم يحدده الجغرافى وتركه غامضا مختلطا.

المنخفضات هى المناطق التى تقع تحت سطح البحر وهنا على أية حال نجد المقياس واضحا، ولكن هناك مناطق قد انخفضت نتيجة للانكسار والهبوط بحيث أصبحت دون المستوى العام للأقاليم المجاورة لها.

فهل هذه مجرد هضاب هابطة؟ هذه الحالة تظهر فيما يختص بالحوض الكبير فى الولايات المتحدة الذى يمكن أن يقارن بهضبة تاريم فى وسط آسيا. وتوجد مناطق لذلك فى آسيا وأفريقيا وأستراليا هبطت بفعل الانكسار عن المنسوب العام لما حولها. وهذه صفة مريحة للمنخفضات، وعلى أية حال فهذه

(١) المرجع نفسه، ص ٢٨١.

بعض أمثلة تدل على على تعدد أشكال الهضاب أو السهول أو الجبال الموجودة فى العالم.

يجب إلا يخطئ القارئ غرضنا، فنحن لا نريد أن نسخر أو نقذع فى النقد. والواقع أن الجغرافيين المحدثين تقابلهم مشكلة كبيرة، إذ إنهم يحاولون أن يوفقوا بين ما توارثه الجغرافيون من نظريات تقليدية قديمة وبين ما يصلون إليه من البحث العلمى والتحليل المنطقى الدقيق ودراسة أصل التكوينات والبنية والتضاريس. ونحن نرى من واجبنا أن نلفت النظر إلى عدم الدقة فى التعبير الذى يقع فيه الجغرافى، ولاسيما الجغرافى الطموح الذى يحاول أن يضع نظريات جغرافية تاريخية.

والآن فلنذكر أثر الجبال والسهول والهضاب الذى نحن بصدده، وأول ما يلفت نظرنا أثر التضاريس فى المناخ. فالجبال تجتذب الأمطار كما أننا فى ارتفاعها الجبلى من قاعدته إلى قمته نمر فى الواقع بعدة مناطق مناخية ونباتية وحيوانية مختلفة. فمثلا قمة جبل روزا التى تصل إلى ارتفاع ٤٥٠٠ متر وتعتبر تلخيصا وافيا لأقاليم أوربا المناخية والنباتية من لابلاندا إلى البحر الأبيض المتوسط. بينما تتمثل جميع أقاليم آسيا المناخية فى سفوح أفرست التى تصل إلى ٨٨٤٠ مترًا من الإقليم المدارى إلى الإقليم القطبى تتابع إقليم بعد آخر فى اضطراد وانتظام. أما عن الهضاب فهناك صعوبة ناشئة من عدم تحديد هذا اللفظ وكل ما يمكن أن يقال عنها إن مناخها يمتاز بالقسوة نظرًا لارتفاعها.

غير أن العلاقة بين التضاريس والمناخ ذات أهمية كبرى بالنسبة للانسان فمنها ننتهز الفرصة لكى ننتقل من النبات إلى الإنسان، وأن نقارن من مختلف وجهات النظر بين حياة المجتمعات البشرية فى الجبال والهضاب وبين السهول على اعتبار أن كلاً من هذه الوحدات أساسية للاحتمالات المختلفة. غير أننا لم نتفق على ترتيب أهمية هذه التضاريس (وليس هذا بغريب) لغموضها.

منذ زمن ليس بالبعيد كتب إليزيه ركلوس فى مؤلفه عن الأرض La Terre[١]، يقول: إن أهم الظاهرات التضاريسية فى تاريخ البشرية هى الهضاب.

---

(١) ثالث طبعة له ظهرت فى سنة ١٨٧٦.

وقد أوضحها كظاهرات بارزة(١) وسط السهول التى تحيط بها، بكل ما تمتاز به من نبات وحيوان خاصين ومناخ بارد دائمًا أكثر جفافا من مناخ السهول، وباختصار كانت الهضاب فى نظره نظاما خاصا فريدا.

ولكننا عندما نبدأ فى تحليل هذه الظاهرة التضاريسية وللأهمية الكبرى التى علقها بها نجد أن الهضاب تتراوح فى أهميتها باختلاف المكان والزمان، وأن الدور الذى يقول إنها تقوم به أحيانا ليس سوى دور سلبى وأحيانا أخرى دور إيجابى.

فمن ناحية ينظر إلى الهضاب أو إلى بعضها بوصفها موانع، فهى كما يقول عوامل عزلة بين الشعوب، أشد من عمل المحيط الذى يمكن عبوره بالسفن فى الوقت الحاضر.

أما هضاب الأقاليم المعتدلة فهى ليست موانع فاصلة بين الشعوب فحسب بل إن بعضها فياف صحراوية بسبب فقر التربة وقسوة المناخ البارد. ففى أمريكا الجنوبية لا يجسر الناس على اختراق هضاب الأنديز التى تقع بين شيلى وبين الأرجنتين. حتى فى فرنسا من الخطر اختراق ممرات فلورات وليفيزو وكفا لارى فى فصل الشتاء. ولكن من ناحية أخرى هناك هضاب تتناسب مع سكنى الإنسان ولاسيما الهضاب التى تقع فى الأقاليم الحارة، حيث يخفف الارتفاع من حدة الحرارة ويعمل على تلطيف الجو فكأنها حدائق غنّاء معلقة تصل فى ارتفاعها من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ أو ٥٠٠ متر، فوق أعمدة من المرمر أو الجرانيت كما هى فى الحقيقة قطعة من الإقليم المعتدل فى مناخه ومحاصيله وسكانه النشطين(٢).

هذه هى هضاب الحبشة فى أفريقيا وبيرو فى أمريكا الجنوبية وطن الأنكا وكولومبيا حيث يسكن قبائل مويسكاس وغيرها من قبائل الهنود الحمر، وهضاب جواتيمالا وانهواك وشبه جزيرة يوكاتان مراكز حضارات أمريكية

---

(١) نفس المرجع ١٨٧ المجلد الثانى، ص ٦٣٣.
(٢) السابق، ص ٦٣٥.

قديمة. ومن الممكن أضافة عدد آخر من أسماء الهضاب إلى ما ذكره ركلوس مثل هضبة تمبلاوس(*) فى المكسيك التى ترتفع من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ متر، بين تيرا كالنتس وتيرا فرياس والهضبة الاستوائية الافريقية التى ترتفع فى بعض الأماكن إلى ٢٠٠٠ متر ولا سيما كتلة أدماوا فى الكاميرون التى تنمو فيها حشائش السافانا فى قلب المنطقة الاستوائية. وهذه بعض أمثلة فائدة الهضاب من الأقاليم الاستوائية والحارة. وتلحق بها أيضا هضبة إيميرينا فى جزيرة مدغشقر التى تعتبر بيئة صالحة للعمران خالية من المستنقعات الموبوءة التى تملأ السهول المحيطة بها.

وهكذا نجد أنه بينما يكون لظاهرة الهضاب أثر تكوين بيئة صالحة لسكن الإنسان فى مكان، يكون لها أثر عكسى فى مكان آخر بحيث تصبح بيئتها مستعصية على أى محاولة لإنشاء مجتمع إنسانى بل لمجرد وجوده فيها بينما هى جزر صالحة لازدهار مجتمع إنسانى فى بيئة صعبة فى مكان آخر.

لم يبق إذن شىء فى فكرة الهضبة كمصدر خاص لنشأة مجتمع إنسانى له صفات خاصة يحمل طابع الهضبة. «إذ إن الهضبة إما أن تكون بيئة صالحة أو غير صالحة لسكن الإنسان، حسب طبيعة الإقليم الذى يحيط بها» ذلك رأى ركلوس منذ وقت بعيد[1]. وكان بذلك يستدرك ما قاله من قبل من أن «الهضاب ذات أهمية كبرى فى تاريخ البشرية». وكأنه كان يعنى أن لكل هضبة ظروفها الخاصة، ويجب أن تدرس على حدة، وليست هناك قواعد عامة، وأكثر من هذا ليس هناك قاعدة عامة بظاهرة «الهضبة» التضاريسية.

وتنطبق نفس هذه الملاحظات على الجبال ـ فقد قيل الكثير عن أثر الجبال على المجتمعات الجبلية، حيث إنها طبعتها بطابع خاص جعلت أهل الجبال يمتازون به عن أهل السهول، لأنهم تحت وطأة بيئة خاصة.

(*) Tierras templadas, Tierras calientes, Tierras frias

(١) السابق، ص ٦٢٥.

ومنهج البحث سهل، نختار مثلا معينا لمجتمع جبلى، ونلاحظ أهم ما يمتاز به أفراد هذا المجتمع، ونهمل صفاتهم الأصلية، ثم نضع قاعدة مستقاة من هذه الملاحظات.

ولنأخذ أندورا مثلا، لأنها إقليم منعزل، وبلغ من عزلته أنه احتفظ بنظام سياسى خاص درس دراسة وافية، وعرفت جميع مميزاته[1].

تشق هذا الإقليم الجبلى عدد من الأودية، قطعتها التعرية الجليدية، وقد وضع سكانه نظاما معينا لمحلاتهم، فجعلوا السفوح الظليلة (ubach) التى لا فائدة منها أرضا بورا[2]، تغطيها الأحراج الصنوبرية، أما السفوح المشمسة (sala) فأفردوها للزراعة عند قاعدة الجبل، وللمرعى عند السفوح المرتفعة.

ولا تمكن الزراعة إلا حيث حفظت التربة من الانهيار، وأمكن إيصال ماء الرى إليها[3]. ولكن أفضل الأراضى القابلة للزراعة تمتد حيث لا يكاد يسمح المناخ بممارستها، وحيث يتعذر السكن فى الشتاء، ولذلك تركت مراعى.

وأكثر من هذا، فإن الماشية هى مصدر الثروة ومعيارها التقليدى، وهى تمضى الشتاء الطويل القاسى فى حظائر خاصة تقع فى بطن الوادى، أو على أولى درجات سفحه، بينما يقطعه السكان فى الانهماك فى صناعات منزلية صغيرة، يقتلون بها الوقت الذى يضطرون فيه إلى البقاء فى منازلهم، وما إن يذوب الجليد حتى يخرج الناس من منازلهم وتبدأ جولة أخرى فى حياة المراعى. فتساق الماشية إلى أعالى السفوح حيث تقابل قطعانًا أخرى ساقها أصحابها من السهول المنخفضة، وتبدأ القطعان فى الرعى، تنتقل من مرعى إلى آخر، فى نظام معين، حتى يكفيها أطول مدة ممكنة، وفى الخريف تفرز القطعان، فتستبعد الماشية الغريبة، ماشية أهل السهول، وتستبقى ماشية أهل الجبل، التى تبدأ رحلة أخرى نحو بطون الأودية حيث مشتاها. وما إن يأتى فصل الشتاء حتى تكون كل الماشية فى حظائرها مرة أخرى.

---

(1) Brutails, La coutume d'Andorre, Paris 1904

(٢) سور «٢٣٠»، ص ٤١٥.

(٣) نفس المرجع ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

ويوجد عدد من نطاقات المنازل، لكى تقابل احتياجات هذه الحركات الفصلية، فمنازل الشتاء تضمها القرى. وهذه تزدحم بكل ما يمكن أن تزدحم به، لتأوى الناس والماشية والطعام والوقود فى أضيق مساحة ممكنة[1]. وأما منازل الصيف (bordes, cortals) فهى تتناثر على ارتفاع يتراوح بين ١٦٠٠ ـ ٢٠٠٠ متر تحيط بها حقول الشيلم والبطاطس وهى حقول فقيرة تحدد الحد الأعلى (فى الارتفاع) للزراعة.

أما أعلى من ذلك فلا توجد سوى أكواخ الرعاة (orrys) حيث كانت جبن الضأن تصنع من قبل.

ويهاجر الناس هجرة فصلية، فى منازل الشتاء إلى أكواخ الصيف وراء قطعان الماشية، من الحظائر أسفل الوادى إلى المراعى أعلى السفوح، وهذه الحركة الفصلية تؤثر فى السكان تأثيرا خاصا، فهم يعيشون فى عزلة، عصمت بلادهم الصغيرة من براثن الدول الكبرى التى تحيط بهم، وحفظت لهم نظاما خاصًا يعيشون فيه، أوليجاركية تحت ستار الديمقراطية، يربط أهل أندورا بعضهم ببعض كأنهم بنيان مرصوص. إذ إن وطنيتهم قوية عميقة الجذور بلغت مداها فى النمو[2]، وإذا درسنا كذلك نظمهم الاجتماعية والسياسية والأخلاقية كما فعل بروتال، فإننا نجد أن مجتمعهم يمتاز بالتماسك والقوة تحفظ نظاما حكوميًا ثابتًا. ولاسيما تلك التى تتعلق بملكية المشاع وحقوق الرعى، وأخيرًا فأهل أندورا يمتازون بمظهر الجد والوقار وتمسكهم بأهداب الأخلاق إلا أن صدورهم تنطوى على أحر العواطف، وهم يخضعون للتقاليد المرعية، تستعبدهم وسائل الحياة القديمة، ويتمسكون بالخرافات التى يحترمونها لقدمها ولاتصالها بالعادات القديمة، وهم يعتزون بتراثهم الأخلاقى، وباختصار فهم جميعًا يخضعون لما توارثوه من عادات وتقاليد لا يخرج عليها إلا القليل.

هنا نجد نظاماً ريفيًا مزدوجًا، ونظامًا سكنيًا مزدوجًا كذلك، اقتران الزراعة القليلة المعرضة للأخطار بنظام رعوى تام ناضج ونشاط صناعى مؤقت غير ذى

(١) نفس المرجع، ص ٤٦٢.
(٢) سورء ٢٣٠ء ص ٤٥٣.

أهمية. ونجد تكرارًا فصليًا، لحياة تتذبذب بين رحلة الشتاء ورحلة الصيف، بكل ما يتعلق بها من مؤسسات سكنية ومنازل وحظائر للماشية أو للضأن، أسفل الوادى وأعلاه. ونلاحظ جماعة تعيش حياة مستقلة خاصة بها، تحترم التقاليد وترتبط بالوطن الأصلى وأفق محدود. هذه إذن هى مجموعة صفات لا يمتاز بها أهل أندورا أو إقليم أندورا وحده، فهذه الصفات جميعًا تظهر فى الأقاليم الجبلية المتشابهة فى الارتفاع وفى الظروف الجغرافية المختلفة فى البرانس مثل مناطق سردينيا، كابشير وكارليت مع اختلاف طفيف يرجع إلى اختلاف الظروف المحلية ويقول سور «إذا درسنا بيئات البرانس فإننا نجد تشابها فى صفات البيئة البشرية بينها وبين أندورا، ونجد فى البرانس نفس الهجرات الفصلية التى نجدها فى الكريات التى درسها دى مارتون، كما أن برون وجيراردين درساً التغييرات الاجتماعية فى وادى أنيفير، كما درسا أنواع المساكن المختلفة فى منطقة ترنتينو، الكاتب مارنيللى. ويلخص سور ذلك بقوله «إننا لا نجد مناصا من الاعتراف بأن حياة أندورا ليست إلا نوعًا فصليًا من الحياة قد انتشر فى جميع بيئات أوربا الجبلية، حيث نجد تشابهها فى الظروف الطبيعية وتشابها فى الظروف البشرية، بالرغم من بُعد الشُّقة واختلاف السكان[1] فى كتابه عن برانس البحر الأبيض المتوسط.

لن نحاول مناقشة تلك الحقائق التى أكدها هذا العدد من العلماء ووصلوا إليها بطريق علمى منطقى. ولكننا نحتفظ ببعض التعليقات التى نراها مهمة ولنحصر أنفسنا فى الحدود التى يحصر فيها الجغرافى سور نفسه، ولكننا نلاحظ أن الحقائق الأندورية لا تقتصر كلها على أهل هذا الإقليم وحده، لأن زراعة الطباق المنتشرة فى أودية أندورا ليست من خصائص البيئة الجبلية وحدها، كما أن صناعة التهريب التى يوقف لها كثير من أهل أندورا جهودهم، ليست قاصرة أيضا على سكان الجبال، فمن الخطأ أن نقول إنها من خصائص حياة البرانس.

قد نسلم بأن هذه هى صفات الحياة الجبلية نفسها ولكن ينبغى علينا إذن أن نقتطع من الجبال مناطق البرانس التى تقع بين سهل روسيلون الساحلى،

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٨٠ – ٤٨١.

وإمبروان، وأقاليم البرانس المرتفعة مثل كابشير وكارليست وأندورا وسردانيا ـ كما يجب أن نقتطع منها الوديان الوسطى فى قطالونيا بجداولها المتدفقة ومروجها اليانعة وكرومها ومناجمها ومصانع نسيج القطن ومدنها الصناعية الأخرى، ثم هل نستطيع أن نهمل شأن العنصر والسلالة؟ فلنسلم بأن الأندوريين جبليون، ولكنهم قبل ذلك قطالونيون فى العنصر وفى اللغة وفى الميول والعواطف، وفى الثقافة والصفات وأنهم يشتركون فى معظم صفاتهم وأخلاقهم مع القطالونيين الآخرين، والفرق الوحيد بينهم وبين القطالونيين الجبليين أن هذه الصفات فيهم أقوى وأبرز. ويعترف بذلك سور، إذ يقول: «إن الأندوريين من طراز القطالونيين الجبليين[1]».

فماذا لو تخطينا أكثر من ذلك النطاق الذى حصرنا أنفسنا فيه، وحاولنا أن نعمم ونوحد صفة عالمية واحدة يتصف بها سكان الجبال عمومًا كنتيجة لسكنى بيئة طبيعية واحدة وهى بيئة الجبال. لو فعلنا ذلك لوقعنا فى خطأ جسيم.

هل نستطيع أن نتحدث عن شىء مجرد مثل الجبال مثلما تتحدث مس سامبل وغيرها من الكتّاب الذين لا يعبأون بالفروق المحلية، التى توجد بين منطقة وأخرى؟ وعم نتحدث، عن الكتل الجبلية أو عن الوديان المنعزلة فى أعطافها كالجزر الضائعة وسط المحيط، حيث تنشأ أشكال معينة من النشاط البشرى، كأنما نشأت فى نفس المكان وتطورت فى نفس البقعة على رأى هؤلاء الكتاب. وكيف نستطيع أن نغفل الفروق بين أقاليم أقل تقطعا من غيرها، وبين أقاليم أكثر عزلة من غيرها وبين أقاليم تقطعها طرق كبرى فتتلاقى عندها تيارات ثقافية مختلفة وتيارات من هجرات بشرية متعاقبة الواحدة تلو الأخرى على مر العصور؟

ما الصلة بين منخفض الموهوك أو فتحة كامبرلاند وبين بقية جبال الأبلاش؟ وما العلاقة القياسية بين ممر برنر وبين الأقاليم الجبلية المدهشة التى تحيط بها؟

---

(١) سور «٢٣٠»، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٣.

ثم من هو «الجبلى» ذلك المخلوق المجرد المثالى العالمى ـ الانسان المحدود الأفق ـ بالضرورة ـ لوجود عائق جبلى يفصل بينه وبين جيرانه، العبد الخاضع منذ ولادته للتقاليد، المحافظ الذى يرتبط بالماضى بأواصر قوية، حامى حمى التراث المادى والثقافى الذى تركه له الأقدمون، إذ إنه لا يوجد جديد يثير فيه أى رغبة فى التغيير، عادات قديمة، ملابس تقليدية، لغات قديمة، مذاهب دينية قديمة، أليست هذه صفات الرومانس سكان أنجادين والباسك وما يمتازون به من ملابس تقليدية والفودا (vaudois) ومذهبهم الدينى الخاص، والأندورا وامتيازاتهم الخاصة، ثم الألبانيون ولهجتهم الخاصة وإسلامهم؟ أما فيما عدا ذلك، فالجبلى (من الناحية النظرية التجريدية) نشيط شريف، يحيا حياة صحية داخل نطاق الأسرة الأبوية ويرتبط بها ارتباطا قويا دؤوبًا على العمل لا يمل، خشنًا يتحمل المشاق، لا يعرف الترف، ولا تهمه الراحة ينقطع إلى عمله فى غير كلال، منافس خطير لأهل السهول ومن ناحية أخرى فلا هو عالم ولا هو فنان، فالبيئة أقسى من أن تنجب مثل هذه العبقريات. ولكننا نلاحظ أن سكان الأبنين من نفس العنصر الذى يتكون منه التوسكانيون ومع ذلك فهناك عبقرية فى الأبنين وخشونة فى التوسكانيين.

ومهما يكن من شىء فلنسلم بهذا، ولنتساءل: هل حقا الجبل متأخر بالنسبة لسكان السهول؟ إن هذا لن يرضى روسو أو كروبتوكين من بعده، دفاعا عن أهل الجورا الجبليين، هل سكان دوفينيه كما يقول ستناهل أقل ذكاء ودهاء من أهل بوسيرون؟ وهؤلاء الذين هاجروا إلى كل بقاع الأرض من سكان الجبال، هل هم أشد الناس التصاقا بأرضهم وأضيقهم أفقا؟ قد يقال إن الفقر دفعهم إلى الهجرة ولكن الفقر ليس اسما من أسماء البيئة الجبلية، ومع هذا فما قيمة القوة الدافعة، إننا نهتم بالنتيجة وأخيرا فإننا أيضا نستطيع بنفس السهولة التى يضع بها النظريون تلك القواعد العامة أن نقول إن ساكن الجبل بحكم إشرافه من فوق قمم المرتفعات أكثر حبا ورغبة فى الأفق الواسع مثله فى ذلك مثل البحّار نفسه، وهذا منطق ازاء منطق وليس أحدهما أفضل من الآخر.. وأما عن العبقرية العزيزة إلى قلب الأب ديبورا، فإننا نقول إنها ليست واقعة فى نطاق الجغرافى، حتى ولو كان جغرافيا بشريا.

هناك فكرة جغرافية خاصة بالمدنية وهى تختلف عن فكرة المؤرخ أو الفيلسوف[1] ، كما صورها جيزوت وكما قبلها الكتاب فى فرنسا تمتد وتشمل حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والجمالية والأخلاقية والدينية. أما فكرة الجغرافى عن المدنية فهى محدودة تشمل نشاط المجتمع فى تنمية موارده مما تحت يده من موارد طبيعية، وما عسى أن يكتشفه، وهى تكاد تكون خاضعة للقياس، أى قياس درجة استغلال الامكانيات الطبيعية للإقليم. وأما دراسة علاقة هذا الاستغلال بالبيئة الطبيعية فسيعقّد المسألة ويصعّبها.. وخير لنا أن نعترف بذلك من أن نخوض فيما لا نعرف. وإلا سنقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه من تناولناهم هنا بالنقد. أو نقول مثلا إن جوستاف كوربيه المصور المشهور كان من أهل جورا، وأن ستندهال الكاتب كان من جرينوبل أى من دوفيه مثل برليوز.. ولو قلنا ذلك لطلب منا أن نبحث ما إذا كان هذا الرسام قد تأثر ببيئته الجبلية فى لوحاته أو أن الكاتب ستندهال كان يعبر عن نفسية الكوخ الجبلى المنعزل أو أن أورنان فى وادى لوى، مسقط رأس كوربيه أو جرينوبل على ضفة نهر، إيزير كانت على حق فى تمثيل البيئة الجبلية.

الحق أنه لا توجد مطلقا وحدة خاصة بالبيئة الجبلية، توجد فى بقعة من سطح الأرض ارتفعت على مستوى سطح البحر، كما لا يوجد طراز واحد من بيئة للهضاب، أو بيئة السهول ولكن هناك احتمالات قياسية تقابلها فى جهات جبلية مختلفة من العالم، وأن هذه الاحتمالات لفتت إليها الأنظار، بما تحمله من طابع مدنى معين، يمكن مقارنة مظاهره فى جهات العالم المختلفة، إذا غضضنا النظر عن الاعتبارات الفردية المحلية.

عندما تتجمع لنا دراسة وافية عن البيئات الجبلية فى أنحاء العالم كما تجمعت عن البيئات فى أوربا، ربما استطعنا أن نستخلص بعض الأساليب

---

(١) عن هذا الموضوع الواسع نرجع إلى :

Niceforo, les indices numériques de la civilisation et d progrés, Paris, Flammarion, 1921, m - 8.

الخاصة التى يتبعها الإنسان فى هذه البيئات، ليلائم نفسه معها ويُكَيّفُها لأغراضه، ولأمكن لنا أن نستخلص أيضا الإمكانيات التى تقدمها أنواع البيئات الجبلية المختلفة. وهذه الدراسات لم تستكمل بعد، فمن الخطأ إذن أن نضع قواعد عامة قائمة على دراسة ناقصة.

الفصل الثانى

الأقاليم الطبيعية الصغرى وحدودها

البيئات الجزرية

سوف لا نعبأ بنقد هذه الفكرة نقدا كاملا، فمن العبث أن نقدر مجال الإمكانيات التى تحتلها الجبال أو السهول أو الهضاب أو المنخفضات أو مجمل الوسائل التى تضعها فى خدمة البشر، ولكن هلا نستطيع أن نحلل هذه الوحدات الزائفة إلى عناصرها ونناقشها؟

كلمة جبل، كلمة واسعة المدلول غير محددة المعنى، ومن ثم كانت الفكرة التى تحملها غامضة وتحليلها سيئا. بل إن لغات أوربا العديدة لتعجز عن التعبير عن التنوعات المختلفة التى تدخل تحت هذا اللفظ، بحيث يمكن أن تضع تعبيرا لكل أنواع الجبال والبيئات الجبلية، ويقال إن فى لغة الطوارق(١) خمسة عشر تعبيرا مختلفا لجميع أنواع التلال التى يرونها، كل تعبير يدل على شكل التل أو عن طبيعة صخوره أو عن لونه أو عن غير ذلك من التفاصيل.

ومن الغريب أن الجغرافيين يلجأون عند وصف المناطق الجبلية إلى استعارة الالفاظ المحلية التى يطلقها أهل البلاد المختلفة والتى التقطها منهم الرحالة على هذه البيئات، وهذا الاسم فى الغالب يطلق على منطقة أو إقليم مثل الكريت (crêts) فى جورا، بوى (puy) فى أوفيرن وباللون (ballons) فى الفوج وهكذا من الأسماء المحلية(٢).

ليس الجبل وحدة وإلا فماذا يكون الوادى الجبلى، أليس طرازا لوحدة جغرافية حقيقية، وحدة فى السكان أو فى الزراعة وفى المدنية، وعندما ننظر

(١) شودو (١٨١) المجلد الثانى ص ٢٠.

(٢) جوتيير له آراء فى هذا الموضوع فى (١٨١ ب) المجلد الأول، ص ٢٠١.

إلى أودية الألب أو الجوار أو البرانس أو الأبنين أو القوقاز أو الهيملايا ألا نجد أنفسنا أمام تجمعات جغرافية حقيقية يمكن أن نعقد مقارنات مفيدة بين إحداها والأخرى؟

ولكن ألسنا أيضا بقادرين على أن نجد على ضفاف الأنهار الكبرى وحدات متشابهة واضحة الحدود من السهل التعرف عليها من الوهلة الأولى، فهى واضحة بدائية فى بساطتها وفى مظهرها الخارجى وفى تكوينها الداخلى وفى كل صفاتها المميزة؟ ألم تجتذب إليها مستعمرات بشرية متقدمة عديدة؟ ثم كونت ما يمكن أن نسميه سلالة برمائية؟(١)

وألم يحدث نفس الشىء على ضفاف البحيرات وعلى سواحل البحار، حيث اكتظ السكان من طراز معين، وطبعوا بطابع بحرى على مر العصور وفى جميع البيئات البحرية منذ عصر حضارة فضلات المطبخ الدنماركية إلى يومنا هذا من الدنمارك إلى الكورنيش والريفيرا؟

وعلى العموم، ليست هناك حدود طبيعية من طراز بسيط لمجتمع إنسانى يظهر للباحث من أول وهلة بحيث يستطيع أن يميزه من خريطة كنتورية، مما يسمح لنا بدراسة نشأته ونموه من ناحية علاقته بالظروف الجغرافية التى شكلته، هذه هى فكرة الجغرافى الذى أوقف فصلا من كتابه، الجغرافية البشرية»(٢) . لباب بعنوان (الجزر) وهو لا يعنى جزر البحر. التى يهملها لأن غيره من الناس لاحظوها وكتبوا عنها منذ زمن بعيد، ولكنه يقصد جزر الصحراء أى الواحات والجزر التى تقع فى عالمنا الآهل، وهى الجبال والأودية الجبلية. ولا ريب أنه مستعد لأن يمد فكرة الجزرية هذه لتشمل السهول الساحلية، الصغيرة المساحة المزدحمة بالسكان والتى تشمل أيضا بعض الدلتاوات ذات المميزات الخاصة، وضفاف الأنهار التى تعتبر كالجنان وسط القفار والتى جذبت إليها من قديم الزمن الإنسان فاستقر وأقام العمران وطيد الأركان، مثل وادى النيل الأدنى فى مصر القديمة ووادى الفرات وما بين النهرين التى تعتبر بحق واحات كبيرة ممتدة وسط الصحراء.

---

(١) برون (٦٦) ص (٩١ ـ ١٩٢).

(٢) فيدال (١٥٧).

الا نجد هنا نقطة البدء الحقيقية التى كنا نبحث عنها، ولكن ألسنا فى خطر مواجهة الأوهام القديمة التى كنا نصارع دائمًا لتبديدها، إن هذه الأوهام الجديدة لا تكمن فى الأذهان فيما يختص بدراسة وحدات أساسية مميزة وهى الجزر. ولنتخذ مثلا نموذجيا للبيئة الجزرية لا بمعناها الاستعارى، كما فعل برون، ولكن بمعناها الحقيقى، جزر البحر. ونخشى أن تكون مناقشتنا مملة متعبة، ولكن هذا أمر لابد للقارئ من معرفته.

- ١ -

الأثر الطبيعى للعزلة

إذا كانت هناك فكرة أكثر ضرورة من غيرها فهذه الفكرة هى ما يتعلق بالمجتمعات الجزرية، فالجزر هى أكثر البيئات تحديدًا وهى إحدى البيئات المنعزلة ولذلك فهى وحدات أكثر بساطة من غيرها(١)، التى ذكرها برون فى كتابه الجغرافيا البشرية.

لم يكن النظريون المخلصون من أمثال بودان ومونتسيكيه هم الذين لاحظوا هذه البيئة بصفاتها الحقيقية أو المفترضة ووضعوها على رأس القائمة فى كتاب. فقد اكتفى بودان بأن يقول فى الكتاب الخامس من الجمهورية: إن أهل الجزر ـ طبقاً لمثل قديم ـ أقل الناس ائتمانًا (Insulanos omnes inbidos ha-bere) ـ وعلى الحكيم أن يحذرهم «فالجزى، تاجر أجنبى» رجل على استعداد أن يساوم مع زبائنه ويغشهم». وكذلك مونتسكيه لم يفرد له إلا فقرة قصيرة(٢) جدًا لكى يذكرنا بأن أهل الجزر أكثر غيرة على حريتهم من أهل القارة، ويقول إن تعداد أهل الجزر صغير بحيث لا يستطيع أن يستعبد بعضهم بعضًا، كما هى الحال فى الدول القارية الكبرى، وهذه الفقرة على قصرها غامضة المعنى غير دقيقة المعلومات.

فكرة الجزرية إذن لم تشرح من قبل، ولم يوضحها فى الواقع إلا علماء التاريخ الطبيعى، الرواد لجغرافيينا البشريين الحاليين، الذين تعلموا على أيديهم

---

(١) برون (٦٦) الفصلان (٦، ٧).

(٢) برون (٦٦) ص ٧١.

وعلى أيدى رحالة قرن الثامن عشر، الذين اكتشفوا عالم المحيط الهادئ للعلماء، بما فيه من مئات الجزر المتعددة الغريبة، ولذلك كان ميراثهم فى أعلى درجات التقدير والتقديس والصون

وتظهر فكرة الجزرية فى كتاب والاس الذى يعتبر حجة عن «حياة الجزيرة» [1] (Island Life) وهى قائمة على معلومات بسيطة للغاية فمهما كان نوع الجزيرة ومهما كان الطراز الذى تنتمى إليه فهى تمد الأحيائى بمعمل كبير[2] وما عليه إلا أن يفسر نتائج تجاربه.

ففى الجزيرة تؤثر عوامل البيئة مهما كانت غريبة ورتيبة على سلالات الحيوانات بشكل دائب منتظم مستمر، وهذه السلالات منعزلة عن أنواعها الأصلية التى انحدرت منها ومنقطعة عن الاتصال بأقاربها من السلالات القارية، ويفصلها عنها البحر. ولذلك فهى فى حمى عن أى منافس خارجى ولذلك أيضا فأى تنوع يظهر فى السلالات يقوى ويسود فى عدد كبير من هذا النوع من الحيوانات فى الجزيرة، ويجب أن نلاحظ أن من أهم مميزات المجتمعات الأحيائية الجزرية قلة عدد الأنواع النباتية عن الحيوانية فيها. والملاحظة الثانية أن هذه الأنواع الأحيائية قد عزلت فى جزيرتها قبل أن تنفصل هذه عن جسم القارة. فلم تتمثل فيها إلا الأنواع الأحيائية القديمة. ولم تتصل بتيار التجديد فى صفات الأنواع والسلالات التى تحدث فى القارة باستمرار. ومن مميزاتها أيضا أن أحياءها تمتاز بأنها متدهورة الصفات. قزمية صغيرة الحجم، ولا تظهر هذه الصفة بين الحيوانات المتوحشة فقط، مثل دببة اليابان أو غزلان كورسيكا أو سردينيا أو فرس النهر القزمى والفيل القزم فى جزر البحر الأبيض المتوسط، ولكن تظهر أيضا فى الحيوانات المتسأنسة مثل خيول البونى فى شتلندا وفولكند وأيسلندا والضأن الأسود والأبيض فى جزر فاروز وهبرديز وشانت وأركنى وشتلند.

---

(١) الطبعة الثانية ـ لندن ١٨٩٢.

(٢) كينوت (٥٢) ص ١٩٤.

والنتيجة لهذا كله هى أن تجانس الأنواع وقلة العدد والتقادم والقزمية أو التدهور الخلقى[1]، هى النتائج المباشرة أو غير المباشرة للصفات الجزرية القوية للعزلة وسط المحيط.

وتظهر الآثار العديدة المترتبة على هذه العزلة بأشكال عديدة واضحة، منها فقدان المقدرة على الهرب من عدد كبير من طيور الجزر وحشراتها[2]، وهذا يرجع فى رأى المدرسة اللاماركية إلى أثر الرياح المباشر، حيث إن شدة الرياح وتكرار هبوبها يصيب أجنحتها بالعجز، وفى رأى المدرسة الداروينى يرجع إلى الانتخاب الطبيعى التى اختارت الأنواع العاجزة عن الطيران فقط، حيث إن الأخرى القوية الطيران حملتها الرياح وأغرقتها فى اليم[3].

الانتقال من المناقشة بين الحيوان إلى الإنسان، أمر سهل، وقد سبق أن شرحنا فى مقدمة هذا الكتاب الأسلوب الذى اتبعه فى ذلك هبوليت تين وأتباعه، وليس من الصعب بل ربما يكون من السهل الانتقال من الحيوان إلى الإنسان فيما يختص بدراسة البيئة الجزرية. فهى منعزلة منفصلة عن القارات يحيط بها الماء ويمدها بالحماية ولاسيما فى الأزمنة القديمة عندما كانت صور وأرود فى جزيرتهما الصغيرتين تستطيعان أن تتحديا الأعداء ـ أليس فى إمكانها أن تمد المجتمعات الإنسانية التى تلجأ إليها بظروف واحدة لا تتغير، ولا تمتاز بالتنوع من أسباب البقاء والموارد الطبيعية على الأقل من ناحية الحيوان والنبات؟ أليس من الطبيعى أنها توجد مجتمعات ذات طابع محلى يشبه بعضها بعضا شبها قويا، ومن السهل الموازنة بينها لأنها جميعا تعتمد على موارد واحدة فقيرة وستظل إلى الأبد تتأثر بنفس البيئة التى تطبعها بطابعها الخاص.

لقد أوصى الرحالة والمكتشفون بهذه الفكرة للجغرافيين ولاسيما من دراستهم للميزات البيولوجية التى تمتاز بها نباتات الجزر وحيواناتها، وكان من أهم هؤلاء كوك[4] الذى وصف فى كتبه مميزات جزر مادنرا وأزورس وصفا رائعا..

---

(١) يعرض كينوت الحقائق ويشرحها فى ٣، ص ١٥٣، ١٨١، ٤٠٤، ٤٧٩.

(٢) عن عدد الصفات الخاصة بالنبات الجزرية مثل نمو العائلات الشجرية.. إلخ، ارجع إلى كوستاتين ١٠٤ فى (١١) ١٨٩٨ ص. (١٩٥ ـ ١٩٦).

(٣) بول (١٩) المجلد ١٨.

(٤) كوك مجلد (١) ص (١٣ ـ ٢٤)، مجلد ٤ ص (١٩٨ ـ ٢٠٩).

وقد كانت أهمية هذه الكتابات والوثائق المحلية سببا فى إثارة الرأى العام العلمى فظهرت عدة مدارس فى التفكير تضم عددا كبيرا من العلماء والمفكرين. فقال الاقتصاديون: إن السواحل الجزرية مهيأة خصيصا للنشاط البحرى والتجارى. وتسابق المؤرخون فى كتابة تطور تاريخ الجزر البريطانية واليابانية، ودرس القانونيون وعلماء اللغات نظم أهل الجزر ولغاتهم، ففى كتاب مس سامبل نجد أمثلة غريبة[1] لقانون العقوبات فى جزيرة مان الذى يميز بين عقاب السرقة لبعض الحيوانات دون غيرها، وبين سرقة أشياء أخرى، وأمثلة للمفردات اللغوية التى يستعملها أهل الجزيرة والتى تختص بالبحر فقط دون سواه، فالقاضى مثلا يحلِّف قائلا «إنه سيكون محايدا حيدة هيكل سمكة الرنجة العظمى» وهذا الهيكل يقع فى وسط السمكة تماما. لا ينحرف يمينا ولا شمالا، وهنا نجد مجموعة شيقة من الترهات والأوهام والسخافات، إذ إنها لم تعالج الفكرة الأساسية للمسألة: هل نستطيع أن نستنتج من هذا كله أنه توجد فعلا مجتمعات جزرية ذات صفات خاصة يشبه بعضها البعض الآخر، بسبب جزرتها مهما اختلف المناخ، ومهما اختلفت العصور؟ وبمعنى آخر هل هناك قسم من البشر ينضوون تحت عنوان «الجزيرة» مهما اختلفت الظروف ويستطيع أن يدرسها الجغرافى البشرى أو المؤرخ، فلندرس المسألة بدقة فإنها تستحق الاهتمام..

---

(١) سامبل، الفصل الثانى.

- ٢ -

السواحل الجزرية وأثرها

هناك ثلاثة معان محددة مميزة فى معنى كلمة جزيرة العام، تنفع وتؤيد هؤلاء الذين يحبون التعميمات التى تعترض عليها. فالجزيرة تشتمل أولاً كل شىء على نطاق ساحلى، يحيط بشواطئها، ومن ثم كانت طرازا كاملا للبيئة الساحلية، وثانيا على جزء من سطح الأرض يقع تحت تأثير العوامل الجوية، وأخيرا فهى شىء منعزل بكل ما تحمله العزلة من آثار بحكم موقعها الجزرى، هذه هى ثلاثة معان للبيئة الجزرية تتداخل بعضها فى البعض الآخر بسهولة، وتعتبر كلا منهما خطوة للأخرى، ونرى أنه ينبغى فصل إحداهما عن الأخرى حتى لا يختلط علينا تمييز بعضها عن البعض..

الجزيرة أولا نطاق ساحلى، ولن نعترض على هذه الفكرة فى الوقت الحاضر ولكننا نقول إن هذا تحصيل حاصل، وليس من التقاليد العملية أن نجعل من السواحل قسما قائما بذاته، فالرجل الجاهل الذى يسير فى بهو من القباب، ثم فى بهو من العقود المدببة ولا يجد فارق بين إحداها والأخرى لأنه لا يريد أن يرى هذا الفرق أو يشعر به، ربما كان هذا الرجل متمتعا بالحرية الشخصية ولكن جهله لن يعني أنه ليس هناك فارق بين البهوين ولن يغير من قواعد المعرفة الآثارية شيئا.. ولكن أن نهمل محتويات الجزيرة، ونهتم بأشكال السواحل لا يمكن أن يسمي اقتفاء لأثر البيولوجي لأنه يفرق بين أنواع الجزر تفرقة قائمة على محتوياتها وليس على أشكالها[1] فهناك من ناحية الجزر القارية التى كانت أجزاء مكملة للقارات، أو أجزاء من قارات قديمة ثم انفصلت عنها وأحاط بها

---

(١) جوستاف ليبون، الحضارات الاولى، باريس ١٧٨٩ ص١٤٤.

الماء فكونت جزرًا، وهناك من ناحية أخرى الجزر المحيطية وهى جزر بطبعها وبحكم تكوينها، جزر كانت باستمرار جزرا كالجزر المرجانية مثل برمودا، والجزر البركانية التى ظهرت من قلب المحيط مثل جزر هاواى وجزر ماسكارين، وأما الجزر الساحلية فإننا نضعها فى قائمة «السواحل».

ويؤكد الجغرافيون بل والإحصائيون والاقتصاديون وجود مجتمعات ساحلية مختلفة عن المجتمعات القارية.

ومن التعريفات الشائعة بينهم «أن شواطئ البحار تكوّن شعوبا من نوع خاص تسود بينها عواطف احترام الأسرة، مع حب التجديد والشوق إلى التجوال كحب الرعاة إلى التجوال»[١] ولنؤكد ـ أن هذا التعريف على غرابته أكثر دقة من غيره، وهذا لا يهم كثيرًا.. إنما النقطة المهمة أن نفهم تماما ماذا يعنى بالساحلية أهى تعنى الحياة الجزرية من ناحية أو هى تشمل الحياة الجزرية ـ فيما تشمل ـ لأن الجزر تشتمل على أجزاء ساحلية؟

والبرهان القاطع على أن سكان السواحل يكونون جزءا مهمًا من المجتمع البشرى هو دراسة خريطة توزيع السكان فى العالم، فالسكان لا يزدحمون فقط على السواحل ولا يتركزون عندها فحسب، بل لو أننا رسمنا خطا بين داخلية أى إقليم وبين سواحله، لوجدنا أن السكان يزدادون كثافة كلما قاربنا الساحل بل أحيانا ـ ولا سيما فى حالة الجزر الصغيرة، مثل جزر الأنتيل الصغرى أو جزر المحيط الأطلسى، أو المحيط الهندى ـ يتركز معظم السكان على السواحل، ويهجرون داخلية الجزر حتى ولو كانت ظروفها المناخية ألطف وكانت أحسن من ناحية ملاءمتها للصحة. وهذا دون شك يفرد الساحل بميزة خاصة ينفرد بها عن داخلية القارة.

هل هذه الوقائع صحيحة؟ أحيانا ولا شك. فهناك مناطق معينة نستطيع أن نرسم لها خرائط توزيع سكان على مساقط تمتاز بالمساحة المتساوية التى يرجع

---

(١) ركلوس (٢٨٧) المجلد، ص٦٤٥.

إلى روورباخ[1] فضل اكتشافها. ومن ثم أدت خدمة كبرى للجغرافيا ويمكن فى هذه المناطق أن نجد تركز السكان بشكل واضح على السواحل. وقد لاحظ المؤلف[2] من دراسة إحدى هذه المناطق على أساس تقسيمها إلى مناطق عرض كل منها خمسة كيلو مترات (ما عدا المنطقتين الأولى والثانية، فالأولى على الشاطئ مباشرة جعل عرضها كيلو مترين، والثانية ثلاثة) ومع وضع متوسط الكثافة تبين وجود ما يلى:

المنطقة رقم (١) عرضها ٢ كم الكثافة ١٧٧ كم مربع والسكان ٤٧٨ر٠١٩ نسمة

» »	(٢)	» ٣ كم	» ١٠٥ ك »	» ٦٢٢ر٢٧٦ »
» »	(٣)	» ٥ كم	» ٨٠ ك »	» ٦٥٥ر٢٩٥ »
» »	(٤)	» ٥ كم	» ٨٠ ك »	» ١٢٨ر ٢٤٢ »

وهذه الحالة - فى بريتانى - ليست فريدة فى نوعها فهى تظهر مرة أخرى فى الدول العريقة، حيث تنشط المدينة الصناعية، وترجح كفتها على غيرها من وسائل الاقتصاد القومى الأخرى، كما أن كاتبا آخر درس نورمانديا السفلى وهى ملاصقة لبريتانى، فى نطاق يبعد عن الشاطئ بنحو ١٥٠٠ متر، فوجد أن كثافة السكان ١٧٧ فى الكيلو متر المربع على الساحل الشمالى لكونتان، ١٥٧ للكيلو متر المربع على ساحل كالفادوس، وأكثر من ١٠٠ على الساحل الغربى، كما أن السكان يزدحمون شمال نهر السين على طول الأقسام الساحلية من كو Coux[3]

وسنقبل هذه الوقائع دون مناقشة، على أنها مبرهنة. ولكن فنلاحظ فقط أنه لا توجد مطلقا قاعدة عامة، فإذا كانت هناك سواحل أكثر ازدحاما فى السكان من هذا الطراز الذى يطلق عليه كاميل فالو فى كتابه عن البحر اسم «سواحل

---

(١) روبرت

La dénsite de la population en Bretagne Calculée Par zones d'egal éloignement de la mer.

(٢) مجلد ١٣ ص٢٩٤ - ومابعدها.

R. de Felice, la Basse-Normandie, Paris, 1907, p. 516

(٣) انظر رقم (١٠) ١٨٩٨ ص ١١٢ Philippson, Technique de l'Egeide

تجمع السكان»، فهناك أيضًا سواحل أخرى يسميها «سواحل تشتت السكان» ونحن لا نوافق على هذه التسمية، لما تتضمنه من صور وتخيلات معينة، وهى أقل ازدحاما بالسكان من الداخل، لأنها بمثابة الحدود أو الجبهة الخارجية للإقليم وهذا التناقض والتعارض بين طرازى السواحل، يعتبر برهانا كافيا لخطأ التمسك بفكرة مبدئية عن السواحل باعتبارها مراكز اجتذاب السكان. ولو أننا نحينا جانبا هذا البرهان السلبى أو أخذنا الأرقام التى اقتبسناها، وغيرها من كثافات السكان الحالية فهل يعنى هذا أن هناك أثرا قويا للساحل على السكان يجتذبهم إليه؟ وبعبارة أخرى الصفات التى تؤهل السواحل العمران؟

ليس العهد ببعيد منذ أن وضع تر نظريته المشهورة عن العلاقات الساحلية وقد سبق أن نقدنا هذه النظرية فى غير هذا المكان. وبينا الاعتراضات البديهية التى يوجهها إليها النقد[1] ولكنها لا تزال موجودة بعد أن أعيدت صياغتها أو عدلت أو بقيت على صورتها الأصلية فتقدم الدول الأوربية وتفوقها يفسر ـ كما تفسر الكثير من التظاهرات المتضاربة ـ على أساس واحد هو كثرة الخلجان البحرية التى تحف بها. وطول سواحلها، بمقارنتها بسواحل القارات الخمس الأخرى» وعلى هذا النحو أيضا يفسر تفوق اليونان القديمة أو كما يقول فليبسون[2] العالم الإيجى القديم الذى كان يتكون من عدد كبير من الوحدات الطبيعية، والأشكال الجغرافية المتباينة.. فتلك البيئة مرتفعة تشقها الخلجان والألسنة البحرية، ذات وسهول ساحلية صغيرة يانعة الخضرة تطل عليها صخور جبرية جرداء منظر رائع من المرتفعات التى تطل على زرقة البحر العميقة..

قيل هذا كله وأكثر منه، ورفض كل هذا بأمثلة مضادة[3]. لأنه ليس صحيحا أن أعمق الألسنة البحرية من بين الخلجان والفيوردات ـ أكثرها ازدحاما

---

(١) انظر أعلاه الباب الأول، الفصل الثانى.

(٢) سيمون (٢٢٩) صـ ٤٣٢ ـ حالات مشابهة تركز المكان على الشواطئ بالنسبة لشواطئ بحرة جنيف، وماجيورى ٤٠٠٠ وقد لاحظ برون (٦٦) ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٣) قارن هذا بما أورده ديبو (١١)

Dubois, du role des articulations littorale.

١٨٩٢ ص ١٣١ وما بعدها. فالو (٩٢) من ٢٦ - ٣٧.

بالسكان، وليس صحيحا أن نمو القوة البحرية الألمانية ـ التى لا تقوم على أساس ساحلى متعرج، أو القوة لبحرية الروسية، أو قوة فرنسا البحرية ليس صحيحا أن نمو هذه القوى البحرية قائمه على أساس من السواحل المتعرجة أو الخلجان ـ والألسنة البحرية، كما هى الحال فى بلاد اليونان، بل إن النرويج ـ حتى عصر قريب ـ كانت قد فقدت حماستها للبحر، ذلك الحماس الذى أورثه الفيكنج فيهم، وباختصار ليس صحيحا أن كل شاطئ متعرج يدعو إلى النشاط البحرى، وأن كل ساحل مستقيم يصرف سكانه عن هذا النشاط.

فى قلب أوربا، توجد جزيرة، ذات سواحل مرتفعة متعرجة، غنية فى مواردها الزراعية والبحرية ـ هى جزيرة كورسيكا، التى كانت على اتصال دائم منذ فجر التاريخ باقدم المدنيات وأحدثها، قريبة جداً من ساحل بروفنسال الفرنسى، وتقف على أبواب إيطاليا، مواجهة لسواحلها الوسطى، أرض وسط بين كل من فرنسا وإيطاليا ولكنها لم تعرف قط النشاط البحرى ولم يظهر فيها تجمع ملاحى ولم يعرف من بينها ملاح واحد بل إن موانئها القديمة من وضع الأجانب عنها، أسس النتوسكانيون ميناء بونيفاكيو، وأسس أهل جنوة ميناء أجاكسيو ولا يوجد بها فى الوقت الحاضر سوى ١١٠٠ شخص يشتغلون بصيد السمك على ٣٠٠ قارب للصيد وهو عدد أصغر مما تخرجه ميناء بريتانية صغير[١] ولا يزال الكورسيكى جبليا، زاعيا أو فلاحا، يولى ظهره للبحر بنفس عدم الاهتمام الذى يوليه أياه الألبانيون الذين عاشوا منذ أقدم العصور على الساحل الا يلليرى الألبانى ولم يستفيدوا قط من موارده[٢] فلا هم فلاحون ولا هم صيادو سمك ولا علاقة لهم بالبحر وليس لهم أى مواصلات تصلهم بالساحل أو الجزر الذى تحف به أو بالبر الآخر الادرياتى المقابل لهم، ويقال أنهم مثل متناقض غريب للإغريق ولكن أليسوا إغريقاً أهل لا كونيا الذين لم يعرف عنهم حب البحر إطلاقا؟

وهل يريد أحد مثلا عكسيا بعد ذلك؟ هناك ساحل منخفض مستقيم لا عوج فيه تحده الكثبان الرملية لا ينمو عليه سوى غطاء رقيق من الحشائش تربته من

---

(١) برون (٢١١) ص (٤٧١ - ٤٧٢).

(٢) كوجيك (٢٢٢) ص ١٥٨.

الجدب بحيث إن أمهر الفلاحين وأكثرهم دأبا لا يستطيع أن يقيم أوده منه، هذا هو الساحل الفلمنكى من كاليه إلى مصب الشلدت كما يصفه لنا أؤول بلا نشار. ومع هذا توجد سبع موانئ على جبهته الممتدة ١٣٠ ك. م.

أى بمعدل ميناء كل ١٨ ك م[١] . وهى كاليه، جرافيلين، دنكرك، نيوييورت أو ستند، بلا كمنبرج، وأخيرا زيبروج، سبع فتحات ثغرية فتحت فى أصعب حاجز ساحلى ممكن.

فهل يمكن أن يقال إن فقر الأقاليم هو الذى دفع السكان إلى اقتحام البحر؟ هذه القاعدة ليست مضطردة لأن ساحل هولندا المجاور له سوف يأتى عليها من أساسها. فعلى طول ٨٠ ك. م من الهوك الهولندى إلى هلور لا توجد سوى ميناء وحيدة صناعية، مرفأ واحد (لقوارب الصيد). هو إيمنيدن (Ijmniden) ويبلغ طول ساحل جاكسونيا ٢٠٠ كيلو متر وليس به سوى مرفأ و احد لقوارب الصيد.

فهل يمكن أن يقال إن الظروف الطبيعية فى مكان منها أحسن من أخرى لقيام الموانئ؟ وهل عزوف الهولنديين عن البحر يرجع إلى توجيه ساحلهم الجغرافى غير المشجع، مثل توجيه الساحل الفلمنكى الجغرافى؟ وهل يمكن أن نصدق أنه بسبب اتجاه الساحل الفلمنكى بحيث يواجه الرياح الجنوبية الغربية التى حملت الرمال وجعلتها تتراكم فى خطوط متوازية من الكثبان الساحلية جعلت الشاطئ أبعد ما يكون صلاحية للعمران، وبالرغم من ذلك قامت هذه الموانئ العديدة ولم تتمّ فى سواحل أخرى كانت أفضل صلاحية منها لقيام عمران بشرى؟

كلا فمهما كان الساحل كثير التعاريج فإنه لن يكون مغريا للسكان بالاستقرار فيه، وبالازدهار فى جواره ما لم تكن هناك فائدة مرجوة، من ارتياد السواحل وركوب البحر. فالظروف الطبيعية للساحل لنشأة الموانئ، ليس لها أى أثر حتمى فى قيام مجتمع بحرى وليس شكل الساحل فقط بالعامل الوحيد المغرى لذلك، فكم من سواحل قد هيأتها الطبيعة لقيام موانئ بحرية ومع ذلك لم تقم بها أى ميناء. وهناك سواحل حرمتها الطبيعة من أى ميزة ومع ذلك قامت بها موانئ. ولكن المهم هو قيمتها الإنتاجية وقيمة العمل البحرى الذى يدفع إليه من الناحية الاقتصادية.

---

(١) بلانشارد ٢١٧ ص ٢٣٤.

- ٣ -

السواحل المنتجة

للسواحل أكثر من فائدة فهى منتجة للطعام، كما أنها ذات فائدة تجارية فإذا كانت تجتذب من الناس من يوقف نفسه لحصاد البحر كما يطلق الإيطاليون على مهنة صيد السمك، فإنها أيضا تجتذب من يتخذها قاعدة للسفر بعيدا فى عرضه والارتحال إلى آفاق بعيدة عنها. فقد كان الإغريق صيادى سمك إلى حد ما، وملاحين إلى درجة كبيرة. وكذلك كان الفينيقيون الذين كانت سفنهم تمخر عباب البحر فى البحر الأبيض المتوسط وتنتقل من ساحل إلى آخر كما تفعل السفن الساحلية فى الوقت الحاضر. ومن ناحية أخرى كان البريطانيون أمة صيادى سمك أكثر منهم ملاحين. ولندرس الآن الحقائق الخاصة بالسواحل بوصفها مناطق لإنتاج الغذاء. وهل هى تبرر الفكرة التى ندرسها دراسة ناقدة. عن وجود مجتمعات ساحلية معينة؟

ونلاحظ بادئ ذى بدء أنه مما يدعو إلى الدهشة أن نجد أى تشابه كبير بين المجتمعات التى تستفيد من البحر، ناشئا عن غنى المياه الساحلية، حيث إن الرصيف القارى الذى يحيط بالقارات إلى عمق ٣٥ ـ ٤٠٠ متر، حيث ينتهى أثر أشعة الشمس يختلف اختلافا كبيرا فى الاتساع والغنى من إقليم إلى إقليم.

وسواء اعتبرنا هذا الرصيف ـ حيث تتصل الحياة النباتية البرية أو الحياة البحرية أو الساحلية كما يجب أن تسمى ـ التى تقع تحت تأثير المد والجزر[١]

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذه الاختلافات:

Jobin, La vie dans les Oceans, Paris, 1912, P. 162.

وكينوت (٥) ص ٩٢ وبعدها.

حيث يقل ارتفاع مد الماء أو المنطقة الأكثر عمقا التى تتلوها، فإن الأنواع البحرية التى تعيش فيها تختلف وتتنوع تنوعا كبيرا حسب تنوع شكل الساحل نفسه، سواء كان صخريا أم رمليا أم طينيا. وحسب تنوع قوة الأمواج وحسب تراوح المد عاليا أو منخفضا، وحسب توفر البلانكتون، وحسب المياه نفسها، رائقة أو غير رائقة، والسماء صافية أو كثيرة السحاب، واختلاف درجات الحرارة فكيف إذن ونحن إزاء هذه الظروف الساحلية المتنوعة نجد مجتمعات بشرية متجانسة متأثرة بالبحر مصبوبة فى قوالب معينة.

ثم إن الساحل خط يفصل بين البحر وبين اليابس كما أنه الجبهة اليابسة التى تهبط تحت الماء. فهناك وجهتا نظر للساحل، إما أن يكون جزءا من اليابس وإما أن يكون جزءا من البحر حسب الوجهة التى تراه منها.

ومن الواضح أن الساحل إذا كان صحراويا فإنه سيظل قفرا إلا فى حالات نادرة، إذا كان هناك مورد غذائى كاف من البحر وكذلك الحال بالنسبة لساحل منطقة غابات كثيفة لا تصلح للعمران البشرى أو غير ملائمة كوطن للإنسان. وأحيانا لا يعوض غنى البحر فقر الساحل وعقم تربته التى لا تجتذب الإنسان. وهذه السواحل قليلة نسبيا على كل حال، وعلينا أن نتساءل بعد هذا عن الأسباب التى أدت إلى اجتذاب السكان إلى السواحل الآهلة بهم. وهل هى ترجع إلى توفر الموارد البحرية أو البرية فى ظهرها؟

فنأخذ خريطة توزيع السكان فى فرنسا ولنتساءل: هل السكان يزدحمون فى إقليم لانجدوك على الساحل؟ إن ازدحام السكان كما هو فى الخريطة لا يدل على ازدهار إقليم الكروم[1]. وليس هناك تدرج فى كثافة السكان بين الساحل نحو الداخل مثل هذا التدرج الذى لاحظه روبرت فى بريطانيا فليست هناك مناطق متجانسة تقل كثافة كلما توجهت نحو الداخل إنما كل الاختلافات فى كثافات السكان ترجع إلى الزراعة[2]. ومن الصعب ولاشك الاهتداء إلى أثر البحر فى كثافة السكان هنا. وتبلغ كثافة السكان على السواحل وبصفة أخص الساحل الشمالى لإيتانج دى شاو التى لا تختلف فى شيء آخر عن سهول لا تجدوك المجاورة، حوالى ١٧٠ نسمة للكيلو متر المربع، وهذه السهول الساحلية

---

(١) انظر رقم (١١) مجلد ١٦، ١٩٠٧ ص ٤١٨.

(٢) نفس المرجع ص ٤٢٠.

تحمل تأثير البيئة البحرية التى تقوى أثر السهول الخصبة فى الوقت نفسه. وتحت أيدينا دراسة قام بها سابد عن صناعة صيد السمك على سواحل لانجدوك بين آجد وبين إيجة سورت، وقد بين فيها تنوعا كبيرا فى نشاط السكان المشتغلين بالصيد ولاسيما حول ست ولا يوجد بينهم صيادو سمك بمعنى الكلمة أى من الصيادين الذين يقاومون فى البحار إلا مجموعة صغيرة معظمهم من الأجانب المهاجرين الإيطاليين من كلاباريا ونابولى وجنوة[١]، الذين استقروا على جزء من الساحل الجنوبى. أما سكان الساحل الثانى المكون من بحيرات داخلية متقطعة على الساحل الداخلى الصغير على بحر ثاو الصغير بمياهه العميقة الهادئة والجزيرة الصغيرة التى تحمل نفس الاسم وحيواناته المتعددة الصالحة للأكل، من أنواع السمك والقواقع... إلخ، هؤلاء السكان لا يختلف أسلوب حياتهم عن الزراع أو أصحاب كروم الفاكهة فى بقية الإقليم. وليس هناك اختلاف بينهم وبين الزراع بل بينهم وبين صيادى السمك فى عرض البحار. وهؤلاء السكان جميعا يجمعون فى حياتهم بين صيد السمك فى عرض البحار والزراعة فى قطع صغيرة متناثرة كلما أمكن ذلك. وإذا اشتد عليهم الفقر يهاجرون إلى المدن ويشتغلون كحمالين أو يهاجرون إلى حدائق الكروم وقت جمع المحصول. أو يجمعون قواقع البحر وما إليها.

وليس هناك شىء غريب فى أسلوب الحياة هنا فقد وصف كاميل فالو إقليما مختلفا عن هذا كل الاختلاف، مستعملا لغة أخرى، وهذا الإقليم هو بريطانيا. فهو يبدد الفكرة القديمة الشائعة عن أقليم مكون من الجرانيت والشيست والصخر الرملى تربته فقيرة سواحله معرجة متنوعة تطل على بحرين، يوجد به شعب بحرى بل إنه يقول إنه لا ينبغى لنا أن نتصور بحاراً فى إقليم بريتانى السفلى (Bas Breton) فهم فى الحقيقة فلاحون زحفوا إلى الساحل ليقوموا ببعض الأعمال البحرية، وكونوا مستعمرات صغيرة تضم صيادى الأسماك، وهى قليلة العدد جدا بالمقارنة مع سكان أموريكا، ويكونون عنصرا ثانويا صغيرا فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للإقليم[٢].

---

(١) انظر رقم (١١) ٢٣ ـ ٢٦ ص ٢١ وما بعدها.
(٢) فالو (٢٣١) ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

وأما البريطانيون الذين يعيشون على البحر فقط فعددهم نادر فكل السكان فلاحون وملاحون فى نفس الوقت ولا يستثنى من ذلك إلا أهل بيمبول الذين يغامرون إلى البحار البعيدة وحقول الصيد فى نيوفوندلاندا وأسلندا والبحار العليا وصيد التونة عند جزيرة دى جروا. أما غير ذلك فهم فلاحون صيادون[١] أو صيادون فلاحون فكل قطعة أرض يزرعها الفلاح لأنه مضطر إلى ذلك أو تقوم زوجته مثلا بها بينما هو غائب فى صيد البحر. أما من حيث التربة الفقيرة فلا تكفى فى إنتاج المواد الغذائية ولا تمكن الصياد أن يكون فلاحا فى نفس الوقت كما هى الحال فى جزيرة مولين حيث يقوم ٦٠٠ نسمة بصيد سرطان البحر. فإن المجاعة تحدث وتنتشر ولابد حينئذ من إرسال المؤن والمواد الغذائية للسكان المتضورين جوعا فى قوارب خاصة[٢].

هذا مثل أخذ من بين شعب متمدين، ولكن هل من يصدق أن نفس الشيء يحدث أيضا فى شعب بدائى؟ فكم من الآراء الخاطئة التى كونت عن سكان المحيط الهادئ مثل البولونيزيين والميلانيزيين «أبناء المحيط» كما جرت العادة على تسميتهم. هؤلاء السكان الذين وفدوا مهاجرين من أراضى بعيدة، الذين تسود حياتهم البيئة المحيطية. وهناك مجال واسع للعمل فى هذه المناطق لصيادى السمك والملاحين بل وللزراع البارعين، حيث إن موارد الطبيعة عديدة ومهمة ولاشك أن البولونيريين صيادو سمك ماهرون وملاحون بارعون ولكن هل يعتبر وجود الجزر المرجانية، التى ينمو عليها نخيل الجوز (Coco nucifera) حقيقة بحرية؟ فهم يستخدمون من السائل الموجود داخل هذا الجوز شرابًا زيتيا مستساغًا مفيدا، ويستخدمون محارها كمواد قابلة للنسج وجسم الجوز نفسه غذاء مفيد. وهو أمر لاحظه الرحالة والمكتشفون الأول. ولهم فى الثمرة وفى ساق النخلة مآرب أخرى. منها يصنعون أثاثهم ويبنون منازلهم ويصنعون قواربهم وليست هذه هى الشجرة الوحيدة الكبيرة الفائدة لهم بل هناك شجرة الخبز (Artocarpus incisus) وشجرة نخيل الساج (Colocasia Succulenta) وغيرها

---

(١) نفس المرجع ص ٢٣١ ومابعدها.

(٢) السابق، ص ٢٣٢.

من نباتات منطقة المحيط الهادئ وكل هذا لم يمنع البولونيزيين أو الميلانيزيين وهم أفقر من الأولين فى المواد النباتية الطبيعية، من أن يوقفوا نشاطهم للزراعة ويبرعوا فيها ومن الخطأ أن نعتبرهم صيادى سمك من نوع خاص متميز تماما فى صفاته كما يتميز طراز رعاة الضأن.

لا يطغى أثر البحر على اليابس طغيان أثر اليابس على البحر، حتى ولو كان أثر البحر قويا ومرغوبا فيه. فمثلا فى بريطانيا، وفى سواحل موربيهان لا يجمع السكان السماد البحرى الذى يحتوى مواد فوسفاتية وجيرية تكونت بتحليل الصخور البللورية إلا من نطاق لا يزيد عرضه على ١٥ ـ ٢٠ كيلو مترا على الأكثر[١] ، كما أن الفلاح النورماندى يستمر فى حصد سنابل القمح صيفا بعد سف لا يعبأ بالبحر ولا بما يقع وراءه.

وأخيرا لابد أن تتأكد من نقطة أخرى. فهناك حديث طويل عن قوة جاذبية البحر، وثروة السكان الذين يعيشون على السواحل، وأن هذا يفسر اتجاه الإنسان نحو البحر، والهجرة إلى السواحل ولكن فالو وهو يستعرض ما كتبه روبرت عن «الحزام الذهبى» [٢] (Ceinture Dorée) لبريطانيا يرى أن ليس للبحر أى إغراء فى جذب السكان نحو ساحله إن أهل بريطانيا يهاجرون ولكن ليس من الداخل إلى الساحل فزيادة عدد السكان ترجع إلى زيادة المواليد. ولكن من يتردد فى أن يقول أن هذا يرجع إلى الظروف الجغرافية[٣].

ليس الإنسان مجموعة غرائز وشهوات. ولا تفسر الحاجة إلى الطعام كل سلوك الانسان. كلا! فليس السمك أو القواقع البحرية هى السبب فى تزايد عدد السكان كلا، ولا كثرة الخلجان والمتعرجات الساحلية. فالإنسان لا يقل تأثرا بآرائه عن تأثره بحاجاته. فهو يأكل كلما يحب كما أنه يأكل ما يحب فهو ربما يأكل فاكهة البحر (frutti di mare) بسرور. أو ربما كان لا يقبل على أكل السمك

---

(١) شوفو (١١) ١٩٢٠ ص ١٧.

(2) Vallanx, Apropos de la Ceinture Dorée P. 457, Robert, La Ceinture Dorée existe-t elle?

(٣) عائلات صيادى السمك على سواحل شاو، سابد وغيرهما (المرجع السابق) (ص ٣٨) لا يزيد عدد أفراد الواحدة منها على ثلاثة أطفال فى المتوسط مثل العائلة الفرنسية.

كما يقول بودان مؤلف «الجمهورية» فى أحد فصوله الممتعة. إن الفرنسيين يعزفون عن أكل السمك لدرجة أن السمك يأكل بعضه بعضا لأنه لا يجد من يأكله.

وأكثر من هذا فإن هناك مانعا قويا يحول دون تبرير زيادة السكان على أساس مادى ولنا فى هذا مثلان. مثل خريطة توزيع سكان داهومى[١] التى يلاحظ فيها أحد الباحثين أن عدد السكان يزداد كلما توجهنا من الداخل إلى الساحل، هل هذا أثر اجتذاب البحر؟ كلا إن هذا يرجع إلى أن العناصر المغلوبة على أمرها لجأت إلى الساحل بعد أن فرت من وجه قاهريها القادمين من السافانا الشمالية، ولذلك أصبح ترتيب السلالات من الداخل إلى البحر، حسب حداثتها وقدرة بطشها، وأصبحت أقدم السلالات وأضعفها شأنا أبعدها من الداخل، وأقربها إلى البحر.

ومثل آخر مفيد من مؤرخ درس المجتمع الغالى القديم الساحلى وخصوصا سواحل موربيهان، الذى تتدخل فيه الخلجان العتيقة، بتيارات مائية سريعة والذى يمتاز بكثرة الرؤوس والخلجان والأذرع المائية، فإنها تريد أن تمسك بالساحل بواسطة ألف ذراع، وتستولى منها على ضحاياها وقرابينها[٢] وقد لاحظ هذا المؤرخ أيضا بصدد عدد كبير من الشعوب متجمعة على طول الساحل أن السكان القدماء ـ كما أظن ـ ظلت جماعاتهم عديدة مزدهرة فى أرموريكا، وبعضها مثل أوسيسمى (Osisimii) تعيش فى فينيستير، وترجع إلى ما قبل الغزو الروونى[٣] ويلاحظ أيضا وجود عدد كبير من النصب الحجرية، والمعابد والمذابح الحجرية والأماكن الدينية فى هذه الأركان. وكأنما هاجرت أرواح الموتى القدماء من هذا العالم إلى صخرة تطل منها على البحر والمحيط، قبل أن تغادر هذا العالم إلى عالم آخر، يقع عبره، حسب معتقدات الشعوب الأوربية القديمة مثل السكلت والجرمان وما إليها ـ ولذلك بنوا معابدهم القديمة قرب البحر لكى يوفروا على

---

(١) هوربرت (١٨٢) شكل ٨٥.

(٢) كامبل جوليان (١٧٢) مجلد ١، ص ١٥٧.

(٣) نفس المرجع مجلد ٢، ص (٤٨٧ ـ ٤٨٨).

الأرواح جزءا من رحلتها الكبيرة. ومن المعروف أيضا أن ساحل البحر الأبيض المتوسط عامر بهذه الآثار الدينية القديمة لأشخاص خرافيين[1] مما يمكن أن يسمى بالجغرافيا الميثولوجية، أو الجغرافيا الدينية للإقليم.

---

(١) نفس المرجع مجلد ١، ص ١٥٨.

- ٤ -

الملاحة الجزرية والعزلة الجزرية

لقد ميزنا الآن بين وظيفة الساحل منتجًا للطعام وبين وظيفته الملاحية ولاحظنا أيضا أن سواحل البحر تجتذب من الناس من يستطيع أن يتخذها قواعد للملاحة البحرية والمغامرة فى سبيل كسب القوت فى عرض البحر. ولكننا لاحظنا من قبل أيضا أن الجزيرة هى الطراز المثالى لبيئة منعزلة وسط البحر، فكيف نستطيع أن نوفق بين هذين الأمرين وقد نقول إنه ليس ثمة تفسير لأى تناقض، وما علينا إلا أن نبين وجهى المسألة، ثم نحاول أن نرى كيف نشأت فكرية العزلة الجزرية.

هناك ولاشك جزر مقصية فى عرض المحيط بعيدة عن الطرق الملاحية المهمة الكبرى مما كتب على أهلها عزلة تامة وقدر لهم حضارة أصيلة خاصة، وساعد على تكوين صفات سلالية خاصة بهم مع مرور الزمن[١] هذه هى حالة الجزر الصغيرة المتناثرة فى المحيطات الهادىء والأطلسى والهندى فى قطع صغيرة من اليابس ضائعة وسط محيط الماء مثل جزر تريستان داكونها أو ترايندداد، والأندمان فى خليج البنغال وسكانها من الزنوج بل والأقزام والمنكوبى (Minkopi) وهم أقارب سكان ملاكا وأهل جزر مارشال وجلبرت وكارولين فى أقصى أجزاء المحيط الهادئ، ولماذا نذهب بعيدا فعندنا فى حوض البحر الأبيض المتوسط جزر صغيرة مثل سكاربنتو أو كاريافوس القديمة بين كريت ورودس التى تدهش زوارها بطابع العزلة والانفراد الذى يمتاز به أهلها[٢]. وهذه القطع

(١) دى مارتون (١١) ١٩٠٦ ص ٣٢٠.
(٢) انظر :
Karpathos, étude géologique, Paléontologique et botanique, Stephani (c.de) Forsylh et Barbey, Lousanne, 1895.

الصغيرة مـن اليابس كمـا فى رأى ركلوس، سجون أو منفى للشعوب التى تسكنها.

ولكن هناك أيضا جزرًا تقع على الطرق البحرية العالمية أماكن التقاء وتقاطع عدة طرق ملاحية وسط البحار والمحيطات، مثل صقلية وكريت فى البحر الأبيض المتوسط القديم، ومالطة فى الوقت الحالى وجزر سندا وهاواى ويورتوريكو وكوبا، فكيف نضع هذه الجزر بالنسبة لغيرها؟ إن هذه الجزر فى جميع مظاهرها البشرية تعكس آثار اتصالاتها المستمرة الآمنة النشيطة بالعالم الخارجى فطغت عليها المدنية تلو المدنية والحضارة تلو الحضارة.

ولنضرب مثلا بصقلية التى توارد عليها بالتعاقب الفينيقيون ثم الإغريق ثم القرطاجنيون ثم الرومان ثم الفندال والقوط ثم البيزنطيون ثم العرب ثم النورمان ثم أنجفان ثم الأراجوان ثم الأميبريال ثم السوفويارد ثم النمسويون.... إلى آخره. ولا نحتاج إلى أن نقول إن كل دولة كانت تغير معالم الحضارة والمدنية التى وجدت عليها أهل الجزيرة عندما تتولى زمام الأمور فيها. أو كانت تحدث انقلابات سياسية واقتصادية أو تغير أساليب الحياة الزراعية أو المادية الأخرى. ولكن مما لاشك فيه أن كل موجة من هذه الموجات الحضارية كانت لا تنسحب من الجزيرة إلا بعد أن تترك بعض آثارها فيها، فكل منها كان تجربة فى حد ذاتها، فهل كانت هذه المجتمعات جزرية؟ من يستطع أن يقارن حياة أهل هذه الجزر التى تقع عند مفارق الطرق البحرية العالمية مع هؤلاء الجزريين المنفيين فى سجونهم وسط البحار والمنكمشين فى حياتهم المقفلة. وسلالاتهم الداخلية وعاداتهم ونظرتهم الاجتماعية الخاصة بهم. من يستطع أن يقارن صقلية بموجاتها الحضارية المتتالية بكورسيكا وسردينيا المجاورتين.

هناك فروق عديدة بين الجزر وأشباهها المنعزلة وغير المنعزلة تعرض نفسها علينا لكننا سنقتصر على أكثرها أهمية. فكم من جزر تقع فى أطراف القارات وكم من أشباه الجزر تعتبر كملاجئ تأوى إليها الشعوب المنزوية تنتهى إليها آخر الموجات البشرية لتتكسر وتنتهى، إليها يأوى المغلوب على أمره من سلالات بعد صراع شعبى أو سياسى أو دينى، ولنضرب مثلا بجزيرة فورموزة وما فيها من شعوب بدائية وجزر كوريل وما فيها من شعب الأينو، وجزيرة سيلان ومن فيها من البوذيين وجزر الفلبين وما فيها من الآيتا وجزر الكناريا وما فيها من الجوانش

وهم من أصل بربرى وأخيرا فهناك أيرلندا (وما فيها من سلالة البحر المتوسط وكاثوليك ـ المعرب)

ولكن من ناحية أخرى كم جزيرة تقع بالقرب من القارات الكبرى وتختلف فى مميزاتها عن الجزر السابقة. وتلعب دور أماكن التجمع والوثوب والتوسع وكان لها أثر فى نشر المدنية إلى الأقاليم المجاورة ولنضرب مثلا باليابان، فهناك تنوعات كاملة تحل محل التجانس فى الظروف العامة، فسكان الجزر يتجهون جغرافيًا نحو القارة ويستخدمون سواحل الأرخبيل اليابانى كنقط وثوب على الأراضى المجاورة كغزاة أو على الأقل قرصان، مثل قراصنة بحرايجه الذين وصفهم فكتور بيرار من الأوديسة أو قراصنة البحر الكاريين (البحر المتوسط الأمريكى) وقراصنة تورتى Tortue كما وصفهم لوران[١].

ولا نحتاج إلى أن نبين أن الجزيرة قاعدة دفاعية هجومية ممتازة فهذه سقيفة اكتشفت من عهد قديم[٢] اكتشفها الفينيقيون فى أورد بمنازلها المزدحمة المتعددة الأدوار أو فى صور المعتصمة بالبحر، ونذكر أيضا مميزات جزيرة كاليبو وطن الملاحين القدماء الممتازة بينابيعها العذبة وكهوفها التى كانت تستخدم كمخابئ للمحاربين وأسلابهم، وكانت ملجأ أمينا يمكن أن تقاد فيها النيران دون أن يراها الأعداء ومخبأ يمكن أن يثب منه القراصنة على الرعاة والنساء عندما يريدون الماء، ونقطة مراقبة يستفيد منها القراصنة ومن ثم كانت وطن القراصنة من قديم الزمن[٣] ، وكانت شبه الجزيرة التى تطل على الجزيرة لا تقل عنها استيحاشا مما يعوق حركات الجنود إذا قدموا من القارة للدفاع عنها[٤].

هذه قواعد حربية ممتازة لقوم لهم مآرب فى القارة، فسكان صور وأورد كانوا يشرفون على الساحل الفينيقى من جزرهم المواجهة له والشعوب البحرية التى كانت تقطن جزر فينستير كانوا أكثر اهتماما بإنجلترا وأيرلنده منهم بأوربا التى تغطيها الغابات[٥] ويصف ركلوس وصفا جيدا تلك الجاذبية التى تستولى

---

(١) انظر كابتيان ولوران (٢٠١) ص ٣٢٧.

(٢) ركلوس (Phénicie et les phéniciens (Bull

(٣) بيرار (١١) ١٨٩٨ ص ٣٦٣.

(٤) جوليان ـ ١٧٢ ـ مجلد ٢، ص ٤٩١.

(٥) جوليان نفس المرجع ص(٤٨٧ و ٤٨٨).

على سكان القارة نحو سكان الجزر القريبة التى تظهر على الأفق القريب منهم فى الأيام الصافية.

فجزر البحر الإيجى جذبت ملاحى آسيا الصغرى إلى أن يعبروا منها إلى اليونان، كما أن الفينيقيين كانوا ينظرون إلى قبرص كميناء عبور قبل أن يغامروا بالسفر فى البحر المجهول، وقد وصف هنرى فجنود فى كتابه عن المغامرة الكبرى سنة ١٤٩٢، وفى كتابه الصغير عن كريستوفر كولمبوس تلك الجاذبية القريبة التى كانت تستولى على الملاحين عن المجهول والمرهوب عن جزر المحيط الأطلسى تلك الصخور الوسطى التى كانت فى الطريق الملاحى الكبير عبرها.

هذه أمثلة لأثر الإنسان فى البيئة وأثر البيئة فى الإنسان وعبثا نحاول أن نجد قانونا عاما عن الجزر يفرض على سكانها ومجتمعاتها فرضا. بل إننا نجد باستمرار تنوعا كبيرا فى التأثر بالبيئة وفى تأثيره فى البيئة بل إننا نجد أن هذا التعامل خاضع لسنة التطور والتغيير المستمرين.

ومنذ زمن مضى علق ريتر فى كتابه المشهور على التغيرات التى كان يمكن أن تحدث لقارة أوربا لو لم يكن يحف بها بحر إيجة بجزره أو صقلية أو الجزر البريطانية والدور الوقائى الذى لعبته هذه الجزر كأماكن يلتجأ إليها وحصون اعتصمت بها الأمم الآرية واستطاعت عنها أن تحمى الحضارة والمثل الأخلاقية التى شيدتها فى القارة[1]. ولكننا نعلم أن هذه الجزر البعيدة لعبت أدواراً أخرى أقل شأنا من هذه، فجزر الليدى الرملية لم تكن فى بادئ أمرها إلا أماكن يلجأ إليها سكان المدن الرومانية هاربين من وجه الفريولى (Friuli) ولكن لم يمض عليها وقت طويل حتى أصبحت مركزا ثقافيا وتجاريا لتوسع أهل هذه المدينة التى كانت فى الأصل مستعمرة لاجئين، ولكننا نستطيع أن نؤكد أنه بالرغم من الفوائد الكبرى التى استفادها أهل البندقية من الظروف الجغرافية لمدينتهم فإنه لم يكن هناك قدر جغرافى يقدر على سكان هذا الجزء من البحر المتوسط أن يقيموا البندقية أو يلعبوا دورها فى التاريخ، فهناك الكثير من سكان بيئات

---

(١) قارن ـ ركلوس ـ ١٨٧ ـ مجلد ٢، ص ٦٤٧.

المستنقعات مثل (Poitivin) الذين وصفهم كلوز ولم يترك أهلها مهنة الزراعة أو يتركوا استغلال مواردهم المحلية سعيا وراء مجد تجارى كبير وراء البحر.

فللبحر إذن أقاليمه الجيدة وأقاليمه الفقيرة وله مياهه التى تجتذب السكان ومياهه التى لا تجذبهم، وأما الأماكن المحظوظة التى أغدقت عليها الطبيعة مميزاتها فهى تلك التى كانت تحيطها المياه أى الجزر أمام سواحل آهلة بالسكان مثل صور وقادش وقرطاجنة وبيريه فى الزمن القدم، تلك الجزر التى كانت تقع وسط مسطحات مائية مفتوحة. ونكنها محمية فى الوقت نفسه. يشعر فيها الإنسان. بالأمن ويقيم فيها بكل جرأة وبذلك يتلقى أول دروسه فى التفوق البحرى[1]. ولكن لابد أن يكون لدى الناس الروح البحرية، يجب أن يكونوا قد تعلموا فن الملاحة الذى يرى راتزال[2] أنه كان وقفا على عدد قليل من الناس فى بادئ الأمر. ثم انتشر بعد ذلك إلى غيرهم من البشر ببطء وبدون نظام بريطانى دون شك أحسن الأقاليم إن لم يكن الإقليم الوحيد، الذى كان قمينا بأن يبث فى نفوس أهله حب الملاحة ولكنهم لم يكونوا يحبون المخاطرات الخيالية، ومجال نشاطهم لم يختلف عن مجال نشاط فلاحى أركوت، بل كان أضيق من مجال فلاحى الجبل فالبحَّار البريطانى لم يكن يحب أن يبتعد كثيرا عن الشاطئ حتى لا يفقد منظر القرية. وكان أكثر ارتباطا بالساحل من الفلاح بالأرض وكان لا يكاد يهاجر من قريته الساحلية.. والحق أنه ليس الفلاح الأكثر ارتباطا بالصخور الأرموريكية[3] ومن الغريب أننا نجد ـ كما وجد فالو ـ أن المهاجر لم يكن من البحارة البريطانيين ولكن من الفلاحين (من بريطانيا السفلى) (Bas - Breton) فلم يكن الجوهر الذى جذب ملاحيه بل الأرض التى لفظت فلاحيها حيث إن البحر فى بريطانيا السفلى لا يؤدى إلى خطوط الملاحة الكبرى[4].

إن الحقيقة رائعة تملؤها الحياة، ولا يئد هذه الحياة إلا الملخصات العامة والأحكام المبشرة الجوفاء. ولننظر إلى تلك الجزيرة الصغيرة التعسة جزيرة

---

(١) جوليان ـ ١٧٢ ـ مجلدا، ص ٢٨.

(٢) راتزال Das meer als Quelle des Valkengrose, Munich, 1890

(٣) فالو (٢٣١) ص ٢٢٢.

(٤) نفس المرجع ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

كاربانوس (سكاربانتو الحالية) من جزر بحر إجه. أنها بقعة منعزلة ملاحوها فى غاية الغلظة والبساطة عاداتهم قديمة جدا بشكل ملحوظ يحتفظون ببعض آثار المجتمع الأموى، حيث إن الميراث تختص به البنت الكبرى ويسير فى الطريق الإناث جيلا بعد جيل[1]. ويخرج منها كل الشبان والرجال كل ربيع[2] حيث إن التربة فقيرة جدا لا تكفى أودهم ليشتغلوا نجارين للسفن فى الجزر الأخرى حيث إن أهم مورد فى جزيرتهم هو الخشب، كما يشتغلون فى الصناعات الأخرى المتصلة ببناء سفن الصيد، وكعمال غير فنيين وبنائين وحمالين وقطاعى أحجار، ويمكن أن نجدهم فى كل الجزر التى تحيط بهم كما نجدهم فى ساحل آسيا الصغرى الغربى وفى مصر. هنا نجد عزلة وهجرة وسفرًا وتقاليد عتيقة ولا يجب أن ندهش من اقتران هذه الصفات التى تبدو متناقضة وإلا كنا راتزاليين أو راتزليين حديثين نسىء تفسير القانون الكبير العالمى الدائم. قد يسافر الرجل ولكن إذا عاد إلى وطنه الأصلى حيث تدير النساء والرجال العجائز أموره وحيث يحافظ هؤلاء العجزة وتلك النسوة على تقاليده فإنه لن يغير من تقاليد هذا المجتمع، بل إن المجتمع هو الذى سيحيط به ويوقعه تماما فى قبضته ويصهره مرة أخرى فى بوتقته ويمحى من ذهنه كل تجاربه التى اكتسبها فى الخارج بل يجعله يراها كما لو كانت وهما من الأوهام.

من الصعب تقدير دور علم النفس. وإننا كلما رأينا بعض الكتّاب يندفعون فى تصوراتهم وكتاباتهم على سكان الجزر الذين تدعوهم الرياح باستمرار إلى البحر وكأنه نداء من المجهول فى مكان سحيق، والذين قد وسعت الرحلات البحرية آفاقهم، بينما هناك كتاب يندفعون فى وصف آثار العزلة السيئة وأنانية أهل البندقية الذين لم يفكروا قط فى غير البندقية أوأفق الإنجليزى الضيق الذى لا يفكر إلا فى مصلحة إنجلترا فإننا نقول لا تسألوا الجغرافيا ولكن اسألوا علم النفس.. إذ إن أهم شىء هو المثل التى يعتنقها الناس ـ المجموعة السياسية ـ

(١) كارباتوس ص(١٨ ، ١٩).
(٢) نفس المرجع ص (٩، ٣٥).

بالنسبة لموقع بلادهم الجغرافى وصفاته وفوائده ومضاره، مهما كانت هذه الآراء خاطئة أو لاتقوم على أساس من الحقيقة فمهما، تبلغ الأسلحة الحديثة من قوة ومهما وصلت الطائرات من سرعة وسعة مجال فإنجلترا ستظل جزيرة وسيظل نفق المانش مشروعا فقط. وهذا فى النهاية هو المهم.

- ٥ -

جزر الصحراء ـ الواحات

والآن فلنستمر فى تحليلنا للجزر، وندرس الجزر الأرضية ـ الواحات وهى ولاريب تستحق اسم الجزيرة لأنها منعزلة ومنقطعة عن العالم فى وحشة صامتة فى الصحراء، ويخبرنا جوتيير أن كل واحة فى الصحراء نوع من السجن ومن يعيشون فيها مسجونون لا يستطيعون الفكاك من أسرها، لأنهم لا يعرفون طريق الصحراء ولا الآبار التى تنتشر فيها ويخشون بطش قطاع الطرق فهم منحصرون تحت ظلال نخيلهم كأنما رُبطوا إليها بسلاسل.

ويتفق الباحثون على أن ملاحظات جوتيير على واحات الصحراء الكبرى تنطبق أيضا على واحات أخرى مثل واحات تركستان، وقد وصف بومبلى ـ وهو يقوم بعمليات الحفائر ـ واحة آناو، وهى مدينة قديمة مهجورة بالقرب من أسكاباد. وهو يتفق مع جوتيير فى وصفه الحى لهذه الواحة مهما اختلفنا معهما فى نتائج ملاحظاتهما فهما يتحدثان عن عالم مقفل لم تصله إلا أصداء بعيدة خافتة من زمن طويل، ولا يمثل إلا أنواعا محلية نادرة للحياة الاجتماعية الخاصة به[1].

ومهما يكن من أمر فمما لاشك فيه أيضا أن الإمبراطوريات القديمة مواطن الحضارات والمدنيات الأولى نشأت فى واحات فى الصحراء، كبيرة فى الصحراء الليبية وفى الصحراء السورية فإنه فعلى الرغم من أن جوتيير يقول إن كل واحة فى الصحراء نوع من السجن فإنه يبدد الوهم القديم من أن الصحراء جحيم

---

(١) انظر (١٦) ١٩١٠ ص٢٥٢.

وعذاب مقيم، إذ تكتنف بالواحة - ولا سيما - فى الصحراء الكبرى - مساحات من الأرض تمتاز بالتربة الخصبة مما يساعد على إيجاد علاقات بشرية متبادلة بين سكانها وبين أهل الواحة، وتكتنف الصحراء أيضا ممرات مستقيمة من الأرض الرملية تتبعها القوافل بانتظام وتحف بهذه الطرق الطبيعية فى الصحراء تربة الريح (Reg) التى تصلح لأشجار الحدائق وليس أفضل من هذه التربة لسير الجمل هذا المخلوق الذى يمتاز بأخفافه للكبيرة الإسفنجية التى تشبه الصنادل الكبيرة، والتى تلائمها التربة الرملية الجافة للريح، أحسن مما تلائم الحصان بحوافره الصلبة مثلا. كما أن هذه الأرض صالحة تماما لحركة العجلات، ونحن الغربيون متعودون على الطرق الممهدة لسير العجلات. ولكن فى الصحراء حيث تكون الريح تكون الأرض صالحة لسير القوافل، ويقول جوتيير إنى متأكد من أن الريح أوجدت أول الطرق المعروفة «وهنا تجد الواحة نهاية العالم السجن المقفل تماما على العالم المنطوية على نفسها قد أصبحت ملتقى شبكة من الطرقات. حيث إنه لايوجد فى فيافى الصحراء المتسعة المستوية السطح أى عقبة يمكن أن تلتقى عندها الطرق قبل أن تنحرف فى اتجاهاتها المختلفة. وفى نفس الوقت فالواحة هدف المغير البدوى الذى يهدف إلى غزوها والسيطرة عليها، بينما يعتصم أهل الواحة فى واحاتهم على أنها قاعدة تمدهم بالمؤن والعتاد وهم ينتقمون لأنفسهم بالسطو على قطعان الرعاة»[١].

تاريخ أهل الواحة السياسى ليس إلا سلسلة صراع بينهم وبين الرعاة الغزاة. وبهذه الوسيلة رغم أنهم منعزلون عن أنحاء العالم بعيدون عن ممرات التجارة الكبرى التى تفضل طريق السهوب على الطرق القاحلة بعيداً عن ممرات الهجرات البشرية، فإنهم يجدون أنفسهم والرعاة على اتصال بأحداث العالم الخارجى الذى لا يعرفون عنه شيئا. وهذه صلة أقوى من صلة العلاقات الاقتصادية التى يقيمونها مع جيرانهم، بالرغم من كل شىء، بواسطة حيوانات النقل مثل ثيران الجارامانت (Garamantes) القديمة فى الصحراء الكبرى هؤلاء

---

(١) ويكوف (١٩٨) ص١١٤.

الذين كانوا يشبهون البوير فى العالم القديم وحياتهم فى صحراء الترنسفال أو هذه الماشية السودانية ذات الظهر المحدودب التى لا تزال ترتاد مرتفعات الحجارة حتى الآن[١] والخيل التى كانت نستعمل قبل اكتشاف السروج من زمن قديم والحمير حتى التى تستعمل فى توات الجنوبية التى تحمل ظهورها بالتمر وتساق فى وادى مسعود الذى يستحق اسمه بجدارة من واحة توات إلى تاودينى[٢] وأخيرا الجمال التى دخلت الصحراء الكبرى حديثا بخطوها الوئيد الثقيل والتى لا تعوض مصاريفها إلا قليلا.

وإلى جانب تلك العلاقات الاقتصادية هناك علاقات سياسية بينها وبين العالم الخارجى وهى على وجه الدقة ليست إلا آخر ذبذبات لموجات الاتساع السياسى لدول بعيدة عنها. فهى نتيجة اتصالات مباشرة أو غير مباشرة لهذه الذبذبات.

ولايرجع ويكوف فى كتابه الصغير عن التركستان الروسية[٣] غزوات البدو الآسيويين وتوغلهم فى وسط أوربا وجنوبها إلى حالة الجفاف التى قد تصيب أوطانهم بل إلى ازدحامها بالسكان والماشية. فالجفاف حالة سائدة فى بلادهم فى وسط آسيا بل إنه - إذا أخذنا بآراء بعض الكتاب - يزداد باستمرار بل هو حالة مناخية لا جدال فيها[٤]. غير أن طوفان البدو الآسيويين إلى شرق أوربا وغرب آسيا قد انقطع الآن. فقد استولت الصين على الأراضى المغولية كما أن سيبيريا قد ازدادت عمرانا بالسكان بالتدريج، فقد تقدم الاستعمار الروسى خطوة خطوة مع مد السكك الحديدية وإنشاء المستعمرات فى سيبيريا، التى كانت خالية من السكان تقريبا فى زمن «أتيلا وجنيز خان». كما أن اعتناق المغول

---

(١) جوتيير ١٨١ ب، ص١٣٦ - ١٣٧.

(٢) جوتيير نفس المرجع ص٣٦ - ٣٧.

(٣) ويكوف ١٩٨، ص ١٣.

(٤) غن هذه المسألة الكبيرة ارجع إلى تلخيص هربيت فى ١١، مجلد ٢٣ و ٢٤ و ١٤ - ١٩١٥، ص (١ - ٣٠).

للبوذية كان أمرا له نتائجه إذ تحول ثلث الرجال أو ربعهم على الأقل إلى رهبان ـ أو «لاما» لا يتزوجون. وهنا نجد الدين قد قام بدوره مرة أخرى فى تحديد النسل، وحل وسط آسيا محل الاحتياطات الفسيولوجية التى يلجأ إليها الطوارق فى الصحراء الكبرى [١]. وتتفق ملاحظات ويكوف بشكل غريب ولاسيما إذا أخذنا فى الاعتبار اختلافات الزمان والمكان مع ملاحظات كورنوت فى أماكن الرهبنة القديمة. وفائدتها فى حفظ التوازن السكانى إزاء زيادة خصوبة المتزوجين[٢]. وهكذا كانت الهجرات البشرية الكبيرة وغزوات البدو التى غيرت مصائر التاريخ فى حضارات قديمة مستقرة عديدة من العالم الجديد كانت تعتمد على حقائق تاريخية غريبة، وأن تغير بعض هذه الحقائق أثر فى حياة السكان الذين يعيشون الآن فى عزلة تكاد تكون تامة فى وسط آسيا فوق الهضاب المرتفعة التى لم تجرؤ الخطوط الحديدية أن ترتفع إلى منسوبها وإنما اكتفت بأن تدور حولها من الشمال وربما أتمت دورتها من الجنوب عندما يتم إنشاء الخط الحديدى من بنغال إلى إيران وهذا أيضا أمر أكثر وضوحا فيما يتعلق بالصحراء الكبرى.

وقد بين جوتيير فى أحد فصوله عن رحلته إلى الصحراء، الجزائرية موضحا كتابه بالأمثلة التى تميز طريقته فى الكتابة، الآثار التى ترتبت على سقوط غرناطة فى أيدى الملوك الكاثوليك عام ١٤٩٢، على عالم الصحارى. فقد تبعها انفجار من التبشير الدينى وغزو المدنية البربرية القديمة وسحقها بلا رحمة ورجحان كفة الإسلام الذى لم تصبح له السيادة التامة إلا فى القرن السادس عشر أى بعد دخوله إلى شمال أفريقيا بثمانية قرون. وأدى هذا إلى تغير تام فى السلوك والآداب والآراء والمثل والحياة الاقتصادية والاجتماعية كل هذا نتيجة حادث حدث فى التاريخ الأوربى لاشك لم يسمع عنه أهل توات أو جورارة «فها نحن بإزاء سلسلة كاملة من الأحداث التى لم نتعلم فى تاريخ أوربا أنها نتيجة مباشرة لدموع أبى عبدالله الأخيرة ـ ولكن هذا هو الواقع» وبعد هذا نسمع الكثير عن العزلة الصحراوية.

---

(١) جوتيير ١١٨١ ص١٧٧.

(٢) Cournot, Souvenirs, p. 29 & 7, 20.

وهناك ظاهرة أخرى تستحق الملاحظة، فنحن نتحدث عن الواحات باعتبار كونها وحدات مثالية من صنع الطبيعة قدمتها للإنسان لكى يتمتع بها دون كبير نصب. إلا أن الواحات ليست وحدات سياسية فى الوقت نفسه ولكل واحة اسمها وشخصيتها الجغرافية وحدودها المميزة التى تنتهى بانتهاء الخضرة المنعزلة وسط رمال الصحراء. ولكنها ليست وحدة سياسية، فلا يربط بين قرى الواحة الواحدة أى رباط سياسى. فمثلا تحتوى واحة توات على ١٢ واحة صغيرة لكل منها مروجها الخاصة من النخيل كل منها تكون وحدة كاملة مكتفية بذاتها. كما أن عدد القرى فى كل مرج يختلف باختلاف اتساعه عن عدد قرى المروج الأخرى فهناك ٢٦ قرية فى تيمى وقريتان فقط فى سباع وتختلف القرى فى عدد سكانها بعضها عن البعض الآخر. ويتراوح بين ٢٥ و ٥٠٠ نسمة، ولكن لكل قرية جمعيتها الخاصة تحت رئاسة شيوخها الذين يحكمون تلك القرى ولا تتعدى سلطتهم القصر، أى القرية الواحدة. وإذا حدث خلاف بين هذه القرى فلا سبيل لتسويته إلا باللجوء إلى القوة فكيف يتفق ذلك مع عزلة الواحة ووحدتها الجزرية؟

ولكن هل هناك شىء اسمه وحدة جزرية؟ سواء أكان يحيط بها ماء أم رمال فهى إقليم محدد المعالم متجانس، وبالرغم من ذلك فهى لا تمثل وحدة سياسية، فهناك جزر مقسمة سياسيا وظلت كذلك فترة طويلة من الزمن ولكن شكلها لم يدع إلى خلق الوحدة قط. فانظر مثلا إلى الجزيرة البريطانية فى العصور القديمة وتمزقها بين عدة ممالك وإمارات الكورنوول والويلز والأنجلو سكسون والأسكتلنديين ثم عبر البحر إلى إيرلندا أو أبعد إلى مدغشقر حيث مناخ مختلف وحيث ظروف حضارية ومدنية مختلفة. وانظر إلى العدد الكبير من القبائل والشعوب والعادات والتقاليد التى تعمر أجزاء مختلفة من الغابات فى نيوغينيا، والتى تطلق عليها جميعا اسم البابوان ولكنهم يجهلون لهم اسما واحدًا أو حياة وطنية واحدة. فالحروب الدائمة لا تفتؤ قائمة بينهم وبعضهم يعيش فى شمال الجزيرة فى أكواخ كبيرة يضم الكوخ أكثر من أسرة. وبعضهم يعيش فى جنوب الجزيرة فى أكواخ مقامة على أعواد الخيزران أو فوق أغصان الأشجار أو فى أكواخ مخروطة فى الأرض ولا يقوم أى رباط سياسى بينها. ونحن بإزاء جزيرة كبيرة حيث تعوق كثافة الغابات والأحراج نمو أى وحدة سياسية ولكن هناك جزر

عديدة فى المحيط الهادئ، ولا تمثل وحدات سياسية بالرغم من صغر حجمها وبالرغم من هذه الأمثلة يكتب الكتّاب كما لو كان البشر الذين يتحدثون عنهم قد كتب عليهم أن يسيروا فى خطوات مرسومة لهم منذ الأزل، وأن هذه الخطوات تساعد على إملاء القوة الجغرافية العليا وكأن من يأت إلى بيئة فعليه أن ينهج نهجا معينا ثابتا قدر له فى هذه البيئة منذ الأزل. وأن هذه الحياة ليست إلا تلاؤما لظروف البيئة.

وليس نهر الميز وحده هو النهر الوحيد الذى يخترق هضبة الأردن وليس الراين وحده الذى يخترق مرتفعات خاصة به، فهناك شعوب بشرية تخترق أيضا الفيافى أو القفار التى وجدت نفسها محاطة بها، بكل وسائل عيشها ومظاهر مدنيتها المادية فى بيئة ليست بيئتها الخاصة الأصلية، فهل من المنطق أن ندرس موضوع مدنيتها المادية هذه لو كانت من نتاج البيئة ؟ ولنعد مرة أخرى إلى الصحراء الكبرى وإلى ملاحظات إميل جوتيير الدقيقة التى تدل على قوة تحليل بارعة، فإننا معرضون لكى ننظر إلى الصحراء كأنها أزلية، نوع من العذاب المقيم لفئة أبدية القيت على أقدار ساكنيها، ولكن هل هذا صحيح أليست الصحراء الكبرى حديثة العمر؟ أليست الآن فى بدء تطور انتهى بها إلى الجفاف وقد شهده الإنسان أمام عينيه منذ أواخر العصر الرباعى؟ لقد رأى جوتيير نفسه كيف أن حركات الكثبان البطيئة تهدد الزرع فى الواحات بالهلاك، هكذا تكونت الصحراء ولا داعى مطلقا للرجوع إلى فكرة تغير المناخ أو تدهور الظروف المناخية[١]. ولكن من دراسة مدنية سكان الصحراء الكبرى الحاليين وجهادهم فى محاولة السيطرة على الظروف الصحراوية ومقارنتهم بمكان صحارى أستراليا وكالاهارى فى جنوب أفريقيا[٢] نتساءل ما الدور الذى نرجعه إلى الظروف القديمة وإلى الميراث القديم الذى حمله هؤلاء السكان قبل أن تسوء الظروف المناخية وتنتشر الظروف الصحراوية الحالية فى إقليمهم؟ إننا ندهش لكثرة عدد أسماء الأعلام فى الصحراء الكبرى[٣] ولاسيما على طول الدروب الصحراوية، وتزيد دهشتنا عندما

---

(١) جوتيير ١٨١ أ مجلد ١ ص ٥٤.

(٢) نفس المرجع ص ١٩.

(٣) نفس المرجع ص ١٨.

نجد هذه الأسماء مطلقة على أشد الأقاليم وحشة وإقفارًا ألا يدل هذا على أن سلالات لا تجد من يمثلها فى الوقت الحاضر كانت تعمر أقاليم معينة ثم ازدادت ظروف هذه الأقاليم سوءًا فهجرها أهلها بعد أن استنفذوا جميع وسائلهم، ومنها حفر الآبار واستنباط الماء من المستوى الباطنى، الذى كانوا على علم به حتى غلبتهم الظروف الصحراوية القاسية على أمرهم، فتفرقوا عنها بددا واعتصموا بالواحات؟ هذا مجرد فرض لا شك فى هذا، ولكنه قد يفسر الظروف المدنية الحالية لسكان الصحراء وتجعلها مقبولة منطقيا.

- ٦ -

فكرة العزلة وقيمتها الجغرافية

والآن فلنناقش فكرة العزلة، ما هى، كيف نشأت، وعلام تدل؟

ربما كانت هذه الفكرة واضحة نسبيا للأحيائى، وهو ليس له أى رغبة فى الخوض فى عالم الآراء المجردة، وكيفية ما يلاحظه فى عالم النبات والحيوان، ويستطيع أن يصل إلى حلول لمشاكله عن طريق يسير ممهد. فهو يحصى فى جداول معينة عدد الحيوانات والنباتات من أنواع معينة موجودة فى المكان فى تاريخ معين، قبل حدوث حادث معين ثم يعود فيحصيها مرة أخرى بعد حدوث هذا الحادث المعين، ويستنتج نتائجه المنطقية التجريدية.

للعزلة معنى خاص لديه، فهو يعرف الموارد الطبيعية للكائنات التى يدرسها وقوتها فى التحرك والانتقال. ولكن هل فكرة العزلة فى مثل هذه البساطة والوضوح بالنسبة للجغرافيا، كلا مطلقا. العزلة بالنسبة للجغرافى البشرى فكرة معقده جدًا، وليست فكرة طبيعية بسيطة مطلقة. ولايمكن ترجمتها إلى مجرد أرقام، أو مجرد أبعاد وهى لا تعتبر فكرة ثابتة، بل تتغير تغيرًا نسبيًا مستمرًا كلما ازدادت وسائل المواصلات سرعة وسهولة وتعددا، ومن الممكن إيراد بعض الحقائق بمنتهى الوضوح والدقة، مثل تاريخ مد خط سكك حديد سيبيريا، أو فتح قناة بنما، أو اكتشاف طائرة من طراز قوى مأمون سريع، كل هذا قد يقلب فكرتنا عن المسافات رأسًا على عقب، مثل المسافة بين فرنسا واليابان، أو من نيويورك إلى كالاو Callao.

ولكن أى مجلس إدارة لأى شركة من شركات النقل والمواصلات، يستطيع ـ وهو داخل حجرة اجتماع المجلس ـ أن يغير المسافة الحقيقية بين دولة وأخرى، وذلك برفع تعريفة المواصلات أو خفضها، أو بتقدير سرعة البواخر والطائرات والقاطرات تقديرا يرفعها أو يخفضها، حسب ما يراه فى مصلحته، وبمحض إرادته. فقبل الحرب العالمية الأولى، كانت كاليه وأوستند تتنافسان على النقل بين إنجلترا وإيطاليا. وقد كان الألمان يفضلون طريق أوستند ولذلك نظموا حركة النقل فيه بمنتهى الدقة. وكان مجلس إدارة سكة حديد الألزاس واللورين يهيئ مواصلات خط أوستند بحيث لايتعطل إلا بأقل قدر ممكن تأخرت القطارات أثناء عبور ممر سانت جو ثارد. ولكن مواعيد القطارات التى تغادر محطة كاليه، إلى إيطاليا عن طريق مولهاوس بلفورت كانت أيضًا لا تقل عن الأولى دقة وضبطا، بل كان من مهمة كل ناظر محطة أن يلاحظ جزءًا من الطريق الذى يمتد من بحر الشمال إلى إيطاليا(١).

إذن فالعزلة تتراوح بتراوح بعد المسافات، وتضطرد معها اضطرادا منتظما ولا يمكن قياسها بالأميال، أو قياسها بالبوصلة ففيه متناقضاتها وغرائبها. وساكن الجبل فى قاع الوادى الجبلى ـ من جزيرته الجبلية ـ رجل منعزل، مخلوق سجن فى نطاق ضيق يفرضه عليه الحاجز الجبلى الذى يفصله عن بقية أنحاء الإقليم، ولكن هل يستطيع أن يصدق أحد أنه لايغادر بقعته هذه؟ أو أن يقضى حياته فى تلك الأغوار الجبلية لا يريم عنها؟ وإلا فمن إذن اكتشف تلك الممرات الجبلية السهلة نسبيا، والتى تربط بين كتلة جبلية وأخرى، وتخترق قلب ذلك العالم المعزول، (وليست القمم الجبلية عادة مدببة، بل مسطحة ، سهلة الانحدارات، حيث تمتد مروج الحشائش صيفًا، وحيث تصبح النزهة عندها نوعا من المتعة، لا من التعب) (٢) ولا يتعب ساكن الجبل إذا كان يشتغل بالزراعة على المدرجات، إن

---

(١) انظر مذكرات إيسمان فى:

Les chemins de fer transalpin, Rev. des cours et confernces, 1914 p.p. 390 et seq. (La methode).

(٢) كل هذا مأخوذ عن دراسة كافاييه:

Cavaillés: une federation Pyrénéens sous l'ancien Régime (Rev historique, t. cv, 1910, p. 3 et seq.

يغير من ارتفاعه باستمرار يتنقل من مستوى إلى آخر[1]، وهو فى حركة دائبة، ولكنه لاينافس الراعى فى ذلك قط، ذلك الراعى يترك منزله وقطعة أرضه المنزرعة فى قاع الوادى، ويظل يرتفع مع سفح الجبل، من مرعى إلى آخر، وكأن بينه وبين القمة سببًا، يلبى دعاءها الخفى باستمرار، وهو يقضى جل وقته على السفوح المرتفعة، وليس فى بطن الوادى المطمئن، كما أنه يتنقل من واد إلى آخر باستمرار وراء المرعى والكلأ، فيقابل الناس من الوديان المجاورة وينشئ بينه وبينهم علاقات أو ينمى حياة اجتماعية، وتكون بينهم حركة تبادل وتجارة وأخذ وعطاء.

ولا شك أن هناك عزلة، هى السبب فى نشأة وحدات سياسية خاصة، تشمل المناطق الجبلية، وتنتهى بنهاية السفوح التى تطل على السهول، ولكن هذه عزلة نسبية. وكذلك العزلة التى تحدث كل عام فى فصل الصيف، عندما يهرع الرعاة وهم يسوقون قطعانهم من وديان البرانس المنخفضة، أو من شمال إسبانيا الشديدة الحرارة، إلى أعالى البرانس الفرنسية حيث المراعى خضراء يانعة، وتلك القطعان الكبيرة من الضأن فى مرتفعات رومانيا، وجبال الألب الإيطالية، وبروفانس، وقطعان البقر والثيران فى مرتفعات تارانتيز Tarantaise، والتى وصفها آربوس، كل هذه الحالات من العزلة نسبية[2] ، كذلك عزلة أهل الجزر الذين يهاجرون كل عام إلى القارات المجاورة عزلة نسبية، ولكن لايوجد إقليم عزله بحكم طبيعة الأرض مثل وجود جبال تكتنف الإقليم، أو جنة صحراوية جافة تتشقق صخورها من حرارتها الشديدة، أو بحكم كونها جزيرة يحيط بها الماء، مثل هذه الأقاليم المنعزلة وهم من الأوهام، إذ إن هناك سهولاً لا تقل عزلة عن الجبال نفسها.

---

(1) Ch. Biermann. la civilisation en pays de montagne. XI, 1913 vol. X X II, pp. 270 - 82.

(٢) رقم (١١) ١٩١٢ مجلد ٢١، ص٢٢٣، ٢٥٤.

Arbos, "la vie pastorale en Tarentaise.

ويلاحظ كوجيك Cuijic فى كتابه عن شبه جزيرة البلقان، عندما حلل الظروف المختلفة التى ساعدت على تكوين عناصرها البشرية[1] أن سهل المجر ـ الفولد ـ وهو سهل معروف، متسع الأرجاء، لاتقوم وسطه أى عقبة جبلية، لم يشترك مطلقًا فى المدنية الأوربية التى توغلت فى البلقان.

«لقد كان سهل المجر مجرد منطقة عبور، تعبر بأسرع ما يمكن، فى الطريق إلى وسط أوروبا، ولكنه لم يكن منطقة استقرار». ثم يقول نفس المؤلف «إنه حوض قد هيأته لكى يكون حلقة وصل بين الشعوب، ومن ثم يساعد على انتقال المدنيات وانتشارها، وبالرغم من ذلك فقد ظل عقبة فى سبيل إخاء الشعوب وارتباطها، وأكثر من هذا فإن لغة هذا السهل المتسع المفتوح جغرافيا ـ لغة أجنبية تماما وغريبة تماما عن اللغات الأوربية، وقد دخلت هذه اللغة إلى سهل المجر، على يد غزوة حديثة، وضعت يدها على هذا السهل فى عهد حديث نسبيا. وأقرب اللغات الأوربية إليها هى اللغة الفنلدية، حيث يستطيع اللغوى الماهر أن يجد أوجه الشبه والقرابة بين تعابير كل من اللغتين، أليس هذا المثل وحده له دلالة كبرى، كى يهدم كل الآراء القديمة التى كانت تعتقد أن الجبل وحده ووديانه هو مثابة اللغات القديمة وأمنها، وهى المعقل الذى تعتصم فيه السلالات القديمة، والعادات والتقاليد العتيقة.

العزلة حقيقة بشرية، وليست حقيقة جغرافية، إنها أمر يخص البشر، فهى تتوقف فى حالة الجزر على الملاحة فى البحار، وهى ليست حقيقة طبيعية، وفى اليابس تتوقف على إرادة الإنسان، وعلى تقاليده ومعتقداته، كما رأينا.

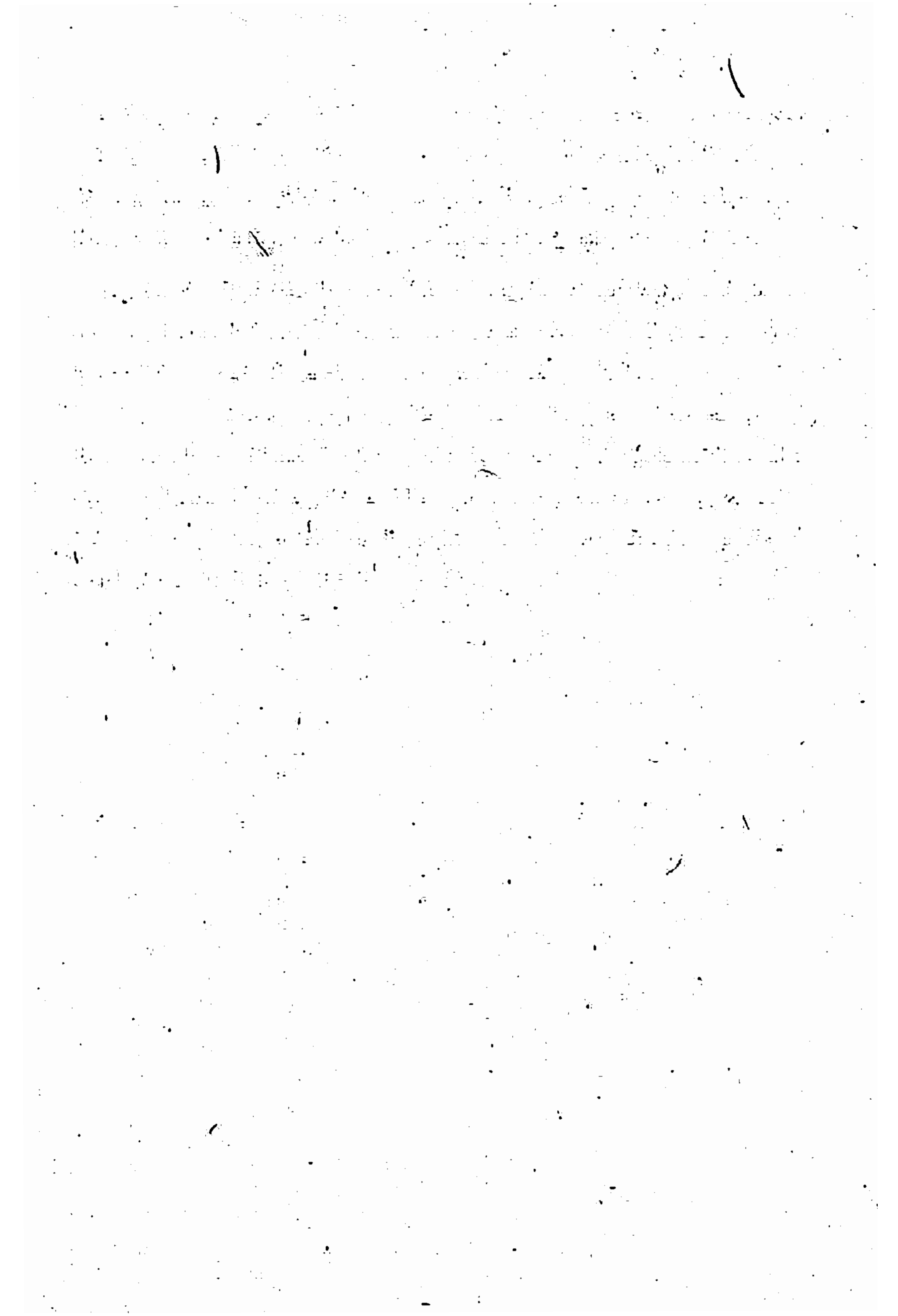
والنتيجة لهذا كله، هى أننا نجد فى الأقاليم الطبيعية التى استعرضناها من الجبال، والسهول والهضاب والوديان والسواحل والجزر والواحات ـ جماعات بشرية، يمكن مقارنة بعضها بالبعض الآخر، بل إن هناك تشابهًا بينها، فكيف نشأ هذا التشابه؟ إنه نشأ من وجود نفس الإمكانيات، التى يظهر أثرها أو لايظهر طبقا لاختلاف الظروف العامة أو تشابهها، بل إن نفس الإمكانيات قد يظهر

---

(١) كويج (٢١٢) ص١٠٨.

أثرها ثم يختفى، ثم يظهر مرة أخرى، طبقا لتوافر ظروف أخرى أو عدم توافرها، ولكن ليست هناك ضرورة لا مفر منها مطلقا وأى تحليل للظاهرات الاجتماعية التى ندرسها، يدل على تعقدها تعقيدًا، وعلى أنها حلقة من حلقات تطور طويل المدى، ولذلك يجب تتبع هذه الحلقات، حلقة بعد أخرى حتى يمكن أن نفهمها.

إذن فما هى قيمة تلك الوحدات الطبيعية، بل وما كنهها؟ إنها وسيلة وليست غاية وربما كانت لها قيمتها الخاصة، بأجلى معانيها، إذا نظرنا إليها بمفهومها القديم الذى لم يستعمله فقط أتباع راتزال، بل الجغرافيون القدماء، الذين أثقب نظرًا، وأعمق بصيرة من راتزال وأتباعه هؤلاء الذين كانوا يحجمون عن التعميمات الفجة بالنسبة لنا، وهى ذات قيمة عملية، فهى ليست إلا وحدات لتيسير دراستها. وهذه هى الطريقة الوحيدة التى نهتم بها من أجلها. وهى بذلك تساعدنا على اكتشاف حلقة من العلاقات الحقيقية بين إمكانيات البيئة وبين نشاط المجتمعات البشرية التى نعيش فيها.



الفصل الثالث
أساليب الحياة: صيادو البر والبحر

ليست هناك ضروريات، بل هناك احتمالات فى كل مكان، والإنسان سيد الاحتمالات هو الحكم فى اختيارها. هذا المبدأ يضع الإنسان فى مكانه الطبيعى، الإنسان وليس الأرض، وليس أثر المناخ وليس الظروف الطبيعية للمكان.

والإنسان، كغيره من الحيوانات، يعيش فى كنف الطبيعة، فمن الطبيعى أن يتعيّش منها، ولا يملك غير أن يستعير منها كل مقومات حضارته، وهو يستخدم تلك العناصر التى يستعيرها بشكلها الذى وجدها عليه وهو بدائى، أما عندما يرتقى فى سلم الحضارة فإنه يحوّر فيها ويهذبها.

فكل شىء إذن يدخل فى تكوين الحضارة البشرية يمت إلى «الطبيعة» بسبب. ونستطيع أن نقول كذلك إن كل الظروف الجغرافية، هى فى نفس الوقت ظروف إنسانية. ولكن هذا القول لايؤدى إلى شىء، وربما كان من المهم لو أن الظروف الجغرافية لم تكن مادية فحسب، بل كانت سببا فى نشأة المجتمعات أى لو أن ظروف (الستبس) السهوب كانت تملى حياة رعوية على الإنسان، أو لو أنها خلقت له هذا الأسلوب من الحياة، أو لو أن المستنقعات استوجبت بناء المساكن على نظام معين، فوق الأكوام الصناعية، ولو أن الطبيعة الجزرية هى التى أجبرت إنجلترا على أن يكون لها أسطول تجارى وحربى كبير. ولكننا لم نصل إلى أى نتيجة حتمية كهذه. إلا أن تبديد الأوهام لا يكون بنقد أشياء تافهة، بل بالدراسة والتحليل، والواقع أن قوة العادة، وفقدان المقدرة على الحكم الصحيح، أو الملكة الناقدة، تؤدى أن إلى وقوع أكثر الجغرافيين حيطة فى متناقضات عجيبة. فهذا

كويجيك Cuijic، فى كتاب ملىء بالمعلومات المفيدة عن شبه جزيرة البلقان[1] ، يبين فى أحد المواضع كيف أن الصقالبة والألبان لم يستجيبوا لدعاء البحر، ولكنه فى موضع آخر، يقول: إن سهل الدانوب، بالرغم من أن سلالة واحدة تسكنه، وبالرغم من أنه سهل مستو وليس مقسما إلى أجزاء صغيرة مثل شبه جزيرة البلقان، وبالرغم من أنه لا تغطيه الغابات، بل هو واقع تحت نطاق الشهوب، فإنه «جعل» السكان الذين اشتهروا فيه منذ أوائل العصور الوسطى قومًا زراعيين وهكذا خلط السم بالعسل[2].

لقد أثبتنا أن مثل هذه الأحكام مبتسرة، لأننا يجب ألا نقول إن الظروف الطبيعة قد شكلت المجتمعات البشرية، لأن التحليل الدقيق للظروف الجغرافية يجعلنا نعتقد أن النشاط البشرى هو الذى شكل المجتمعات البشرية، إننا نواجه نقاشًا، بدرجة كبيرة من البراعة، يسير على الأسلوب الآتى: فى وسط تسيكانا، فوق التلال الضخمة التى تحتل الإقليم بين الأبنين وبين ماريما نجد أن أهم طابع للإقليم هو غطاء نباتى من الأحراج والنباتات القصيرة، والكروم، وأشجار الزيتون والتوت.

ولكن هذه النباتات هى «النتيجة الطبيعية لتضاريس الإقليم، وطبيعة التربة والمناخ». وأكثر من ذلك فإنها ذات أثر اجتماعى معين «فى خلق مجتمع يقوم على أساس الأسرة، وسلطة الأب ومراكزه التقليدية فيها» أى أن حقوق الملكية ونظام الأسرة نتيجة مباشرة للظروف الطبيعية[3]. ولكن الكاتب نسى شيئًا واحدًا فقط، وهو أن هذه النباتات جميعًا التى يمتاز بها إقليم تسكانيا - وهى الحقيقة الجغرافية التى بنى عليها حكمه - ليست من صنع الطبيعة، بل هى نتيجة للنشاط البشرى، فإرادة الإنسان فقط، وجهوده الطويلة المضنية هما اللتان أدخلتا هذه النباتات إلى هذا الإقليم، إذ إنها ليست أصيلة فيه، وليس هو الوطن الأصلى للكروم أو الزيتون ومن باب أولى التوت، الذى نقله تجار لوكا من صقلية إلى تسكانيا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر.

---

(١) كوجيك (٢٢٣) ص١٥٨، ٢٥٧.

(٢) نفس المرجع ص٤٦٨.

(٣) روكس P. Roux (Les populations rurals de la tuscane science sociale, 55, 1909 p.3

إلى جانب هذا، فربما كان من الصعب ـ ليس من الناحية الطبيعية ولكن من الناحية الاقتصادية ـ استغلال تسكانيا فى أى زراعة أخرى، كما يجب أن نلفت النظر إلى أن الإمكانيات الاقتصادية. مميزة عن الإمكانيات الجغرافية، ليست داخلة مطلقًا فى نطاق الجغرافيا، بل تنطوى تحت لواء النشاط البشرى. ومن الواضح أن الإقليم صالح لأنواع أخرى من المحاصيل الزراعية ـ من الناحية الجغرافية لا من الناحية الاقتصادية ـ إذ إن مناخها ملائم، ويدل على ذلك وفرة الحبوب فيه. وإلى جانب الحبوب، هناك حدائق الكروم أو الزيتون أو أشجار التوت، ولا شك أنه لا يمكن أن يقال إن الحبوب محاصيل غير منفصلة عن الحدائق. فليس فى المسألة أى ضرورة؛ ولكن الخطر فى الجغرافيا البشرية، أنها تنزع إلى أن ترفع الحقائق إلى مرتبة الضروريات الحتمية. فالواقع أن المنظر العام لتسكانيا. منظر بشرى، من صنع الإنسان، وانتشار حدائق الزيتون والكروم والتوت فى تلال تسكانيا، إحدى حقائق المدنية الإنسانية ودراسة أثر هذه الحقيقة أمر جدير بالاهتمام جغرافيًا بطبيعته، لأن الجغرافيا فى نظرنا علم الوسائل والأساليب، ومن المفيد جدًا أن نبين كيف أن مجتمعين بشريين مختلفين فى إقليمين مختلفين، قد تصورا أسلوبًا معينًا لإرضاء حاجتهما، وكيف أن كلا منهما، تحت آراء ومعتقدات معينة، قد استخدم الوسائل والموارد التى بين يديه، والتى تقدمها له البيئة، ولاءم بينها وبين غاياته. وهنا مرة أخرى، نجد أن العنصر الأساسى هو التصور البشرى.

- ١ -

جغرافية المطالب البشرية

أو أساليب الحياة

التصميم أم الحاجة؟ هذا هو السؤال الأكبر: إذ إن هناك فريقًا من الجغرافيين قد بدأوا من حاجات الإنسان الحيوانية، لأنهم تصوروا أن «الأرض» أو البيئة هى محور النشاط البشرى، وأنها أملت ضرورتها على «الإنسان» إملاءً . وقد تكون هذه بداءة سعيدة للبحث، بشرط ألا يكون هناك اعتراض على الحاجات «الطبيعية» للإنسان - أو إذا كان مفهوما أن الحاجات الطبيعية لا تستتبع بالضرورة وسائل طبيعية لإشباعها.

وتفصيل ذلك أن الإنسان يجب أن يستنشق، ويجب أن ينام، ويجب أن يأكل وأن يشرب[١]. ولقد رأينا كيف أن المعتقدات البشرية (وهى من صنع الإنسان) واتجاهاته الذهنية توسطت بين هذه الضروريات وبين تحقيقها، ويكفى أن نشير هنا إلى المحرمات العديدة التى تحيط بأنواع خاصة من الأطعمة عند بعض الجماعات البشرية[٢]، وليس هذا الأمر قاصرًا على الطعام، بل إنه ليصدق أيضًا على جميع «الحاجات» البشرية الضرورية. والأحوال الضرورية التى يعيش فى كنفها الإنسان بنشاطه المنتج، ليست أحوال «السلم» وهو أمر مثالى، بل «الأمن» وهو شرط يتوقف عليه كل نشاطه، أى لابد من أن يؤمِّن وجوده وحياته، ثم يوالى وسائل استمرار هذا الوجود، ولكن بين أن يؤمِّن وجوده وبين أن يوالى استمرار نشاطه؛ حالة وسط يستدعى فيها الأمر إلى التأهب للقتال باستمرار، ولنفرض

---

(١) برون (٦٦)، ص ٥٠ وما بعدها.

(٢) انظر أعلاه.

أن جماعة من البشر قد تأهبوا لتأسيس مساكن لهم، فلو أنها آمنة على نفسها، لكانت حرة فى أن تختار هذه المساكن فى الفضاء المكشوف حيث تسهل الحركة من مكان إلى مكان، لا يحد من نشاط أهلها شىء، ينعمون بالهواء والشمس، وبحرية فى اختيار المواد اللازمة لهذه المساكن. ولكن إذا كانت هناك حالة حرب تتهدد هذه الجماعة، أو حالة تهديد بالحرب، فإنها ستختار مساكنها فى محلات تنفقها كل الميزات التى ذكرناها من قبل، لأنها ستتكرر باستمرار فى «تأمين نفسها» وتأكيد هذا التأمين. ومن ثم كانت مساكن البحيرات، وسط المستنقعات الراكدة، وسط العقبات الطبيعية، لكى تعرقل هجوم الأعداء، ولكنها أيضًا تعرقل حرية سكانها، الذين يعتمدون على الماء والبوص والطين للدفاع عن أنفسهم ضد أى هجوم فليس هناك إذن شىء طبيعى بين الإنسان والطبيعة.

كما أن الحاجة إلى التجارة، شىء طبيعى أساسى، وهى تفسر نشأة الأقاليم والأمم والدول وهذا صحيح، ولكن ما هى التجارة؟ إن أقدم أنواع التجارة لم تنشأ فى مواد ضرورية للإنسان: بل نشأت فى الكهرمان والذهب. بل والصفيح؛ لأننا لا نعرف تمامًا ما إذا كانت المواد الحربية الحجرية الحديثة أقل قيمة من المواد الحربية البرونزية أم لا. وعلى أية حال فقد تدخلت مسائل السلم والحرب من قديم الزمن بين الإنسان وبين ظروفه الطبيعية. وفى الوقت الحاضر تتدخل بين كهرمان البحر البلطى وصفيحة وذهبه، وبين الجهات الأخرى البعيدة التى تطلبا «المدنية» وهى كلمة غامضة، تشتمل على آلاف المعانى والمدلولات، منها العادة السائدة (المودة) والترف والدين والتقليد وليس منها ما هو جغرافى بالطبيعة. والواقع أن الطبيعة لاتوثر فى حاجات الإنسان ومطالبه، بل إن الإنسان هو الذى يؤثر فى الطبيعة على مر الزمن، وذلك باختياره وسيلة أو وسيلتين من وسائل تحقيق حاجاته العديدة، وبتمسكه بعناد بهذه الوسيلة أو الوسائل التى يختارها وبنفس الأساليب، وتحت نفس الاتجاه الذهنى فى تحقيق غايته، ببطء فى بادئ الأمر، ولكنه بطء مستمر، ينتهى إلى أن يصبح نطاقًا واسعًا عميقًا، بمعنى آخر، إننا نحتاج لأن نبين أساليب الحياة التى تتبعها الجماعات البشرية المختلفة.

لقد وضح فيدال دى لابلاش هذه الفكرة بقوة ووضوح فى مقالين فى الحوليات الجغرافية[1]، وهذه الفكرة ذات أهمية كبرى للبحث الجغرافى البشرى، وأصل هذه الفكرة قديم يرجع إلى محاضراته التى كان يلقيها عام ١٩٠٢، عن ظروف الأحداث الاجتماعية[2] ، وقد حذرنا قائلا: «يجب أن نتذكر أن قوة العادة تلعب دورًا كبيرًا فى طبيعة الإنسان الاجتماعية. فإذا وجد نفسه ـ وهو يتطلع إلى الكمال ـ يسير بخطوات ثابتة متقدمة ناجحة، فإنما لأنه يتابع نفس الخطوات التى اهتدى إليها من قبل. أى باتباع نفس الأسلوب ونفس المعارات التى انتقلت إليه بالوراثة من سلفه من قبل، والتى ينميها ويغذيها بتمسكه بها واتخاذها عادة له» ثم يتابع فكرته قائلا: «ويحدث كثيرًا أن بعض الإمكانيات الجغرافية للإقليم تظل مدة طويلة مهملة، أو أن ذهن الإنسان لم يتجه إلى استغلالها إلا فى عصر متأخر».

فيجب أن نسأل أنفسنا فى هذه الحالة، «ما إذا كان هذا الإهمال أو هذا الانتباه المتأخر لها، منسجمًا مع أسلوب حياته الذى ساعدت صفات البيئة الأخرى على التمكين له أم لا». وهكذا نجد فيدال دى لابلاش، منذ عام ١٩٠٢ قد اهتدى إلى الفكرة الأساسية، بل إلى الألفاظ الدقيقة المعبرة عنها، ووجد أن وسائل الاستغلال الاقتصادى أو النشاط الاجتماعى قد تصبح ضرورة أيضًا فى وقت آخر. «فالعادة تحفر لنفسها طريقًا يزداد عمقًا يومًا بعد يوم فى عقول البشر، وأن تأثيرها على الإنسان يبلغ من العمق بحيث إنها توجه قواه التقدمية كلها فى اتجاهات خاصة» ورأى أن الجغرافى قد أضلته أوهام معينة جعلته يقول: «إن هذه الطبيعة، التى نراها، تتضمن أسلوبًا معينًا من الحياة» بينما هذه الطبيعة ذاتها، كما يراها الجغرافى الآن، ليست إلا نتيجة أسلوب معين من الحياة.

والواقع أن العادات التى يكتسبها الناس فى بيئات معينة، تتحول، بحكم التكرار والثبات إلى أشكال من المدنية، وأن هذه الأشكال تكون أنماطًا خاصة،

(١) (١١) ١٩١١، مجلد ٢٠، ١٥ مايو، ١٥ يوليو.

(٢) (١١) ١٩٠٢ مجلد ١١ ص (٢٢ - ٢٣).

يمكن أن نفصل بين بعضها والبعض الآخر جغرافيًا، ويمكن أن نجمع بعضها إلى بعض ونقسمها إلى مجموعات فتقسم بدورها إلى مجموعات فرعية. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وعلى أى أساس نقسم هذه المجموعات ؟ وكيف نستطيع أن نتعرف عليها وإلى أنواعها أو فروعها؟

- ٢ -

تصنيف الاقتصاديين: نظرية الحالات الثلاث

«اسأل المؤرخين والاقتصاديين» كما يقول الناس «فإن المشكلة قديمة بالنسبة لهم، وقد وصلوا إلى الحل من زمن بعيد» ولكن هل هذا صحيح؟

نحن نعلم أن المؤلفين القدماء كانت لهم آراء واضحة جدًا حول تقسيم البشر - آراء من الوجاهة حقًا، لدرجة أنها كانت تنتقل بكل تقديس من جيل إلى جيل، دونما تغيير يذكر، حتى عهد قريب.

وكان المؤرخون وأصحاب النظريات السياسية القدماء، يرون أن البشر جميعا قد مروا خلال ثلاث فترات متعاقبة، فعاشوا أولا بالصيد والقنص، ثم بتربية الماشية ثم بالزراعة. وهذا ترتيب تاريخى منظم عادى، أليس من الطبيعى والمحتمل أن تسبق الصيد والقنص حياة الرعى، التى سبقت هى بدورها الزراعة؟ لقد مر الناس كلهم فى خلال هذه المراحل الثلاث بالترتيب بطريقة بسيطة لابد منها، كما ينتقل الفرد من الشباب إلى الرجولة إلى الشيخوخة على الترتيب.

ولكن هذا التعاقب التاريخى، كان فى الوقت نفسه تقدما اجتماعيا، فالصيد والقنص كان مهنة الناس البسطاء، الذين لايتمتعون إلا بدرجة بسيطة جدا من المدنية، بل كانوا أقرب إلى الحالة البدائية الأولى. ثم انتقلوا بعد مجهود كبير وارتقوا إلى مرتبة الرعاة، وبذلك ارتفع مستواهم المدنى، أما وصولهم إلى مرتبة الزراعة، المستقرة على الأرض المنزرعة، فكان خطوة كبرى للتقدم البشرى. وتلك ثلاث مراحل تاريخية، لاشك. أو ثلاث درجات فى سلم التطور والرقى، لا يستطيع البشرى أن يصلوا إلى قمتها دون الصعود فوق الدرجتين السابقتين.

وهذا ترتيب ثابت غير قابل للتغيير، مثل درجات الحضارة البشرية الحجرية، والبرونزية، والحديدية. وقد ظلت هذه النظرية سائدة إلى أن عارضها ج. وى مورتيلليه عام ١٨٩٠ ، فى كتابه عن أصول الصيد والمرعى والزراعة.

ولم يظهر عدم كفاية هذه النظرية لشرح التطور الحضارى البشرى إلا منذ ثلاثين عاما، ولكن هذا الترتيب التعاقبى للمراحل الحضارية ليس إلا فرضا ثم ازدادت الملاحظات العلمية والمعلومات الدقيقة عن حياة الشعوب البدائية التى أظهرت وجود عدد كبير من «الحالات» الحضارية، أو على وجه الدقة أنماط اقتصادية للمجتمع البشرى، أقل وضوحا وحدة من حالات صيد السمك والقنص والرعى والزراعة، التى ظلت أمدا طويلا محتلة بؤرة الاهتمام العلمى.

فمثلا ستاينمتز Steinmetz، الذى قسم نتائج سلسلة من الدراسات - التى أوقف إدوارد هاهن[1] اهتمامه عليها، بالرغم من وقوعه فى بعض الأخطاء - ووجد ضرورة تمييز ستة أو سبعة انماط للمجتمع البشرى فهناك أولا جمّاعو القوت وملتقطوه الذين يعيشون على ثمار الأشجار وجمع الحيوانات الصغيرة، التى يقابلونها فى طريقهم، دون أن يستعملوا آلات أو أسلحة ثم بعد ذلك الصيادون، وهم جماعة مختلفة تماما عن الجماعة الأولى وتشمل عدة أنماط متفاوتة بعضهم يجمع أو يلتقط القوت مع صيد ضئيل وبعض صيادون تماما بمعنى الكلمة، وثالثا من يجمع بين صيد السمك والقنص وبعض الزراعة الأولية ونوع بسيط من رعى الماشية. وبعضهم يصيد السمك. ورابعا جماعة يتكونون من الزراع المتنقلين. أو الصيادين الزراعيين، وخامسا الزراع المستقرون، ولكن من طراز بسيط، يوقفون أنفسهم أيضا على الصيد وحمل الأثقال ورعاية الماشية، وسادسا عندنا الزراع الراقيون الذين يعرفون استعمال السماد والرى والآلات الزراعية وأخيرا رعاة الضأن الذين يهيمون وراء قطعانهم.

---

(1)1865, Haustiere, Demeter und Baubo (113) Das Alter der Wirtschaftlichen Kultur der Menscheit, Heidellerg 1905.

ما فائدة كل هذه الأقسام؟ إنها أقسام تتسم بالدقة المنطقية والجفاف العلمى، مما يجعلنا نتوجس خيفة منها. فمن السهل ومن المريح أن نتصور «جامع القوت» البسيط، ولكنا نخشى أن يظن بعض الناس أن هذا الجامع للقوت هو الإنسان الأول» الذى تصوره مؤلف العقد الاجتماعى أما عن بقية الأقسام المعقدة، من صيادين، يشتغلون أيضا بصيد السمك بعض الوقت، أو الزراع الذين يصطادون فى أوقات فراغهم، أو الصيادين الذين يزرعون أيضا من حين إلى آخر، فإن التعرض لها يبدو عملا ساذجا. بل الأفضل من ذلك أن نقرر أنه لا توجد إلا حالات قليلة من الشعوب التى تشتغل بالصيد أو الزراعة أو صيد السمك، بصفها مهنًا وحيدة للشعوب المختلقة، وأن أى شعب من الشعوب لايوقف حياته كلها لمهنة واحدة أو نوع واحد من النشاط الاقتصادى، ولكن الشعوب كلها من الحصافة بحيث تمسك بأكثر من خيط واحد من حياتها الاقتصادية، وأن الأنماط الاقتصادية يقترب بعضها من البعض الآخر إذا اضطرتها الحاجة، وأنه لا فائدة من إطالة قائمة الأنماط الاقتصادية إلى ما لا حد له، لمجرد الرغبة فى التحديد والتقسيم الدقيق.

إذا تركنا جانبا قسم «جماعى القوت» المفترض، الذين يقصرون عملهم على الجمع والالتقاط، فإننا نجد أقساما جديدة ذات قيمة فى كتابات إدوارد هان[١]، إذا قسمنا حرفة الزراعة إلى ثلاثة أقسام، وقارنا بين حرفة الزراعة بالمعنى الصحيح ـ الزراعة الحديثة فى الحضارة الغربية، التى تنتج الحبوب، والتى تستعمل المحراث والماشية ـ بالزراعة البدائية (التى تستعمل العصا) فى أمريكا الجنوبية ووسط أفريقيا وجزر إندونيسيا، والزراع الدائبون فى صبر فى الحضارات الآسيوية فى الصين واليابان. فلابد من أن نشير إشارة خاصة إلى نقطتين مهمتين.

فليست هناك أولا ضرورة لكى يمر الشعب من مرحلة إلى مرحلة [٢]، فأحيانا يقفز من مرحلة إلى أخرى دون المرور بالحلقة الوسطى المفروضة، فزراع أمريكا

(١) فكرة الزراعة بمساعدة العصا، وجدت أولا فى كتابات نواشكى، قبل ظهور كتاب هاهن Haustiere.

(٢) قارن هان (١١٢) ص (٤ ـ ٧).

الوسطى، قبل عهد كولومبس أصحاب الحضارات القديمة الأصلية التى حطمها الغزاة الإسبان، لم يمروا مطلقا بمرحلة الرعى، وربما كان السبب فى ذلك هو أنه لم يكن لديهم الحيوان الضرورى للرعى. وأحيانا وجد فى نفس الشعب، وفى نفس الفترة أسلوبان مختلفان للحياة، يختلف أحدهما نظريا عن الآخر تمام الاختلاف؛ وهذا يحدث فى المجتمعات التى يكون فيها تقسيم العمل بين الرجل والمرأة [١]، وحيث يعيش الرجل على منتجات الحيوان، مما يصيده أو يقتنصه، وتعيش المرأة على الجذور والفواكه التى تجمعها، أو على الخضروات التى تزرعها من حين إلى حين آخر بشكل بدائى بل وأحيانا يبدو كما لو أن الترتيب التصاعدى بين الحالات الثلاث قد انعكس تماما.

وقد اقترح روشر أن القنص قد ظهر أولا فى مكان والرعى فى مكان آخر؛ والزراعة فى مكان ثالث حسب توفر الظروف العامة أو حسب ملاءمة المناخ، وبذلك فهو يضع أمامنا نظرية انتهاز فرصة ما تقدمه البيئة.

ثم جاء نواشكى Nowacki، من بعده، وبين أن رعى الماشية لا يمكن أن يكون إطلاقا نتيجة مباشرة لحرفة الصيد، وأن الزراعة ظلت أمدًا طويلا زراعة مؤقتة، باستعمال العصا لنبش الأرض، دون استعمال الماشية أو المحراث البسيط، وأن الزراعة الراقية التى نجدها الآن فى العالم المتمدين لم تظهر إلا فيما بعد، وكان ظهورها انتصارًا مدنيا رائعا. وأن تربية الماشية ورعايتها لم تظهر، كما تقول النظرية القديمة، بين الصيادين، بل بين الزراع البدائيين الذين كانوا يستعملون العصا، والدين يعتبرون الرواد الأوائل للزراع الراقيين، كما ظهرت بين البدو الرعاة الذين كانوا رعاة ضأن فى جهات أخرى من العالم. هذا ملخص الآراء التى اعتنقها هان[٢] والتى وضحها فى كتابه ديمتر وباوبو (١٨٩٦)، والذى اقترح فيه النظام التطورى الآتى: أولا ظهرت الزراعة البدائية التى تعتمد على العصا Hackbou ، أول أنواع الحرف على الأرض وأقدمها[٣]، والتى كان يمارسها سكان

---

(١) قارن بوشر ١٦٨، L'coienom des Primitifc.

(2) Nowacki, A. Jagd oder Ackerbau 1885.

(٣) هان ١١٢ ص٥٦٨
Die erste und urspringlichste stufe aus der alle anderu hervorgehen mussen, ist der Hackbau. .

الأكوام المرتفعة القدماء، وكانوا يحصلون منها على الدخن، الذى فاق فى صفاته الغذائية غيره من النباتات المنزرعة[1]. ثم تلا ذلك استئناس الماشية لعامل دينى أول الأمر، ثم لعوامل اقتصادية بعد ذلك. ثم ظهت بعد ذلك الرعاة والبدو، الذين يسوقون قطعانهم أمامهم فوق السهوب، ثم تلا ذلك مباشرة اختراع العجلة[2] وكانت فى أول الأمر أداة دينية وآلة مقدسة ثم استعمل الثور بعد ذلك فى جرها، ثم استعمل فى جر المحراث، وهذا هو بدء الزراعة بمعنى الكلمة، وكان انتشار هذه الحرفة الجديدة بطيئا جدا فى أول الأمر، ولكن يبدو أنها ظهرت أولا فى بابل عام ٥٠٠ ق.م، ثم ازدهرت بكل صفاتها العديدة، وبكل فروعها.

ليس هنا مكان مناقشة هذه النظرية وفحصها، ولكنا نشير إليها، لأنها تميل إلى أن تقلب النظام التعاقبى المثالى القديم رأسا على عقب، الذى كان يتصور نظاما هرميا بعضه فوق بعض. وبعضه يتلو بعضا فى ترتيب تاريخى متعاقب فينتظم أساليب الحياة الاقتصادية والاجتماعية الرئيسية المعروفة.

أما الملاحظة الثانية التى يجب أن نشير إليها، فهى: كيف يستطيع الزراع البدائيون، الذين يكتفون بنبش الأرض فى غير مهارة، بآلات بدائية، وهى العصا hoe، والذين يضعون فى تلك الحفرات التى ينشبونها ببعض الحبوب أو الجذور، دون انتقاء، والذين لا يعرفون استعمال السماد، كيف يستطيع هؤلاء أن يكونوا مجتمعات أرقى من مجتمعات صيادى السمك أو القناصين؛ ويبدو من كتابات الرحالة المكتشفين أنهم ليسوا فى الواقع أرقى من الصيادين أو القناصة. وهل الرعاة أقل تمدنا من كثير من الزراع البدائيين؛ هذا أمر مشكوك فيه. هل مجرد الاستقرار فى الأرض أرقى من البداوة؛ قد يبدو هذا صحيحا ولكن هذا الوهم سوف يتبدد سريعا أمام الحقائق. ولكن هذه الملاحظات جميعا، سطحية جدا وهذا عيبها.

---

(١) هان Haustiere (١١٢) ص٤١٠.

(٢) هان Demeter (١١٢) ص٣٠ (Der Wagen).

هل نستطيع، أو لا نستطيع، استخلاص «أساليب معينة للحياة»، من جميع كتابات المؤلفين الذين حاولوا تقسيم المجتمعات البشرية، سواء ذكروا ثلاثة أساليب أو خمسة أو سبعة؛ وهل هذه الأساليب من الوضوح بحيث يمكن أن يمتاز بعضها على البعض الآخر، امتيازا تاما؟ هذا هو السؤال الذى لم يسأله الكتّاب من قبل، بل اكتفوا بالاعتماد على كتابات هان أو غيره من الكتاب، الذين لم يثبتوا صحة ما يكتبون. ولنلاحظ بادئ ذى بدء أن هذه التقسيمات جميعا قائمة على أساس اقتصادى، وأنها قائمة على الأسلوب الذى يتبعه الناس فى نشاطهم الاقتصادى من أجل حفظ نوعهم، وأنها تهمل ما عدا ذلك من الاعتبارات.

وربما كان هذا مقبولا ومعقولا إذا عرفنا هدف المؤلف، ولكن الأمر المؤكد هو أن من يتكلم عن طراز اقتصادى لا يعنى طرازا اجتماعيا وإلا فإن معنى هذا أن كل ما يؤثر فى الإنسان وفى حياته الاجتماعية يعتمد اعتمادا تاما كاملا على طعامه ونحن لم نقاوم الفكرة الحتمية الجامدة فيما يختص بالبيئة لنقع فى حتمية اقتصادية جامدة.

إنه ليحدث أحيانا أن تختلف الجماعات البشرية بعضها عن البعض الآخر فى عاداتها وصفاتها ومثلها الأخلاقية ونظمها السياسية ولكنها من الناحية الاقتصادية تتفق فى أنها تقع تحت نظام واحد هو رعى الضأن مثلا. ونحن عندما نتحدث عن أسلوب حياة شعب من الشعوب نتحدث فى الوقت نفسه عن الآثار المترتبة التى لا ريب فيها والتى تتبع هذا الأسلوب الاقتصادى الذى يتبعونه فإما أن فكرة أسلوب الحياة لا معنى لها، أو أنها تأخذ فى الاعتبار عادات هذا الشعب، ولكن الناس منذ عهد قديم يقعون تحت تأثير التقاليد المتوارثة، وهذه بدورها تؤثر - إلى حد ما - فى أسلوب تفكيرهم وفى طريقة معالجتهم للأمور العامة وطريقة تغلبهم عليها، والحق أنه ليس الاختلاف فى وسيلة حصولهم على الطعام هو الذى يميز الجماعات البشرية بعضها عن البعض الآخر، ولكن ذلك التنوع الكبير فى عاداتهم وأذواقهم هو الذى يدفع بعض الجماعات للبحث عن طباعها بأسلوب معين، ويدفع البعض الآخر للبحث عن طعامها بأسلوب آخر. وليس الصيد فى مكان أو الزراعة فى مكان آخر هو الذى يجب أن يكون نقطة

البدء فى تقسيم الجماعات البشرية المختلفة، ولكن مجموع العادات والميول والأذواق التقليدية والمعتقدات هى التى توجد الفرق بين الصيادين الأقزام والفلاحين الزنوج، ويمنع اختلاطهم بالرغم من أنهم يعيشون جنبا إلى جنب؛ ويتصل بعضهم بالبعض الآخر. بمعنى آخر يجب أن نضع الإنسان فى هذه الحالة أيضا فى مكانته اللائقة به. وإلا فما معنى أن نعلق فكرة أسلوب الحياة. على أنها تقدم كبير فى طريقة البحث، إذا كنا فى نفس الوقت نرجع إلى وهم الحتم والقدر، ذلك الوهم الذى حاولنا جهدنا لكى نبدده من الأذهان، لأنه يقوم على استنتاجات غير صحيحة ومضللة، ولأن أصحابه يفتقدون المقدرة الناقدة التى تزن الأمور وزنا صحيحا.

وربما اختار الجغرافيون أن يتبعوا التقسيم الاقتصادى للجماعات البشرية، وربما تحدثوا عن الصيادين وصيادى السمك والزراع البدائيين والبدو الرعاة، ولهم الحق فى ذلك. ولكن عليهم أن يفهموا أن هذه الأقسام ليست لها، وما ينبغى أن يكون لها، معان ضيقة حتمية كما يراها الاقتصاديون، ويجب ألا يسمحوا لأنفسهم بأن يساقوا وراء حتمية قدرية وبفكرة ثابتة عن اعتبار المورد الغذائى هو العامل الأساسى فى الحياة البشرية، مثله مثل المناخ أو التربة فللاقتصاديين ميدانهم الاقتصادى، أما الجغرافيون فعليهم أن يدرسوا الظروف البشرية ويضعوها فى المحل الأول من الاعتبار. وعلى هدى هذه الملاحظات علينا أن نتابع دراسة أنواع المجتمعات البشرية المختلفة.

وبأى ترتيب سنتحدث عنها؟ إننا إذا بدأنا بالصيادين ثم أتبعناهم بصيادى السمك، فليس معنى هذا مطلقا أننا نتابع أحد أوجه الخلاف فى مسألة أصول أساليب الحياة المختلفة بل لو أننا اشتركنا فى هذا الجدل، لرفضنا من بادئ الأمر النظرية القديمة التى لم يعد يتبعها أحد. أما السبب الذى جعلنا نبدأ بالصيادين فيرجع إلى أنهم فى الواقع الحالى، والتاريخ البشرى، لم يلعبوا الأدوار أقل بكثير من الدور الذى لعبه الرعاة أو الزراع.

- ٣ -

صيادو البر

سنترك جانبا «جمّاعى القوت» هؤلاء الذين يكتفون بمجرد جمع الثمار والجذور، والقواقع والحشرات والديدان، والذين لايستعملون أى سلاح يصطادون أو يقتنصون به، والذين جرت العادة على وضعهم فى أدنى درك فى سلم الارتقاء البشرى. وليس من المهم أن نناقش ما إذا كان وجودهم على هذه الحالة البسيطة، مسألة فرضية أو غير فرضية، ولنبدأ استعراضنا لأساليب الحياة المختلفة، بدراسة أساليب الصيادين وصيادى السمك، الذين اعتبروا فترة طويلة من الزمن، أبسط المجتمعات البشرية وأكثرها بدائية.

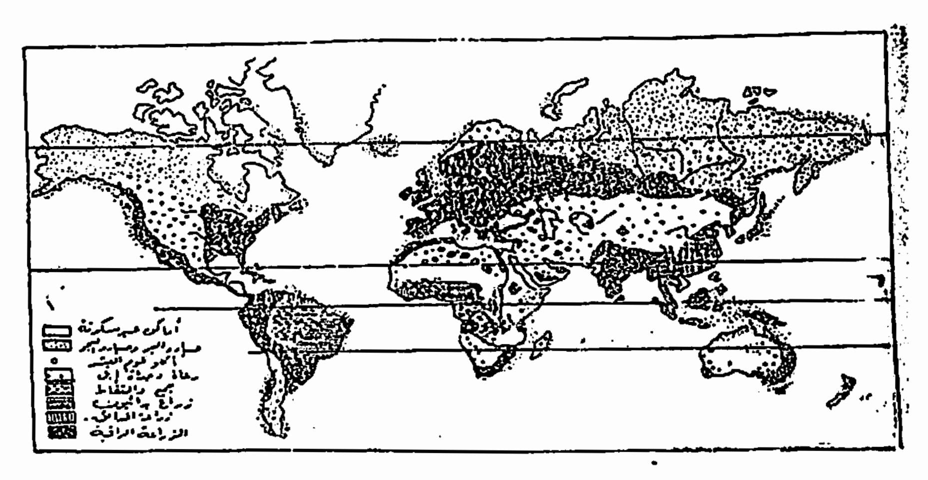
إذا ذكر الصيادون، ذكر أول نشاط بشرى، يرجع إلى أقدم العصور البشرية أى إلى العصر الحجرى، وذكرت صورة هؤلاء الصيادين الذين رسمهم[١] ديشليت فى كتابه، الذين كانوا يقيمون أكواخهم التى لا أثر لها الآن من فروع الأشجار، قرب مجارى المياه، والذين كانوا يطاردون الحيوانات بأسلحة من الصوان أو العصى الغليظة، والذين كانوا ينصبون الفخاخ لها، أو يحفرون الحفر للإيقاع بها[٢] ، أما الطيور فكانوا يصيدونها بالأحجار التى يقذفونها بها وبالأيدى أو بالمقلاع أو بالسهام فيما بعد، عندما صنعوا رؤوس رماح لها من الحجر، كانت تثبت فى

---

(١) ديشليت «١٧٠» مجلد ١، ص٦٢.

(٢) نفس المرجع ص ٧٧ . حيث يذكر ديشليت صيادى العصر الشيلى، ويقول دى مورجان إن هذا الشرح ليس له ما يبرره لأننا لم نعرف الكثير عن حياة سكان الكهوف فى العصر الحجرى إلا منذ العصر الموستيرى، عندما كان الناس يشتغلون بصيد الحيوان وصيد السمك (دى مورجان - إنسان ما قبل التاريخ ص١٧٠).

عصى خشبية قصيرة. وقد ظل استعمالها حتى العصر الحجرى الحديث فى غرب أوربا أمدا طويلا، ثم بالتدريج حلت محلها الرماح المصنوعة رؤوسها من صوان مشظى[1] له سن مدببة.



شكل رقم (٦) توزيع أساليب الحياة المختلفة (عن هاهن) فردريك

Die Haustieje 1908 Allgemeine Wirtschafts giographie 1904.2.

هذه الأسلحة كانت بدائية، ولم يكن أثرها فعالا، ولكنها تدل بالرغم من هذا على تقدم ملحوظ، إذا لاحظنا أن القوس والسهم ظلا مستعملين حتى العصر الحالى عند الأستراليين الأصليين وسكان نيوزيلندة وسكان المحيط الهادئ الأصليين وكان الغرض منها مجرد إحداث جراح فى الحيوان وليس قتله فى الحال، وربما كان الإنسان قد تعلم غمس نصال السهام فى مادة سامة، مستخرجة من نبات سام[2]، فكان مجرد إحداث جراح بالحيوان كفيلاً بقتله. ولكننا لا ندهش بضآلة شأن تلك الأسلحة وعدم جدواها، إذا عرفنا أن الإنسان فى العصر الحجرى كان يتجول فى جماعات صغيرة، تهيم على وجهها فى الأرض الواسعة، أو على ضفاف الأنهار الكبرى، حيث البيئة غنية بأنواع مختلفة من الأشجار والنباتات، وأنه كان جمَّاعًا للثمار والجذور، وكانت الثمار النباتية

---

(١) من أنواع السهام ورؤوسها، انظر دى مورجان شكل ٤١ (١٧٥ ص٩٧).

(٢) دى مورجان، ص١٧٠.

تكفى حاجته، ولم يكن فى مسيس الحاجة لحيوان الصيد، فكان يكفيه أن يطاردها عنه، ويصد عن نفسه أذاها بمجرد إخافتها بسهام تجرحها.

ولكن دعنا من هذه التخمينات التى تبعدنا عن صميم موضوعنا. فقد كان الصيد فى الحاضر الذى نشهده وفى الماضى الذى يصوره لنا التاريخ أحدى الوسائل التى يلجأ إليها بعض جماعات البشر للحصول على القوت، كما أنها للبعض الآخر الوسيلة الوحيدة للحصول على هذا الرزق.

وقد وقع الباحثون فى الخطأ لأنهم لم يفرقوا بين الصيد كحرفة أصلية وبينه كحرفة مساعدة للجماعات البشرية المختلفة، ولذلك كانت تعميماتهم خاطئة. فالصيادون الذين لا يعملون شيئًا غير صيد الحيوان، قليلون. وهم جميعا يشبهون الأقزام فى صفاتهم الأساسية المميزة، هؤلاء الذين لايزيد طولهم على ١٥٠ سم، ولهم شعر صوفى ومناكب عريضة وأذرع وسيقان قصيرة، والذين لا يعرفون الزراعة أو تربية الماشية إطلاقا ولكنهم يعيشون بالصيد أو جمع الثمار والتقاطها[١]. وهم يكونون ثلاث مجموعات، واحدة فى وسط أفريقيا، وأخرى فى آسيا الاستوائية، والثالثة تشمل بوشمن جنوب أفريقيا. وجميعها تمتاز بميزات عامة مشتركة فيما بينها جماعات تهيم على وجوهها فى جماعات صغيرة؛ وهى تعرف استعمال النار، التى يولّدونها بأبسط الوسائل، أى بالاحتكاك؛ ويسكنون فى مساكن بدائية، مجرد مأوى تحت الصخور أو فى الكهوف أو مأوى يلجأون فيه للاحتماء من الرياح؛ والكوخ إما مستدير الشكل أو على هيئة نصف دائرة، يضم أسرة واحدة. وهم يعرفون القوس والسهام، المصنوعة من العصى المدببة أو من العظام المدببة بشكل بدائى قديم. ومجمل القول إنهم يكونون وحدة قائمة بذاتها تمتاز تماما عن غيرها من الجماعات البشرية.

وهناك أقزام آخرون، مثل البابنجا الذين يعيشون فى إقليم السانجا والذين يختلفون اختلافًا كبيرا عن غيرهم من الجماعات التى يلجأون إلى حمايتها،

---

(١) عن عاداتهم انظر:
Die stelling der Pygmaenvolker in der Euturicklungs geschichte des Meuchen Stuttgait, 1910.

فمعسكراتهم تتحرك باستمرار وراء ضرورات الصيد؛ وهى تتراوح بين نوعين؛ بين المسكن المستقر فى القرية التى تمدهم بالمانيوق والموز والذرة وبين مساكن المستنقعات وأقاليم الغابات الكثيفة التى يلجأ إليها أهم حيوان صيد لديهم وهو الفيل[١] وليست لديهم قرى بمعنى الكلمة، ولكن مجموعة أمواخ منخفضة السقف مصنوعة من فروع الأشجار على هيئة أشكال السلال، تغطيها أوراق، وإلى جانب كل منها موقد صغير لشى اللحم [٢] . وليست لديهم محاصيل، أو قطعان ماشية ولايقتنون الماعز أو الدواجن ولا يعيشون إلا على لحم الصيد أو الخضروات القليلة التى يجمعونها من بين الأحراج ويعتبر البام أهم غذاء لديهم، كما أن المانيوق أهم غذاء لجيرانهم وهم مغرمون جدا بالعسل البرى. ويتسلقون الأشجار بخفة مهما كانت مرتفعة ولكنهم لايصطادون السمك بالرغم من أن النساء ترتاد الحفر من حين إلى آخر وتجمع الماء فى سلال وتقذف بها خارج الحفر حتى يحصلن فى النهاية على صغار السمك. هذه إذن حياة الأقزام الذين يختفون عن الأنظار بمجرد رؤية الرجل الأبيض ويتسللون إلى الأحراج حيث يختبئون فى خوف شديد ولذلك كان من الصعب الاتصال بهم[٣] ويدعونهم جيرانهم باحتقار شديد «حيوان الأحراج» ومن الغريب أن هناك اتفاقا تاما فى الشئون الداخلية بين هؤلاء الصيادين وبين جيرانهم المستقرين الأقوياء. فالبابنجا يسهمون بحيوان الصيد. فى مقابل المانيوق والذرة والموز. بل إن كل صناعة مستقرة بين الزنوج لها اتباعها من الصيادين. الذين يغيرون أسيادهم وينتقلون من قبيلة إلى أخرى تضفى عليهم حمايتها. وهناك نجد نوعا طريفا من التعاون البشرى بين الصيادين والزراع. كل منهم يسهم فيما يحتاجه المجتمع المشترك. ولكن كلاً منهم يتمسك بحرفته. ولا يجمع بين الاثنتين إطلاقا[٤].

---

(١) كل هذه المعلومات مستقاة من دراسة دكتور ريجنولت فى «١٦» مجلد ٢٢، ص ٢٦٠.

(٢) كورو «١٧٩» ص٢٦٤.

(٣) عن عقلية الصيادين انظر كورو ص١٨٥ أعلاه؛ وكذلك ص٢٥٥.

(٤) هذا موجود فيما كتبه دكتور بوتران فى «١٦» ١٩١٠، مجلد ٢٢، ص ٤٢١ وما بعدها ونصوصها ص ٤٥٤. كذلك فى برويل افريقيا الاستوائية الأفريقية ١٩١٨، ص١٩٩.

هذه الصفات المميزة للبابنجا تظهر فى شعوب مماثلة لها، هى كل الجماعات القزمية[1] فى وسط افريقيا.

كما تظهر أيضا بين البشمن فى جنوب افريقيا وهم أيضا «قصار القامة» وهؤلاء تدور حياتهم كلها حول الصيد ويستعملون القوس والسهام، ويصنعون سيور الأقواس من جلد الحيوانات، كما يصنعون منه أيضا آلات موسيقية يقلدون بها أصوات الحيوانات التي يصطادونها - إذ إن حياتهم كلها تدور كما قلنا حول الصيد[2] - ولايحترفون حرفة سواها، وإذا لم يوفقوا فى صيد الحيوانات المتوحشة، فإنهم يلجأون إلى مجرد جمع الجذور والتقاط الفئران والحشرات وبيض الثعابين.

ولا يسكنون فى أكواخ، بل مجرد مظلات من فروع الأشجار وليس لهم أى نظام سياس ولكنهم يهيمون جماعات أو عصابات على وجوههم وليس لهم زعماء أو طبقة محاربون، ولا يعرفون المحاصيل الزراعية المنتظمة ولا الحيوانات المستأنسة ولكنهم فى غاية الصبر وقوة الاحتمال فهم يرقدون ساعات متوالية، بل أياما متتالية إلى أن يمر بهم الحيوان الذى اجتمعوا لصيده؛ كما أنهم على جانب كبير من المهارة فى الزحف نحو الحيوانات المقتربة نحوهم، دون أن يثيروها أو يزعجوها.

إلا أنه ليس لديهم أى فكرة عن الاقتصاد، بل إنهم ليأتون على كل شىء فى طريقهم دون أى اعتبار وهذه صفة يشترك فيها كل البدائيين الذين يعتبرهم بعض الباحثين سلالة أجدادنا القدماء الذين كانوا يعيشون فى الزمن الرابع[3] وإلا فكيف ظلت تلك الحضارة العتيقة باقية حتى الوقت الحاضر.

وبقى سؤال واحد يحتاج إلى إجابة، كيف نفسر وجود الصيد كحرفة وحيدة، تستأثر باهتمام جماعة معينة من البشر، هى التى تشتغل بالصيد وحده؟

(١) قارن ما كتبه هوتيرو عن الباتوا. الصيادين الأقزام فى الكونغو البلجيكية «١٦» ١٩١٠، ص٢٢١.

(٢) «١٦» ١٩١٧: مجلد ٢٨، ص٦٠٢.

(٣) نظرية شميدت فى المرجع السابق وقارن أيضا «١٦» ١٩١٨ - ١٩١٩ مجلد ٢٩ ص١٢١.

يجيب عن هذا السؤال الدكتور ديكورس، الذى قام بدراسة مهمة للصيد والزراعة بين سكان السودان[1]. فهو يرسم كل العقبات التى لاحصر لها فى طريق الصياد، وكده الكبير فى سبيل الصيد، وبحثه المضنى عن الحيوان، واقتفاء أثره بين الأحراج، والرحلات الطويلة التى يكرها عائداً إلى طريقه الأصلى. وساعاته الحرجة التى يوجد فيها وجها لوجه أمام حيوان جريح. وما يتعرض له من أخطار[2].

كما أنه يبين كيف أن الزنجى يفضل أن يبحث عن طعامه بشكل آخر وهو الركون إلى الزراعة البدائية وصيد السمك أحيانا وجمع القواقع البحرية من الأنهار أحيانا. «ولايلجأ الزنجى إلى الصيد إلا تحت الضرورة القصوى وإذا إصطاد فإنما لكى يفى بحاجة طعامه فقط» ويقول فى مكان آخر: «ليس الصيادون سوى جماعات بشرية فقيرة. لم تغدق عليها الطبيعة كما أغدقت على الآخرين»[3] وهؤلاء الصيادون. أو الذين يصطادون أكثر من غيرهم هم الذين يسكنون بقعا من الغابة من العسير عليهم فيها أن ينظفوها من النبات والأشجار الطبيعية ليعدوها للزراعة. ويقول مرة أخرى: «إن حرفة الصيد ليست خاصة بأحد دون آخر. ولكنها ظروف الحياة القاسية. التى تدفع ببعض الناس إلى احترافها كمهنتهم الأساسية». وتتكرر نفس النظرية فيما يختص بشعوب أخرى عند بعض الكتّاب.

ولكن هل تنطبق هذه النظرية فيما يختص بالأقزام. الذين يعتبرون صيادين بمعنى الكلمة؟ إذ لا يبدو أنهم يضطرون إلى الصيد بحكم الحاجة الماسة. فليس الصيد بالنسبة لهم مهنة المضطر أو اليائس. بعد أن استنفدت كل المهن التى يمكن أن يشتغلوا بها. فلم يكن البابنجا وبنو جلدتهم من أقزام وسط أفريقيا رعاة أو زراعا اضطروا تحت ضغط محن ألمت بهم إلى ترك تلك المهن الأصلية إلى ما

---

(١) ديكورس؛ ١٩ «١٨٠» ص٤٥٧.

(٢) أحيانا يغمس النصل فى سم؛ قارن البشمن «١٦» ١٩٧، مجلد ٢٨ ص ٦٠٣.

(٣) برويل؛ نفس المرجع، ص٢٣٤.

هو أدنى أى الصيد. وإلا هلكوا جوعا. إذ إننا يجب أن نفرق ـ كما قلنا من قبل ـ بين الصيادين الأصليين. وبين غيرهم من الصيادين الذين يلمون بهذه الحرفة من حين لآخر. فهؤلاء الأخيرون قد يكونون زراعا بدائيين مثل زنوج السودان. الذين تنطبق عليهم نظرية ديكورس. إلا أن غيره من الباحثين كتب فيما يختص بأفريقيا الاستوائية الفرنسية ما يلقى بعض الضوء على حرفة الصيد. إذ قال إن الزنوج هناك يلجأون إلى الصيد فى مواسم خاصة[١]. أى أن الفلاح الزنجى يلجأ إليها فى غضون الفصل الجاف عندما يتركون قراهم وينتشرون فى منطقة نفوذهم الخاصة التى يمارسون فيها حقوق الصيد طبقا لقوانين عرفية خاصة. وحيث يحتطبون أيضا وهذا مصدر رزق كبير لهم[٢].

هؤلاء الذين يصطادون من حين إلى آخر. وقد يكونون رعاة بدوًا، لا يستطيعون كبح ميلهم إلى الصيد، كلما سنحت لهم الفرصة. وهم يرعون قطعانهم ـ ولكن هؤلاء الزراع البدائيين أو الرعاة الذين يلمون بالصيد إلماما. من حين إلى آخر لا يعتبرون صيادين بمعنى الكلمة ولا يمكن مقارنتهم بالبابنجا الذين يقولون عمن لا يتقن الصيد ـ حسب ريجنولت ـ «إنه ليس بابنجيا صحيحا».

والصيادون الحقيقيون قليلون فى العدد وليس لهم أهمية فى العالم. لا من الناحية المادية أو الناحية الأخلاقية. ويتكونون من عدة قبائل أقزام قليلة. موزعة هنا وهناك كما قلنا وسط أفريقيا وفى آسيا الاستوائية وفى بعض جزر الشوندا. ونستطيع أن نضيف إليهم بعض سكان جزر الأنتيل الذين قصروا هممهم على صيد الثيران والخنازير البرية. التى يسلخون جلودها ويجففون لحومها.

وهذه شبيهة بعضها بالبعض الآخر ، ولم تتطور أساليب حياتهم مطلقا. إذ إننا لانجد رعاة قد ظهروا من بينهم. بينما يظهر بين الرعاة زراع وصيادون.

وليس معنى هذا أن الصيد حرفة أدنى من غيرها. لا يلجأ إليها إلا أدنى درجات البشر، حقا إن حياة الصيادين لا تربطهم مطلقا. أى أن من أهم مميزاتهم

---

(١) نفس المرجع، ص٢٣٥.

(٢) نفس المرجع، الفصل الرابع، ص٣٢٥.

أنهم دائما على ظعن. وأن جماعاتهم الصغيرة العدد لا يكاد يقر لها قرار. وأنهم يجهلون الفخار. وهم فى هذا يشتركون مع غيرهم من البدو مثل الأستراليين وأهل جزر فيجى. وبعض الإسكيمو والمغول. وكلها لا تستطيع حمل الفخار معها، لأنه هش سريع التكسر ولايصلح للرحيل باستمرار. ولكن ليس هذا دليلاً قاطعًا على انحطاطهم الحضارى، إذ إن أدوات المغول وأطباقهم مصنوعة من الحديد أو الخشب أو الجلد، وهى على جانب كبير من الدقة الفنية، كما أن البلولونزيين، الذين لا يصنعون تلك الأدوات أرقى بكثير من الميلانيزيين. كما أنه من الإسراف أن نقول إن الصيادين لا يعرفون أى نظام سياسى. لأن أساس حياتهم نفسه، وهو الصيد يتضمن وجود جماعة متضامنة منظمة. ويستدعى وجود التعاون بين الصيادين.

كما أن الصيد، ويتضمن البحث عن الحيوان. واقتفاء أثره. ومحاصرته. لا يمكن أن يقوم به رجل واحد. عندما يكون الصيد كبيرًا قويا. ولا يمكن القيام به إلا جماعة. ويتضمن القيام بطقوس خاصة ومعينة، ففى منطقة أوجوجو[1] يستعدون لصيد الفيل بشراء تعويذة خاصة. وبالقيام بشعائر معينة. منها رمى رمح له رأس عريض مدبب، مربوط به طلسم مصنوع من جلد الثعبان ليحميه. ويقضون أسبوعا كاملا فى الرقص والشراب وقرع الطبول. وتضرب النساء المعولات قطعًا من الخشب الأجوف بالحجارة بينما يقلد الرجال فى رقصهم حركات الفيل. وبعد عدة حفلات أخرى تلعب فيها الخمر بالرؤوس. يخرج الرجال للصيد. وتلتزم النساء حياة الطهارة الكاملة أثناء غياب أزواجهن فى الصيد. إذ إن نجاح الصيد فى اعتقادهم - يتوقف على سلوك النساء القويم . ثم يختار أحد الفيلة ويرميه الزعيم (المجانجا) أول رمح. وتتبعه رماح بقية الجماعة. ويبدأون بانتزاع أنياب الفيل. واستخراج ما بداخله والتهامه. ويأكلون المواد الدهنية التى تحيط بأسنانه. ثم تعود الجماعة بالعاج والجلد واللحم[2].

---

(١) برتون «١٧٧»، ص(٦٠٧ ـ ٦٠٩).

(٢) ارجع إلى كورو «١٧١» ص٣٦٠ ومنيود «١٨٨» مجلد ١ ص١٨٥ وعن البشمن «١٦» ١٩١٧ مجلد ٢٨ ص٦٠٢.

مثل هذا المجتمع لا يمتاز ـ بطبيعته ـ بالاستقرار. إذ يجب أن تنقسم الجماعة إلى أقسام صغيرة. كلما ازداد عددها. أو قل الصيد. حتى تستطيع أن تقيم أود أفرادها. ولكن الصيد كما رأينا. مهنة من المهن. وتميل إلى الارتقاء. بتضامن الجهود التى تتطلبها[1].

وتترك ظروف حياة الصيد آثارها على عادات الصيادين وأخلاقهم. فهناك صفات خاصة بهم فيما يتعلق بفكرة الملكية. إذ إن الأرض نفسها لا تهمهم. بل تهمهم حقوق الصيد. ولذلك كان من الخطأ أن نتحدث عن منطقة الكومانش أو الجوتكين أو الأستراليين الأصليين أو البشمن أو البتشوانا[2] ، إنما الأصلح أن نتحدث عن منطقة تجوالهم وأما عن أخلاقهم الأخرى، فإن الباحثين يقولون إنهم «حفاه لا يمكن التفاهم معهم» وأن «هذا يرجع إلى ما يضطرهم إليه أسلوب الصيد من صمت مطلق ووحشة تامة تعودوا عليها»[3].

وأكثر من هذا يرجع إلى الخوف وعدم الطمأنينة التى تلف الغابة والأحراج الكثيفة. وليست الحياة هناك إلا حربًا عنيفة على الأعصاب الدائمة التوتر، إذ ليس أمام الصياد إلا غابات موحشة غامضة، وليس أمامه أى أفق، بل الظلمة الظلماء ، وأحد الأبصار تخدعها الخيالات، ولهذا يضطر الصياد ـ وهو إنسان ولد لكى يعتمد على بصره وإلى والاعتماد على حاسة السمع، ولذلك كان أقل حظا من الحيوانات التى تعتمد أكثر على حاسة السمع، ولذلك كان دائما فى حذر، متخذا أهبة الدفاع، بعين حادة، وأذن مرهفة[4]، وربما كان هذا صحيحا وهذه مسألة ليست ذات أهمية فى الواقع. وسواء كانوا كذلك لأنهم صيادون أم لأنهم سكان غابات. أو أنهم سكان غابات لأنهم صيادون أو العكس ـ فإنه مما لا شك فيه أنهم كصيادين يكونون جماعة بشرية ذات أسلوب خاص فى الحياة.

---

(١) بوشر «١٦٨».

(٢) سمبل «١٥» الفصل الثالث.

(٣) ديكورس «١٨» ص ٤٦٧ .

(٤) انظر أيضا كورو (١٧١) صفحات ٢٨ وما بعدها و٢٤ وما بعدها.

- ٤ -

صيادو البحر

صيادو السمك أكثر استقرارًا على الأرض من صيادى البر. وقد ظلوا كذلك منذ أقدم الأزمنة منذ عهد أصحاب حضارة فضلات المطبخ الدنماركيين. ومنذ عهد هؤلاء الذين تركوا أكوامًا من الأصداف، وعظام الحيوان والطير فى خليج سان فرانسسكو[١]. وأكوام الأصداف البحرية المتناثرة فى سواحل المحيط الاطلسى والأرجنتين (البارديرو) والبرازيل (السمباكى). وتدل هذه الأكوام الضخمة من بقايا القواقع البحرية. والأصداف والأسماك . على أن جماعات عديدة البشر كانت تعيش على شواطئ البحار والمحيطات وتعتمد فى رزقها على مواد البحر الغنية المتعددة[٢] وأكثر من هذا، فقد أظهرت الكشوف الأثرية وسائل صيد السمك التى كانت تستعمل فى عصور ما قبل التاريخ. وهى أيضا توضح طرازًا من الحضارة لم يختف تماما فى الوقت الحاضر. بل يمكن العثور عليه ممثلا فى جماعات البحر المتأخرة فى الوقت الحاضر. مثل الأوبانجى على سواحل بحيرة تنجا نيقا. وقد ترك لنا برتون وصفها[٣].

ويبدو أن صيد البحر أقل انتشارًا كحرفة رئيسية وحيدة. من صيد البر. كما أنها تتضمن بلا شك طرقا خاصة معقدة. تحتاج إلى خبرة. وتتطلب أيضا مجهودًا جماعيا وتتطلب تعاون رجال ينتمون إلى نفس المجموعة أ القرية. ففى

(١) عن أكوام بقايا الأسماك انظر (١٨) ١٩١٠ ص٢١٦.

(٢) عن صيد السمك عامة انظر مورجان (١٧٥) ص١٦٣.

(٣) برتون (١٢٧) صفحات ٤١٣ ـ ٤١٤.

أفريقيا الاستوائية يشترك جميع أفراد القبيلة فى صيد السمك، فى جماعات. كبيرة ليس فقط من أجل البحث عن الرزق، إنما أيضا للرياضة والمتعة[١].

ويتطلب الجهد الكبير الذى يجب بذله فى صيد السمك إلى تضافر جهود الجماعة . ومن ذلك إقامة حواجز عرضية فى مجارى الأنهار. لكى تجبر السمك على القفز فوقها من فتحات خاصة تنتهى إلى الشباك المنصوبة وراء الحواجز. كما أن النساء تشترك فى إقامة السدود فى مجارى الأنهار الضيقة حيث يرتفع الماء أمامها فى شبه خزان صغير يبدأن فى تفريغه بأوان خاصة. ويصطدن بعد ذلك المتجمع فى قاع المجرى. ويتجمع الصيادون فى أعالى النيجر على ضوء المشاعل فى ليالى مارس وأبريل ومايو عندما تتوجه جماعات المالنكا إلى قاع النهر يحملون مشاعل القش فى أيديهم ويحملون الشباك المصنوعة من الخيوط النباتية. يصطادون بها السمك الذى يجذبه ضوء النيران[٢] . كما أن هؤلاء المالنكا وغيرهم من سكان ضفاف أعالى النيجر قرب اتصاله بنهر السانغا، يقومون جماعات بتسميم مياه النهر بأوراق نباتية خاصة، فيخدرون الأسماك، وتصبح فرائس سهلة الصيد[٣].

وعلى الرغم من وجود صفات عديدة مشتركة بين صيادى البر وصيادى البحر، فإنه توجد لكل منهما صفاتهم الخاصة بهم، إذ إن من السهل أن تقترن حرفة صيد السمك بأى حرفة أخرى ولاسيما بحرفة صيد البر.

ومن أمثله الذين يجمعون بين صيد الحيوان وصيد البحر، أقزام جزر الأندمان. وهم ينتشرون انتشارًا واسعًا على السواحل (لأنهم لا يستطيعون التجمع فى أماكن معينة تجمعًا كثيفًا، لأن ذلك يقضى على حرفة الصيد وصيد البحر) ويتكونون من جماعات صغيرة ،عدد كل منها يتراوح بين عشرين وخمسين شخصًا. وربما يصل إلى مائة شخص، ولذلك تعتبر كل منها مجرد أسرة واحدة

---

(١) كورو (٢٧٩) ص ٢١٣ وبرويل دكر من قبل، ص ٢٢٧ وما بعدها... إلخ.

(٢) منيود (١٨٨) مجلد ١، ص٢٤٣.

(٣) شيفالييه (١٧٨) ص١٧.

كبيرة، ولكنهم على أية حال قد بدأوا فى تكوين مجتمعات أكبر من طراز العشيرة، التى تستطيع أن تستغل الغابات وصيد البحر.

وفى كثير من الحالات تتوالى حرفة الصيد وحرفة صيد البحر طبقا لتوالى الفصول المختلفة التى تنظم هاتين الحرفتين. ويعتبر الصيد فى أمريكا حرفة الشتاء، بينما صيد البحر حرفة الربيع أو الصيف. ويصطاد الهنود الزالتا Zaleta فى كولومبيا البريطانية فى فصل الشتاء، فى جماعات صغيرة، كل منها تتكون من أسرتين، وتستخدم السهام والرماح والمقلاع، وفى الصيف، تتجمع القرية كلها فى صيد البحر[١].

وفى شبه جزيرة الاسكا، حول قلعة أجبرت، كان السكان الأصليون قبل وصول الرجل الأبيض، يحيون حياة بدوية فى خيام مصنوعة من الجلد كما كانوا يلبسون ملابس مصنوعة من الجلد، وكانوا يوقفون نشاطهم فى الشتاء على صيد الكاريبو أو الدب، التى كانوا يضطرونها إلى الالتجاء فى محابس خاصة أو يصطادونها بالرماح، أما فى الربيع فكانوا يصطادون سمك السلامون، حيث يحملونه مجففًا إلى بيوتهم[٢]. وفى حالات أخرى لا يقوم هذا التقسيم على اختلاف الفصول، بل يقوم على اختلاف تقسيم العمل بين الجنسين. فعند الإسكيمو فى شمال لبرادور، يصطاد الرجال سبع البحر والوالرس Wolurs، بينما تترك حرفة صيد السمك للنساء[٣]، وهذا التقسيم شائع أيضا فى بعض أنحاء أفريقيا.

ومن الأمور الطريفة أيضا، دراسة الشعوب التى تجمع بين الزراعة وصيد السمك. وهذا أمر بلغ من الشيوع درجة نستطيع معها أن نقول إنه لا يقصر نفسه على صيد السمك إلا الشعب الذى لا يستطيع الزراعة إطلاقا لتعذر ذلك من الناحية المناخية، أو الذين لا يحتاجون لها أو بعبارة أخرى حيث لا تكون الزراعة ضرورية وتنتمى للطائفة الأخيرة، تلك الأقاليم المحظوظة التى قد

---

(١) (١٦) ١٩١٣ مجلد ٢٤ ص١٠٨.
(٢) (١٦) ١٩٠١ مجلد ٢٢ ص ٩٨.
(٣) (١٦) ١٩١١ مجلد ٢٢ ص٧٢.

أغدقت عليها الطبيعة بخيراتها النباتية، وقد وصف كوك حياة سكان تاهيتى سنة ١٧٦٩، وقال إنهم يتبادلون أنواعًا مختلفة من الغذاء، دون أى عمل أو زراعة.

ولكنهم إلى جانب ذلك يشتغلون بصيد السمك والقواقع البحرية والأحياء البحرية المتوفرة فى البحار التى تحيط بجزيرتهم، وتتكون اللحوم التى يأكلونها من لحم الخنزير والكلب والدواجن، التى تتكاثر فى جزيرتهم دون بذل أى عناية. وأما غذاؤهم النباتى فيتكون من فاكهة الخبز وجوز الهند والموز، وفى حالات الضرورة يأكلون فاكهة تمتد بين الأحراج اسمها النونو وأوراق نباتات المستنقعات وجذورها وغيره من الجذور[١]. وهذه النباتات جميعا تنمو طبيعيا وهى كافية لغذاء جميع الحيوانات المستأنسة ـ بما فيها الكلب الذى كان نباتيا فى تاهيتى. ولم يكن من الضرورى إذن أن تقوم زراعة منظمة، إذ يكفى أن يغرس كل شخص فى حياته عشر أشجار من أشجار فاكهة الخبز، وهذا لا يحتاج منه سوى عمل ساعة واحدة.

فى هذا الحالة كانت الوفرة هى التى جعلت الإنسان يقتصر فى عمله على صيد السمك. أما فى الأجزاء دون القطبية فإن السكان اقتصروا على صيد السمك لأن المناخ لا يسمح بالزراعة، ولذلك اضطر السكان جميعا إلى القيام بحرفة واحدة هى صيد البحر ولكن هذه حالات قليلة شاذة. حيث إن السمك لا يمثل إلا جزءًا من غذائهم[٢]، سواء كان هذا الجزء كبيرًا أم صغيرًا، والواقع أنه كثيرًا ما نجد القبائل البدائية تجمع بين أكثر من حرفة، كما نجد تقسيمًا للعمل بين الجنسين. الرجل يقوم بصيد السمك، أو صيد البر، والمرأة تقوم بجمع الجذور أو الثمار أو تعنى بالزراعة البدائية. وهذا التقسيم طبيعى جدًا لدرجة أننا لانزال نجده فى كثير من السواحل التى تقطنها جماعات متمدينة، مثل

---

(١) كوك (٢٠٥) ٢، ص(٤٤٥ ، ٤٦٥) وقارن أيضا أعلاه.

(٢) مثلا يعتبر النبات غذاء أساسيا بالبيئة الجزرية كارولين: من جزر ميلانيزيا، قارن (١٦) مجلد ٢٩ (١٩١٨ ، ١٩) ص٤٩٥.

ساحل بريطانيا كما قلنا، وهكذا تجمع كثير من الجماعات بين صيد السمك وبين الزراعة. أو ينتقل صيادو السمك إلى زراع، فى أى مرحلة من مراحل تطورهم[١].

أما النكوص من الزراعة إلى صيد السمك، فهو قليل الحدوث ويبدو أنه غير طبيعى، ولاسيما إذا تذكرنا أن الشعوب الزراعية أو البرية عموما لا تميل كثيراً إلى السمك. وقد لاحظ القدماء[٢] ـ كما يقول هومر ـ أن السمك لايظهر على موائد المهذبين أو الموسرين، ولاريب أن الناس الذين كان يعيش هومر بينهم كانوا يعرفون كل شىء عن السمك ـ مثل السنارة والشباك والرماح. ولكن أبطال هومر كانوا يضطرون إلى أكل السمك إذا لم يجدوا ما يأكلونه سواه. فرفاق أوليسوس عندما تعطلوا فى جزيرة هيليوس وعندما لجمينلاوس إلى فاروس، اضطروا إلى أكل السمك خشية أن يموتوا جوعا، وكان السمك كغذاء أقل شأنا من غيره من الأطعمة ولاسيما بالنسبه لأنصاف الرعاة مثل الإغريق القدماء، كما كان غذاء الشعوب الفقيرة التى لا ماشية لها[٣]. ومن الغريب أننا نجد نفس هذا النفور من السمك فى فرنسا القديمة عندما نقرأ تحذيرات بودان لقومه، وحملته القوية التى أراد من ورائها أن يحض قومه على أكل السمك ولا يحتقرونه ويعتبرونه طعاما قليل الشأن[٤] .

وتميل حرفة صيد السمك إلى توسيع أفق المشتغلين بها لأنها أقل مجهودا من حرفة صيد البر فهى تجبرهم على مغادرة الشاطئ، إما ضربا فى عرض البحر، أو وسط مجارى الأنهار ومن ثم فلابد من صناعة القوارب. وقد وصف كوك[٥] بدقة كيف يصنع أهل تاهيتى قواربهم، وتلعب تلك القوارب من كل الأنواع دورا

---

(١) انظر أعلاه ص٢١٥ (أصل).

(٢) المراجع فى دارمبرج وساجليو (١٦٩) ٥ بيكاسيو.

(٣) انظر أعلاه ٢١٨ (أصل).

(٤) هيليج

L'Epopée homérique, tied. Trawinski, paris 1984. p. 546.

(٥) كوك (٢٠٥) مجلد٢ ص٤٩٢.

كبيرا فى حياة الساكنين على ضفاف الأنهار أو شواطئ البحار؟ وربما كان صيد قواقع الموريكس هو الحرفة التى بدأ بها الفينيقيون مغامراتهم البحرية الكبرى. وكانت مصايد البحر البلطى أصل نمو مدن الهانزا البحرى والتجارى، وكان صيادو السمك الإنجليز هم أول من قام بالدور البحرى الكبير أيام الملكة إليزابيث، وانتهى بهم إلى الاستعمار؟ وأخيرًا فقد كان أسطول صيد السمك اليابانى، الذى بقى لها بعد تحطيم أسطولها التجارى تحطيما منظما عام ١٦٢٤، هو نواة تطور الأسطول اليابانى.

ويبلغ من حب بعض شعوب الصيادين للبحر، أنهم يبنون قراهم ـ كما فى الشرق الأقصى ـ فوق القوارب، بل وهناك قرى طافية تتحرك من مكان إلى آخر فى البحر فى منطقة الفلبين ـ ومن أمثلة هؤلاء الموروباجان فى أرخبيل السولوه، الذين يعيشون على صيد البحر وحده ويقضون حياتهم فى قواربهم، فى كل قارب أسرة واحدة، تتكون من خمسة أو ستة قوارب معًا لتكوّن مجتمعا. وهذه حالات متطرفة جدًا للحياة البحرية. ولكن هناك تضافرًا بين أسلوبين من الحياة، يختلف احدهما عن الآخر تمام الاختلاف، أحدهما الحياة البحرية، التى تدفع بصاحبها إلى الضرب فى عرض البحر، والأخرى حياة الاستقرار التى يمارسها الفلاح على الأرض(١).

---

(١) سمبل (١٥) الفصل العاشر.

الفصل الرابع

الرعاة والزراع

الرُحل والمستقرون

لم يكن الصيادون ولا القناصة سادة الأرض، أو أول من عمل التاريخ أو أسس المدنية. بل الذين خلقوا أول مدنية ونشروها فى الأرض، تلك المدنية المعقدة المتنوعة الغنية، هم الرعاة والزراع. وذلك فإننا نتقدم لدراستهم، كلٍّ بدوره، تاركين جانبًا مشكلة تداخل الرعاة بالزراع، أو اشتقاق بعضهم من البعض الآخر، فهذه مسألة شائكة لا طاقة لنا بها وتخرج عن مجال هذا الكتاب.

- ١ -

استئناس الحيوان وحياة الترحال

لا نحتاج للإطالة فى إثبات الحقيقة المعروفة التى تقول: إن استئناس عدد معين من الحيوانات غيّر من مجرى الإنسان تغييرًا كبيرًا. ولكن أين ومتى، بل وكيف ولأى سبب وبأى طريقة تم هذا الاستئناس ؟ إنه بالرغم من الدراسة الشاقة التى قام بها بعض الباحثين، لاتزال بعض جوانب هذه الأسئلة دون جواب.

حتى فكرة الاستئناس لا تزال غير واضحة. كيف يتم الاستئناس؟ لقد عرف بأنه تدهور فى جنس الحيوان، فحياة الأسر تؤثر تأثيرًا شديدًا فى الحياة الجنسية للحيوان[١] . فليست الصعوبة كما أثبت القدماء، فى المحافظة على الحيوان حيًا فحسب، فالهنود الأمريكيون كانوا مغرمين بجمع الطيور الجارحة والحيوانات المتوحشة. والمصريون القدماء والآشوريون كانوا يحتفظون بالنسانيس والأسود وغيرها من السباع، وليس غريبًا فى البلاد الشمالية تربية الثعالب والدببة والخنازير البرية، ولكن هذه حيوانات اصطيدت وهى صغيرة وأنشئت فى المنازل، ولم تولد وهى فى الأسر، ولم تجمع للفائدة أو الكسب، بل للتسلية أو لغرض دينى أو للمتعة، بل وهناك أقوام ـ كما لاحظ شمولر Schmollor ـ يربون الدواجن لريشها فقط، أو يربون الكلاب دون أن يستفيدوا منها فى الصيد مثلا[٢].

---

(١) كوليرى (١٢٦) ص١٥٩.

(١) شملر:

Schmoller. pricipes d'economie politique, trans Platon, 1, 481.

أو بمعنى آخر يجب ألا نخلط رغبة الإنسان فى ترويض الحيوانات المتوحشة باستئناس الحيوان استئناسًا حقيقيًا، فهذه عملية أصعب وأشق. والصعوبة كما قلنا فى الحصول على عدد كبير من الحيوانات المستأنسة تعيش وتتناسل فى الأسر، إن هذه النتيجة صعبة المنال، فحتى الآن لم ينجح الهنود فى الوصول إليها فيما يختص بالفيل. ومن السهل جدًا لوم الإنسان المتحضر الحديث بعدم نجاحه فى استئناس الحيوان، كما فعل جوتيير E. Gautier[1]، وليس أدل على هذا من فشل حدائق الحيوان فى عواصم البلاد المتحضرة فى ترويض حمار الوحش، أو فشل الألمان والبلجيكيين فى ترويض الفيل الإفريقى، أو إخفاق مستعمرى السنغال الأعلى فى استئناس النعام[2]. وربما لم يكن السبب فى هذا الفشل نقصًا فى مهارة الإنسان المتحضر الحديث، بل ربما كان السبب سوء التفاهم السيكولوجى بينه وبين الحيوان. إذ علينا أن نتذكر أن الإنسان لم ينجح إلا فى استئناس عدد قليل من الحيوانات لا يزيد على خمسين، بينما من الممكن نظريا استئناس مائة ألف أو يزيد، استئناسا يعود على الإنسانية بالنفع الأكيد.

ولم يكن الفشل فى الاستئناس من نصيب الإنسان الحديث فقط، فنحن نعرف تجارب المصريين القدماء فى ترويض واستئناس عدة أنواع من الحيوانات المتوحشة فى عهد الدولة القديمة الطويل. فالآثار التى ترجع إلى عام ٤٠٠٠ ق.م. ترينا الغزلان والأيائل والضباع يقودها العبيد من سلاسلها إلى حظائرها، كما أن نقوش قبر ميرا فى سقارة تبين أنواع الغزلان والثعالب والتيوس البرية والضباع التى كانت تستعمل فى الصيد دون شك، ويبدو أن التجربة استمرت مدة طويلة.

من المؤكد أن الاستئناس كان نتيجة سلسلة من العمليات الطويلة التى باء بعضها بالفشل. ولاشك أن التناسل بين أنواع الحيوانات الأسيرة وبين مثيلاتها من الحيوانات الأرقى التى تنتمى إلى نفس النوع (دون الجنس) بحكم القرب فى الأسر معها أنتجت أنواعا جديدة من الحيوانات المولودة فى الأسر والأقرب إلى

---

(١) جوتيير (١٨١) ص(١٠٤ - ١٠٥).
(2) مينود (١٨٣) جزء (١) ص٢٢٢ وما بعدها.

الاستئناس، وبذلك حلت المشكلة[1]. فالحيوانات المستأنسة ليست أنواعًا بسيطة، بل هى هجن مولدة من أكثر من نوع وحشى واحد.

ويعتقد بعض علماء الحيوان أن أجناس الكلاب الشمالية (الإسكيمو، الدنماركية والماستيف الألمانى) كانت نتيجة تهاجن بين الذئب والكلاب المستأنسة من فصيلة Canis pallipes الهندستانية، وأن الكلب المصرى كان يقرب لابن آوى[2]، وأن فروض علماء الحيوان من اختلاط نوع من الحيوان بآخر لإنتاج ما قد يبدو لنا حيوانا بسيطا، لمحيرة حقا.

من الصعب أن نبين متى استطاع الإنسان أن يستأنس هذه الحيوانات، أو بأى ترتيب تم ذلك، ويبدو أنه - على أى حال - قد تم ذلك قبل العصر الحجرى الحديث[3]، عندما ظهر الكلب مستأنسا، وهو أقدم حيوان صحب الإنسان[4]، بعد ذلك ظهرت الماعز والضأن والخنزير والثور فى وقت واحد هو العصر الحجرى الحديث[5]، أما الحصان فيبدو أنه ظهر متأخرًا، وهذه الأنواع الستة تظهر معا عادة فى بقايا المحلات البحيرية فى العصور الحجرية المتأخرة، أما غيرها فكانت حديثة جدًا نسبيا، مثل القط الذى استؤنس بعد الكلب بكثير، وانتشر استئناسه ببطء، فهو لم يدخل فرنسا أو شمال أوربا إلا فى القرون الوسطى.

أما عن الرنّة التى ترك لنا فنانو العصر الحجرى عنها صورًا رائعة، فنحن نستطيع أن نحدد الوقت الذى استأنسها فيه الإنسان وكف عن مطاردتها[6].

---

(١) كوليرى (١٢٦).

(٢) حاشية عن الأصل قبل التاريخى للثدييات المستأنسة.

Trouessart, Biologica, 15 th. Sept., 1911.

(٣) تقسم ديشليت (١٧).

(٤) دى مورجان (١٧٥) ص١٦٦.

(٥) تروسارت ذكر من قبل.

(٦) دى مورجان (١٧٥) ص١٦٨.

وأخيرًا فإن الدواجن لاتزال فى حالة مستوحشة فى الهند، وقد كان أتباع زرادشت يعبدونها، وأصبحت الطائر المقدس عند المازدية، ولاريب أنها تدين فى استئناسها وانتشارها فى فارس إلى اعتبارات دينية، أما دخولها منطقة البحر الأبيض المتوسط فيظهر أنه يرجع إلى العصور التاريخية فقط[١].

أما عن سكان قارة أمريكا، أو بالأحرى الأمريكتين اللتين كما نعرف تكونان منطقتين حيوانيتين تفصل إحداهما عن الأخرى منطقة انتقال أو منطقة اختلاط[٢] تشمل جواتيمالا، والمكسيك، وتكساس، وكاليفورنيا، فانها استأنست الديك الرومى وإحدى الجمليات، اللاما، التى تستعمل فى الأغراض الزراعية.

وبالرغم من أن الكلب هو أقدم الحيوانات وأكثرها وفاء والتصاقا بالإنسان فهو ليس أهمها فى تطور المدنية. فالثور أهم منه بكثير من الناحية الاقتصادية، ويخبرنا هان[٣] أن استئناسه كان نتيجة معتقدات دينية. فربما ارتبطت عبادته فى الأزمنة القديمة بعبادة القمر ـ لما هناك من تشابه بين قرنيخ وبين الهلال. ومن المحتمل أن الثيران المستوحشة كانت تحاصر أولا من أجل تضحيتها لإلهات الزراعة، ومن هذه المحاصرة بدأ الاستئناس ـ بالتالى أيضا. كان لبن البقرة يقدم أولا قربانا للآلهة، ثم أصبح يقدم للكهنة وللملوك وأخيرًا أصبح شراب العامة، وهكذا كان استئناس ذوات الحافر من عمل الزراع المستقرين، الذين كانوا يستعملون الفأس اليدوية والذين سوف نقابلهم الآن فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية.

أهم الحيوانات من الناحية الاقتصادية هى المجموعة آكلة العشب والتى كانت تهيم فى بيئة السهوب. ونحن نعلم أن كل سهل، سواء كان منخفضا أم مرتفعا يصبح بطبيعته من الستبس مادام معرضا لرياح جافة، وذلك مثل هضاب آسيا الوسطى،. وفارس، وبلاد العرب والسودان، والصحراء، وجنوب أفريقيا، وأستراليا، واللانوس، والبامباس فى أمريكا الجنوبية: وهذه جميعا أماكن للرعى،

---

(١) كوينو (٥٢) ص٦١.
(٢) رايناخ فى (١٦) ١٩١٠، ص٧٥.
(٣) هان (١١٢).

لاتلبث أن تضمحل تحت لفح الحرارة فى فصل الجفاف، ومادام أهلها غير مستعدين بمراعٍ صناعية أو بالعلف المجفف ، فإنهم كانوا مضطرين لأن يتحركوا وراء قطعانهم بحثا عن العشب، إذن فحياة البادية هى النتيجة الطبيعية لرعى الماشية، فهى مرتبطة بها ولايمكن التفرقة بينهما ـ هذه هى فكرة سامبل خاصة(١).

إلا أن المسألة ليست بهذه البساطة وأمريكا ـ بلد مس سامبل ـ على ذلك شهيدة. فحياة البدو الرعاة لم تقم هناك قط بالرغم من توفر كل الشروط الموجودة فى أوراسيا. ففى أمريكا الشمالية توجد البرارى والسهوب، والحيوان الملائم للاستئناس، وهو البيسون الذى يمكن أن يحل محل الماعز والضأن وهما يكادان ينعدمان فى أمريكا الجنوبية حيث لايوجد الماعز أو الضأن، فهناك الفيكونا، والجواناكو، والألباكا، واللاما ـ وبالرغم من ذلك فلم توجد حياة رعوية فى الأمريكيين. ويبدو أن سكان العالم الجديد الأصليين إذا كانوا قد قدموا من العالم القديم، فأنهم لم يحملوا معهم طبيعة البدو الرعاة. فقد ظلت سهوب أمريكا خالية من حيوان الرعى بينما كانت الغزلان والقطط الوحشية والبوما وغيرها تهيم فيها (٢) ولم تظهر حياة البدو الا أخيرًا، وأخيرًا جدًا بعد الفتح الأسبانى وإدخال الحصان من أوروبا، عندئذ أصبح اللانوس والبامباس مجال المعتنين بتربية الماشية، الذين يعيشون فى خيام مثل القرغيز والتاتار ويعيشون على اللحم مثل الهون ويمتازون بأنشوطة اصطياد الخيول التى ابتكرت لتلائم غرضهم.

علينا إذن ألا نعتبر حياة البدو أو حياة الرعى خطوة ضرورية فى تقدم تاريخ البشرية فهناك بعض الظروف، مثل عدم وجود حيوان معين. قد تؤثر أثرًا كبيرًا فى حياة أحد الشعوب بحيث تبعدها عن حياة البدو أو الرعى، ولكننا نخشى أن يكون فى قولنا هذا ذرة من الحتمية؛ أما إذا اعتبرنا أن استخدام الفأس اليدوية فى الزراعة؛ تطورًا بعامل النمو والارتقاء إلى طريقة الصينيين فى فلاحة البساتين أو الطريقة البيروفية. بل وطريقة اصحاب المحراث كما تطورت حرفة الرعى والانتقال

---

(١) سامبل (٩٠) الفصل ١٤.

(٢) همبولدت، جزء أول ص١٧ ـ ب.

خلف الحيوان بحثا عن الكلأ، فإننا نكون قد تركنا مجالا لعادات الإنسان وتقاليده وحرية إرادته للتصرف، كما تركنا الظروف الطبيعية تعمل عملها.

• لنعيد ما قلناه مرة أخرى؛ يجب أن نتخلص من الفكرة القديمة القائلة إن حياة الرعى أدنى مرتبة من حياة الزراعة المستقرة وقد لاحظ راتزال من قبل فى كتابه «الجغرافية البشرية» أنه ربما ظهرت مدنية لابأس بها عند البدو بينما لايزال بعض الزراع فى حالة بدائية[1]. وتاريخ شمال أفريقيا يقدم لنا الوسيلة التى ندفع بها هذا الظن، فقد كانت البداوة تحتل محلا رفيعا هنا فى عهد تسلط البربر، ثم انحط شأنها فى عصر الرومان لكى تعود إلى الازدهار أثناء العصر العربى، وقد يميل بنا الهوى إلى أن نقول إن البداوة معناها التقهقر فى هذه الحالة، ولكن علينا أن نبرهن أمرين، الأول إن البدو لايستفيدون من بيئتهم مثلما يفعل الزراع وأن الخيمة أقل شأنا من المنزل المبنى، بينما هى قد تكون غالية الثمن وأبهى شكلا من الأكواخ الحقيرة. وأن الفلاح المسكين المستقر فى الواحة أرقى شأنا من البدوى الغنى، مادة وروحا.

ولكننا نعرف الكثير عن هذا الآن، فسكان الواحات كانوا بدوًا فى بادئ الأمر[2] فلما نفقت ماشيتهم وانحط شأنهم كرعاة أصبحوا زراعا مستوطنين، ينتجون الحبوب والتمر، وهكذا حصروا فى دائرة ضيقة، دون أن يكون لديهم حيوان نقل يحملهم ولم يستطيعوا الفكاك من أسر الأرض التى التصقوا بها والآن وقد أصبحو أكثر حرية من قبل فى حياة الأمن والسلم تحت حكم فرنسا، استطاعوا أن يزيدوا ثروتهم شيئا فشيئا وعادوا بالتدريج إلى أسوب حياتهم البدوية الأولى، وهذا مثل إن كان يعوزنا المثال أن البداوة الراعية قد تكون أرفع شأنا من الحياة الاستقرارية المستكينة.

---

(١) برنارد ولاكروا (١٤٧) ص١٥٢ وقارن أيضا برنارد (١٧٧) ص٤٤٢

Bernard & Lacroux, CXLVII p. 152 cf. also. Bernard CLXXVII. p. 142.

(٢) المرجع السابق ص١٥٢ وما بعدها، وقارن فيدال دى لابلاش ص(١١) ١٩١.

- ٢ -
خصائص الحياة الرعوية

والآن فلنعين أهم صفات الحياة البدوية والآثار العديدة التى تركتها هذه الحياة فى الشعوب المتمدينة.

تعتمد الشعوب البدوية فى حياتها على تربية الماشية، قطعانها هى مصدر ثروتها جميعا ومشكلتهم الكبرى هى المحافظة عليها. فالتندرا تقدم الطحالب اللازمة والسهوب تهيئ أحسن الظروف لتربية الضأن والماشية، ولكن هذه الظروف تؤدى إلى البداوة لأن القطيع سرعان ما يأتى على المرعى، فلابد من الانتقال إلى مرعى آخر.

هذه هى الطريقة التى تقدم بها الأمور، وعليها تبنى نتائج، ولكن هذا كله غير صحيح. فهذا كلام عام جدًا وكثيرا ما ينطوى على تبسيط أكثر من اللازم، فهو يتجاهل فروق الحضارة بل والمعتقدات التى تفصل القبائل البدوية بعضها عن البعض.

وقد شعر بذلك هاهن سنة ١٩١٣، عندما عقد ما يقلل من شأن البدوية فى كل من آسيا وأفريقيا[١] وقارن بين اعتمادًا كليا على تربية الماشية وبين حياة الرعاة الذين لا تنفذ الرعاة أحيانًا من وسيلة النقل الذى عندهم وهو الحمار والحصان والجمل، فهذه الحيوانات الأخيرة هى مصدر توسع الشعوب الرعوية الآسيوية اللامع فى التاريخ، وهى التى مكنتهم من امتداد، أفق رحلاتهم واكتسابهم الصفات الحربية التى تجلت فى فتوحاتهم العظيمة ،أما الرعاة

---

(1) Die Hirtenvolker in Asien and Afrika (Geog. Zeitschrift xlx, 1913)

الأفريقيون وهم أقل حركة من إخوانهم الآسيويين فقد حرصوا على حيوانهم بكل بخل، وأحاطوه بكل عنايتهم ورعايتهم وأضافوا إلى حياتهم الرعوية قليلا من الزراعة، وبالرغم من أنهم لم يرقوا إلى استعمال المحراث - مما جعل طرازهم فى الرعى أقل نقاء وأقل تمييزا من رعاة آسيا.

هناك ضعف فى مقارنة هاهن ـ وبعض فجوات وأحكام مبتسرة، فالصورة التى صورها ذلك الكاتب لا تنطبق أبدا على المراكشيين أو الطوارق كما أنها بعيدة عن الانطباق على الكافر أو الحو تنتوت ونستطيع أن نهاجم الكاتب من حيث إنه أقام أهمية كبيرة على حيوان ضعيف مثل الحمار، لا يستطيع أن يقطع مسافات طويلة، كما أننا لا يجب أن نقلل من شأن المسافات الطويلة التى يستطيع أن يقطعها الثور، ويخبرنا شيفالييه أن الثور بين الكريدا فى منطقة تشاد يستطيع أن يقطع ما بين ٣٠ ـ ٤٠ كيلو مترا فى اليوم حاملا ٥٠ - ٦٠ كيلو جراما (١٠ ـ ١٢٠ رطلا) غير سائقه وربما استطاع أن يقطع أكثر من ذلك إذا سافر ليلا. إلا أن هاهن كان صادقا فى أنه لفت نظرنا إلى تشعب رأى الشعوب المختلفة فى قطعانها وقيمتها.

كثيرًا ما يقال إن: «ثروة الراعى قطيعه»، ولكن الثروة ليست فكرة بسيطة، ولا القطيع أيضا، فهناك مئات من الطرق فى تقدير الثروة وتقدير القيمة الاقتصادية للقطيع، فتربية الضأن والماشية عندنا الآن صناعة دقيقة، تتضمن استقلال كل منتجات الحيوان: اللحم والجلد واللبن والصوف والشعر والقرون والعظام. فكل شىء يقدر تقديراً. كل شىء يستعمل ويستغل. أما عن الإنسان البدائى فالقطيع «رصيد» فى الغالب. هذه هى الكلمة التى يستخدمها مينو فى وصفه لطريقة حياة الرعاة فى السودان الغربى[1]، فهو يقول إن رعى الجيوان هنا على مقياس كبير. ويشمل رحلات وهجرات واسعة، ففى فصل الجفاف تساق القطعان التى قد يبلغ عددها بضعة آلاف من الرؤوس إلى شطآن الأنهار والقنوات والبرك والمستنقعات. وفى فصل المطر تعود ثانية إلى الهضاب. وفى

(١) شيفالييه (١٧٨) ص ٣٨٧ وما بعدها.

شهر ديسمبر يهبط المغاربة من الساحل نحو البرك التى تقع فى دائرة نيورو وفى أرض كولومبين Colombine، كما يسوق الطوارق قطعانهم فى فصل الجفاف إلى ضفاف النيجر وبعد أمطار يوليو وأغسطس تتفرق نحو الشمال أو الجنوب ثم تعود إلى النهر فى فصل الجفاف التالى. فالطبيعة وحدها هى التى تطعم القطعان على مدار فصول السنة. فهى تسمن فى نهاية الشتاء ثم تهزل قليلا فى فصل الجفاف، ولكن ما يميز المغاربة والطوارق والمغول هو أنهم لا يبيعون حيوانهم المكتمل النمو. فليست قطعانهم ثروة حقيقية. بل رصيد لا يقربونه إلا تحت إلحاح الحاجة . ويدعون البهائم تهرم وسط القطيع وهذا ولا شك يقلل من شأن القطيع بالتدريج.

هذه الحقيقة تظهر كاملة فى أن قطعان الماشية لا تنقذ الرعاة أحيانًا من المجاعة[1]. فبينما تنفق الأفراد الهرمة من القطيع من الجوع. يحاول الرعاة أن يسدوا رمقهم بطريقة أخرى ولتكن الصيد. ويقول مينو «نستطيع أن نكون آمنين إذا قلنا إن رعاة السودان من الطوارق والمغاربة يشتغل رجالهم بالصيد ما عدا العبيد والخدم الذين يحرسون الماشية»[2] فالكونتا المغاربة والطوارق يصطادون الزراف والأيائل وأحيانًا يزرعون قليلا من الذرة العويجة (الدخن) كما يفعل الكريدا حول بحيرة تشاد (وقد وصفهم شيفالييه وصفا دقيقا). وأحيانا يهيمون وراء قطعانهم بعد البذر. ثم يعودون إليه فى فصل الحصاد. إلا أن ما يحصلون عليه من لبن حيوانهم الأعجف وذرة وقليل من التمر من جيرانهم . كل هذا لا يمنعهم من محاولة سد رمقهم خوف المجاعة بجمع الأعشاب والفواكه والجذور التى تنمو فى حالة مستوحشة.

ويؤيد شودو Chudeau قول شيفالييه عن بدو السودان الصحراوى الذين قد يضطرهم الجوع إلى التماس الطعام من أدنى الحشائش وخشاش الأرض.

والآن فلننتقل إلى جزء من مناطق الرعى. إلى العالم الآسيوى الذى يقارنه هان بالعالم الإفريقى. فعندنا وصف للترك فى الأيام الخالية بقلم كاهون.

---

(١) شودو (٨١، أ) جزء ٢ ص ١٧٩.

(٢) كاهون (١٨٦) ص ٥٠.

عندما كان الأتراك رعاة فى وسط آسيا لا يذبحون شاة أو حصانا إلا فى الأعياد الكبيرة مضطرين. وأحيانا لا يطعم التركى لحما قط إلا إذا اضطر إلى ذبح حيوان مريض. هؤلاء أيضا لم يعيشوا على قطعانهم. بل على ما تنتجه هذه القطعان.

لقد رأينا كيف أن القواعد العامة ضعيفة لا تثبت للاختبار وأنه لابد من تقدير معنى الألفاظ قبل إطلاقها. وكيف يجب أن تحدد معنى الثروة قبل أن تدعى أن ثروة الراعى فى قطعانه.

فلنتقدم بعد هذه التحفظات التى ذكرناها فى دراسة أساليب حياة البدو والرعاة . مستخدمين فى ذلك الأوصاف التقليدية التى فى حوزتنا.

لقد كانت العادة المتبعة أن يتبع وصف الحيوان الأساسى للجماعات الرعوية. وأن يشار إلى طبيعة مساكنهم غير المستقرة. فحياة البداوة ـ كما قيل ـ منعت الرعاة من اتخاذ بيوت ثابتة تقيهم شر تقلبات الجو ثم ترسم صورة سريعة تشمل رعاة فى جميع عصور التاريخ وفى جهات مختلفة من العالم. فالخيمة هى بيت البدوى البسيط الصحيح. ذلك البيت المتنقل الذى يمكن حمله إلى كل مكان، وهذه الخيمة تختلف فى الأماكن المختلفة للرعاة اختلافا يسيرًا . مثل اختلاف الخيمة السداسية لأهل التبت الشرقيين وخيمة أو يورت القرغير كما وصفها هوك[1] Huc.

أما العربة فخطوة متقدمة عن الخيمة فى أنها تتضمن صناعة جديدة معقدة. ولكنها لا تسمح إلا بحركة أقل؛ وهى تقابل نوع البداوة التى كان عليها الألمان الغزاة فى القرن الأول ق.م. وغزوات العصور الوسطى وهجرات البوير فى الترنسفال ودولة نهر الأورانج الحرة فى القرن التاسع عشر التى كانت تتحرك ببطء الثيران، وعندما قلت البداوة اتخذت المساكن صفة مختلفة. مثل إقامة الخيمة فوق أعمدة ثابتة أو جزء ثابت من البناء وهى . على ضعفها ـ

---

(١) هوك ٢، ص ١٥٧.

كافية لحماية السكان أثناء تجوالهم، مثل هذه أكواخ السى فو[1] Si-Fou وبيوت شمال أفريقيا المسماة بالقوربى[2].

وعندما ينتهى دور البداوة تماما يظهر البيت الدائم. ولكنه من الغريب أن يظل محتفظا بالطابع القديم الذى يذكرنا بالخيمة، وقد لوحظ أن العرب حفروا حيطان بيوتهم فى إسبانيا بنفس الطريقة التى كان أسلافهم يحفرون بها أعمدة الخيام الخشبية، وأكثر من ذلك فهناك شبه بين قطع الرخام فى قصور غرناطة وقرطبة وأبواب المنبر الخشبية فى مسجد القيروان، وقد كان فن الغرب فى الرسم وغيره على نفس مبادئ الصور التى تظهر فى السجاد المنقوش ـ صناعة الرعاة الأصلية. ومتاع الخيمة قليل ، بعض الحصر والسجاجيد وبعض أوان خشبية قليلة. ومثل هذا الفقر إجبارى حيث إنه لابد وأن تكون حقائبهم سريعة الإعداد للرحيل فى أى وقت، وينبغى ألا تشمل ما يسهل كسره أو ما كان ثقيلا فى الحمل.

كل هذا بصفة عامة صحيح. ولكن لا ينبغى أن نعلق أهمية كبيرة على هذا. بالرغم من أنه صالح تماما لتعليمنا الكثير عن طبيعة الأشياء هنا. فهو لا يعطينا صورة كاملة. وعيبه أن نتقبل الحقائق التى قد تتعارض بل هى تتعارض مثلا، مع ما ذكرنا من تعميمات، فليس هناك نظم محكمة للحياة، فحتى لو كان جميع البدو سكان خيام، فليس كل سكان الخيام من البدو الرعاة. فهذه ملاحظة لفت نظرنا لها أوجستين برنارد ـ Augustine Bernard، بعد أن وجدها مرارًا فى الجهات الخصبة المنزرعة فى الجزائر التى لا يوجد بالقرب منها مساكن ثابتة[3]، كما لاحظ أن بعض السكان غير البدو فى مراكش ـ إقليم التل ـ يسكنون الخيام، لأنهم يقومون بزراعة عدة قطع متباعدة من الأرض، ويتبادلون السكن فى خيام أو فى قوربى كلما سنحت ظروف انتقالهم من مكان إلى آخر وينتهى من ذلك بقوله

(١) عن مراكش اقرأ مثلا برنارد (١٧٧) من ١٤٩ وما بعدها.

(٢) نفس المرجع ص ١٥٣.

(٣) برنارد ولا كروا «١٤٧» ص ١٦١.

إننا لا نستطيع أن نفضل سكان الخيام على سكان المنازل الثابتة إلا إذا استطعنا أن نفضل الراعى على الزارع، فهناك حالات انتقالية وتدرج بين الأسلوبين [1]. ويخبرنا نفس المؤلف أن الأغنياء من الزراع هنا يبنون بيوتا ثابتة فى وسط الأراضى الزراعية دون أن يسكنوها رمزًا على وضع اليد عليها. كما أن استبدال البيت بالخيمة ليس باستمرار دليل رقى، فالخيمة أحيانا تكون أغلى ثمنا من الكوخ البسيط. وبعض الناس استبدلوا بالخيمة «نصف منزل» «قوربى» بدواعى الاقتصاد أو لأنهم فقدوا قطعانهم.

والآن فلنعد إلى موضوعنا ـ الحياة المادية. من المفروغ منه أن نشاط البدو الرعاة الاقتصادى محدود جدًا. وليس معنى ذلك أن الصناعة ليست موجودة عندهم فهم لا يصنعون إلا ما يحتاجون إليه وما تمس إليه الضرورة دون التعمق فى مشاكل صنع سلع ليسوا فى حاجة إليها. ولكن هذه الصناعة لا تستطيع أن تتعدى نطاق اقتصاد الأسرة الضيقة، فالفخار ـ إذا كان عندهم، وهذا فى النادر، إذ إن الصيادين والرعاة قلما استخدموها ـ والأدوات الخشبية والجلدية والمعدنية يقوم بصنعها أخصائيون. وعدد هذه السلع قليل، فكل ما هو كمالى محرم. أما فيما عدا ذلك مثل نسج الملابس وأقمشة الخيام والسجاجيد ـ أداة الترف الوحيدة عند البدو ـ فهو من عمل النساء لحاجة الأسرة فحسب.

أما إذا تغير هذا النظام فلا ريب أننا أمام جماعة تعد نفسها للاستقرار مثل حالة سكان القيروان أو الوادى بتونس وهناك ـ على أى حال ـ فرق لا يستطيع أحد مهما بلغ من الغفلة أن يهمله بين ما ينتج للاستهلاك المحلى وما ينتج للاستهلاك الخارجى، ولكن هذه السلع المعدة للمقايضة قليلة ومن ثم كانت التجارة ضئيلة الحجم. وهى تتكون عادة من مقايضة منتجات القطعان بالأغذية الزراعية وبعض البضائع المصنوعة، تلك هى مثلا تجارة القرغيز، وهذه كانت تجارة اليهود حسب ما ورد فى التوراة عندما ذهبوا يبتاعون فى مصر، ولكن هناك وظيفة أخرى للبدو هى النقل، فحركاتهم جعلتهم الوسطاء الطبيعيين بين

---

(١) برنارد (١٢٧) ص ١٥٤.

الشعوب المتحضر، التى تعيش التى تعيش على حافة السهوب أو الصحارى وبين سكان الواحات.

وهكذا نقل الإسماعيليون القدماء إلى مصر التوابل والأصحاغ والعطور، وقد درس الجغرافيون بعناية طرق القوافل ومركز التجارة مثل تمبكتو وبغداد ودمشق وسمرقند وطشقند، مثل هذه التجارة من الأهمية بحيث أخضعت البدو لبعض النظم السياسية الخاصة، فأشق ما وقع على عانق البدو الرعاة فى الطرق بين الصين واللهاسا هو المحافظة على سلامة القوافل، وقد سهل هذا النوع من التجارة وجود حيوان النقل الملائم لبيئة السهوب (مثل الحصان والجمل على الخصوص)؛ ولكن مثل هذا النوع من النقل وجد أيضًا فى الأماكن التى يقوم فيها الرجال مقام الحيوان مثل الحمالين الأفريقيين من قبيلة الميامويزى Myamwesi[1]، ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه الوظيفة ليست مرتبطة ببيئة الرعى فحسب. بل إن كل تجارة، كانت، ولا تزال إلى حد كبير نوعًا من البداوة، وقد بقيت تلك التجارة ـ تجارة المتجولين ـ فى عصرنا الحاضر فى قلب المجتمعات الأوروبية إلى عهد قريب فقد كان هناك شىء من طبيعة الملاح فى قلب كل تاجر قديم.

---

(١) برتون «١٧٧» ٢٩٥ ـ ٢٩٨، ٣٠٢.

- ٣ -

نظم الرعاة ودياناتهم

والآن فلنحاول أن نعالج مشاكل أخرى أكثر صعوبة، هل هناك نظم اجتماعية خاصة بالبدو دون غيرهم؟

نظريا، يبدو أنه من مصلحتهم الخاصة أن يكوّنوا أسرا بطرقية كبيرة ولكن من الخطأ أن نتحدث عن النظام اليبطرقى باعتباره نظاما بدويا خالصا.

ولقد يقال إن تربية الحيوان ورعايته هى وظيفة الرجل الأساسية، وبذلك أصبحت فى يده السلطة التى قد تكون للمرأة فى المجتمع الزراعى البدائى، وأكثر من ذلك، فمن السهل أن نرى الفوائد التى ترجع على البدوى من وراء نظام بطرقى يخضع فيه الأبناء والزوجة والخدم لسلطة رجل واحد، أو بعبارة أخرى. أن هذه السلطة المركزة فى يد واحدة توفر على بقية أفراد القبيلة مؤونة التفكير المستقل، هذا لأن فى ذلك تكتيلا للجهود من أجل المصلحة العامة[١]، ولكن ألا يحق لنا أن نتساءل ما إذا كان هؤلاء الذين يتحدثون عن نظام بطرقى يفقهون دقة ما يقولون؟ فمن المؤكد أن النظام البطرقى يصلح للمجتمع الزراعى كما يصلح للمجتمع الرعوى، وأن ليس كل المجتمعات الرعوية خاضعة لنظام بطرقى. ولنضرب لذلك مثلا بالطوارق، الذين يعتقدون أن الرحم ألصق بالقريبى،، وأنه الذى يحمل الجنين، أى أنه يمت بصلة إلى أمه ويجهل أباه[٢].

---

(١) عن أهمية الأسرة الأبوية الكبيرة انظر :
Schmoller, Principe d'economie Politique trad. platon, t.1, I p.28 et Seq. T. II p 37 39.

(٢) جوتيير (١٨٠ ب) ص ٢٢٤.

والواقع أن البدو يختلف بعضهم عن بعض فى نظام الأسرة، ونحن نعرف أيضا أن هذه النظم تختلف بين البدو من مكان إلى آخر،، فتعدد الزوجات كان منتشرًا بين العرب كما كان بين اليهود؛ ولكنه لم يكن معروفًا بين البدو، الذين قد يميلون إلى تعدد الأزواج ووأد البنات. وهذا أمر يعتمد على مقدار ثروة البدو فى الوقت الحاضر كما كان فى الماضى، فبعضهم يحب كثرة الولد، ويعتقد أنه من مصلحته، وبعضهم يمعن فى تحديد النسل بطريقة أو بأخرى ، ويجب ألا ننسى أن الصحراء ليست بيئة جغرافية سهلة بل بيئة نباتية حيوانية معقدة يمكن اعتبارها منطقة محددة لنوع خاص من أنواع الحياة.

ولقد قيل الكثير عما تضفيه حياة البدو على المجتمعات البدوية وعن المظاهر السياسية التى تكسبها حياة البدو على الرعاة.

البدو قوم محاربون: والأمثلة على ذلك عديدة تفيض بها ذاكرتنا، فهل هناك شعب يعسكر البدو على حدود لم يضطر إلى الكفاح دفاعا عن نفسه ضد غاراتهم المتعددة؟ ويالها من أساليب عديدة اتخذها المستقرون للدفاع، فهناك حائط سيزوستريس الذى شيد بين بيليزيوم وهليوبوليس؛ وسور الصين العظيم، وذلك الخندق الكبير الذى فكر الفرنسيون فى حفره لحماية الجزائر، وشبكة التحصينات والقلاع ونقط الخفارة التى أنشأها الرومان على حدودالعراق وقاية للشام من غارات العرب والبارثيين، وهناك أخيرًا حدود الإمبراطورية على الراين والدانوب بحائطها وخندقها. واليوم عندنا القوات المدرعة المتحركة، التى تستطيع أن تخف لنجدة أى مكان، وتعينها على ذلك الطائرات والبوليس الجوى؛ كل هذا لغرض واحد، إذ لا يزال خطر البدو قائما.

من أين ينشأ هذا الخطر، هناك عدد كبير من الأسباب الداعية إليه مثل الذبذبات المناخية التى تجبر البدو على الخروج من مواطنهم فجأة والانقضاض على الزراع الآمنين، وضرورة سد حاجتهم بعد أن نقصت مواردهم فجأة، واختطافها من يد من يمتلكها، ودفع خطر العدوان عليهم من جيرانهم من البدو الآخرين ـ ولعل فى هذا ما يعيننا على فهم السبب الذى من أجله يكون البدو دائمًا قوة حربية يعتمد عليها عند الضرورة.

دعنا نفصح عما نعنى بنشاط البدو الحربى، يجب أن نقول إنه على الرغم من ولع البدوى بالسلب فإن سلوكه دائما سلوك الوحش الطليق؛ فعليه ألا يستنزف موارد ضحاياه، فالطوارق لا يحطمون القوافل التى ينقضون عليها إلا فى الحالات القصوى التى يرون أنفسهم فيها فى خطر، فهم يكتفون بحراسة القافلة وأخذ إتاوة على ذلك العمل، أما عن السكان المستقرين فى الواحات فهم من جهة يجبون إتاوة عينية من محاصيلهم ومن جهة أخرى يحمونهم من هجمات البدو الآخرين.

حياتهم من الصغر حياة حربية، فالقبيلة منظمة دائما، كأنها جيش، وسير القافلة ومواعيد رحيلها ومستقرها، وعمليات إنزال حمولة الجمال أو تحميلها يجب أن تتم فى نظام وكفاية وسرعة وإلا فالويل لها من انقضاض الأعداء المتربصين لها.

فأسلوب حياتهم، يخلق شيئًا فشيئًا عقلية خاصة، وروحا حربية واستعدادًا للنظام تحت قيادة عليا مركزة فى يد شيخ القبيلة، تلك هى الصفات الأساسية للمجتمعات البدوية، وهى كافية بأن تمدهم بقوة تفوق قوة السكان المستقرين. ولذلك - إذا لم يضطروا إلى التفرق جماعات صغيرة - فإنهم يستطيعون أن يكوِّنوا إمبراطوريات كبيرة بسهولة مثلما حدث فى منطقة «لوب نو Lob Nor» أو القرغيز - وكذلك امبراطوريات العرب والفولا، ولكن هذه الإمبراطوريات جميعًا قصيرة العمر.

والبدو لا يجددون فيما يرثون من إمبراطوريات، فالغزاة يعيشون فى معزل عن المحكومين، وقد يقتبسون بعض عناصر الحضارات المقهورة ولكنهم لا يحاولون تحسينها، أما الشذوذ الوحيد فى هذه القاعدة فهو مثل العرب فى إسبانيا وما أدخلوه من إصلاحات زراعية فيها، وفى العادة يعسكر البدو المنتصرون وسط الشعب المغلوب على أمره، ولكنه يقع تحت رحمة الأحداث التاريخية التى تحطم إمبراطوريته المؤقتة والأمثلة عديدة، فهناك الإمبراطوريات المتعاقبة التى قامت وفنيت فى سهوب آسيا والممالك السودانية التى لم تعمر طويلا. ولعل فى هذا مبررًا كافيا فى إصرارنا على إعطاء أهمية تاريخية للبدو ولا سيما فى نطاق الستبس الذى يمكن أن يعتبر نطاقهم التاريخى حقا.

ويلاحظ أن إحدى الحقائق الطبيعية (الفسيولوجية) ساعدت على تكرار حادث بعينه، وربما كان هذا أيضًا سببا فى عدم تعمير تلك الإمبراطوريات الرعوية، فالرعاة متعودون على الحياة فى مجتمعات صغيرة مستقلة، ولكنهم قد يتحدون اتحادًا مؤقتًا تحت زعامة زعيم مؤقت للوصول إلى غرض معين، وما إن يتم لهم تحقيق هذا الغرض، حتى تثور رغبتهم الاستقلالية فى نفوسهم ولا يتهيأ للزعيم الإبقاء على سلطته إلا عن طريق الإقناع، فزعامة محمد (ﷺ) التى قامت فى وقت حرج معين ، والتى استطاعت أن تسيطر على جماعات عديدة، كانت قائمة على النفوذ والجاه الشخصيين، وعلى سحر البلاغة، وهذه جميعا قوى شخصية[1].

وهكذا تقوم المجتمعات وتنفض بين الرعاة، وتنشأ الخصومات وتكون ذات مرارة غير معروفة إلا عند البدو، وتورث العداوة والبغضاء من جيل إلى جيل وتحول دون وحدة نشأة سياسية ثابتة.

هل لأسلوب حياة البدو أثر حقيقى فى معتقداتهم الدينية، ونمو ملكاتهم العقلية؟

وتقول «مس سامبل Miss semple» التى قامت بدراسة مستفيضة عن فضائل البدو ورذائلهم ، وإن شجاعتهم وقوة احتمالهم المرتبطتين بغرائزهم الحربية هى فى حد ذاتها نتيجة لأسلوب حياتهم. ولقد نقدنا فيما تقدم ما كتب عن سيكولوجية الشعوب، وكل ما كتب فى هذا القبيل لا يستحق سوى هذا النقد ولكن دعنا نتمسك بالحقائق الثابتة، ونقول إن الشعوب البدوية لا تميل إلى خلق مكتبات، وتمنع تدوين المعرفة المكتسبة. ويخبرنا شودر Chudeau، فى تقريره عن بعثته إلى الصحراءأ عن ذلك المرابط من آدرار الذى كانت عنده مكتبة ملأ ذكرها آفاق الصحراء، لأنها كانت حمل ثلاثة أو أربعة جمال - وهذا يدل على أن

---

(١) لا يستطيع المؤلف، وهو لم يقرأ حياة محمد ﷺ أن يقدر ظروف ظهور النبى الأمى اليتيم، ولم يستطع النبى أن يجمع العرب ويوحدهم إلا بقوة الإيمان بالدين الجديد الذى بشر به، فالإسلام وحده وليس النفوذ أو الجاه أو سحر البلاغة هو الذى وحد العرب ربما لأول مرة فى تاريخهم، والحافز الدينى هو الذى دفعهم فى فتوحهم. (المعرب)

المكتبة فى حد ذاتها ترف كبير، وأمر نادر. ومن المحتمل أن أسلوب حياتهم القلق لا يشجع ـ بحكم الضرورة ـ إلا على تبسيط المعرفة العقلية. أما أخبارهم الشفهية، التى ظلت ديوان البدو الوحيد خلال قرون طويلة، فهى تتبلور فى النهاية فى بضعة كتب قليلة، ذات صبغة أنسكلوبيدية، قانونية، طبية، فلسفية، دينية وفى النهاية شعرية، ومن أمثلة ذلك الكتاب المقدس والقرآن الكريم(١).

وينبغى ألا نغالى، فإن الميل إلى جمع المعلومات فى دوائر معارف يظهر دائمًا فى أوقات القلق الفكرى وما علينا إلا أن نتذكر ذلك الميل الذى ظهر فى القرون الوسطى إلى جمع الملخصات العامة من أمثال الـ Sommes، ومرآة العالم Miroirs dn Monde. ومن العسير أن تعرف ما إذا كانت الحاجة إلى ذلك تنشأ عن الظروف المادية أو الروحية، مثل استبداد عقيدة أو فكرة بعقل الشعوب.

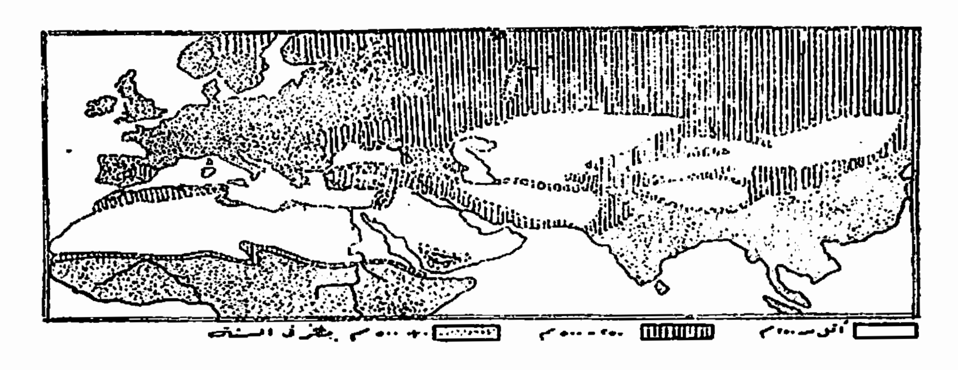
ومهما يكن من شىء فإن النمو العقلى لدى البدو أميل فى الغالب إلى أن يكون محدودًا، ويضاف إلى ذلك أنهم متعصبون فى الغالب أيضا، أتباع كتاب واحد، وسلوكهم نحو المكتبات، إذا وجدوها، معروف ، لقد قيل هذا مرارًا، وهو إلى حد ما صحيح، ولكن يجب أن نحترس من المغالاة، فالكتاب الذين يضعون مثل هذه القواعد العامة، يضعون نصب أعينهم الإسلام والقرآن، وانتشار الإسلام على الخريطة يتفق إلى حد كبير مع انتشار مناطق الاسبتس والصحارى فى أوراسيا وأفريقيا، تلك البيئات الصالحة لحياة البدو ، ولكن من يعرف الإسلام معرفة حسنة يحذر هؤلاء الكتاب من إصدار أحكام عامة تتعرض للخطأ، وقد يشير بعض هؤلاء العارفين إلى بعض المناطق التى دخلت فى الإسلام أخيرًا و وبشكل سطحى.

إن الإسلام لم يتغلغل أفريقيا الصغرى التى دخلها فى القرن السابع إلا بعد خروج المسلمين فى القرن السادس عشر(١)، وحتى هذا التغلغل لم يكن انتصارا كاملا، فالطوارق البربر بصفة خاصة غير متحمسين للتأثير العربى، ويعتبرون نوعا متأخرًا من المسلمين، لا مساجد لهم ولا رجال دين بينهم ولا يصلون ولا يصومون، بل وشهرتهم فى الفسق تجرى مجرى الأمثال بين أعدائهم من المغاربة.

---

(١) ليس القرآن الكريم كتاب أخبار، كما هو واضح هنا. (المعرب)

ولننظر بعد ذلك إلى الطرف الآخر من العالم الإسلامى إلى قلب آسيا، حيث وصف كاهون «cahun» الترك والمغول والمانشو وأثرهم فى التاريخ، هل كان هؤلاء مسلمين حقا؟ فى الظاهر نعم وفى الحقيقة لا. فمزاجهم العام وآراؤهم أميل إلى البوذية، والحقيقة أنهم سمحوا لأنفسهم بالارتداد إلى مختلف الديانات «بسهولة دون اعتراض أو حماس كبير»[٢] لقد أصبحوا عبَّاد نار، ومانيشيين ومسيحيين نسطوريين ومسلمين، كيفما اتفق دون فهم للدين أو تذوق له، بالرغم من أنهم يصبحون شديدى الولاء للدين الذى يدخلون فيه، ولكنهم لا يزالون يحتفظون فى أعماق نفوسهم بالديانات القديمة التى تظهر فى أساطير القرغيز وشعرهم وخرافاتهم، وأمثال تتار سيبيريا وعادات غيرهم من الداخلين فى الإسلام، رغم جهود المبشرين المسلمين؛ وكان نتيجة ذلك أن أكبر حرب دينية شبت فى العصور الوسطى، أثار جذوتها شعوب لم تكن ذات خصومة مع المسيحيين، وتعتبر أقل الشعوب الإسلامية احتفاظا بتعاليم دينها - وهذا أمر متناقض، ولكن يجب أن نحترس باستمرار دون المغالاة التى يقع فيها بعض صانعى الخرائط.



شكل رقم (٧)
أقاليم الرعاة والصحارى والسهوب (الستبس) فى آسيا وافريقية

---

(١) انظر شودو (١٨١ ب) جزء ٢ ص ٥٢.

(٢) جوتيير (١٨١) جزء ١ ص ٢٦٢ وما بعدها. قارن برنارد (١٧٧) فصل ٢ ص ٨٥ وما بعدها، ص ١٠٨، ص ١٩٦ وما بعدها.

ويبقى العربى المخلص بعد ذلك، ومن تحصيل الحاصل أن نشيد بخيالهم الخلاق، أو نذكر نقاء جو الصحراء وجفافه ووحدة السهوب وسيرها على وتيرة واحدة والوحدة الموحشة التى يشعر بها العربى ساكن الصحراء، لكى تشرح كيفية نشأة الإسلام فى هذه البيئة ومهما يكن من شىء فمن الطريف أن نبحث عما إذا كان القرآن يحتوى على كثير من الخيال، كما يظن الكتاب أم إذا كان الإسلام دينا أصيلا، ليس له صلة بغيره من الأديان السابقة، ألم يكن من طبيعة العربى أن يستعير آراء بسيطة من الشعوب التى يتصل بها أى التى فتحها بعد ذلك، ولا شك أن وحدانية اليهود كانت أقرب الآراء إلى قلب رجل مثل محمد ، وقد تمسك بها. ولكن ما علاقة تضاريس السطح العربية أو الحياة البدوية بهذا كله[1].

---

(١) من الواضح أن المؤلف ينتقد بقوة ضيق أفق بعض الكتاب وتحاملهم على المسلمين عامة، وقد أوضح المؤلف أن العيب لم يكن فى الدين نفسه، بل فى بعض جماعات المسلمين التى لم تفهم دينها أو تتفقه فيه مثل الرعاة فى المغرب الأقصى والصحراء الكبرى وفى أطراف سيبيريا، كما أنه يبادر بالإشارة إلى فضل العرب. (المعرب).

- ٤ -

ذبذبة حياة الترحال

تدهور البداوة من الحقائق الملموسة اليوم، إن لم تكن من علامات التقدم، فالاتجاه العام يسير شيئا فشيئا نحو حياة الاستقرار. وذلك عن طريق المدنية الصناعية الغربية فى أوربا وأمريكا،، والتى امتد نفوذها واستغلالها إلى المستعمرات، ففى كثير من البلاد تتخلى البداوة الرعوية عن مكانها الصحيح، وكما يقول برنارد ولا كروا، لم يعد هناك سوى أقلية من الرعاة المدربين يرعون الحيوان، بينما يظل أصحابها فى بيوتهم لا يصحبونها[١].

وهذا أمر شائق جدا، يجب أن نتذكره باستمرار، ونحن فى ختام رسم صورة للرعاة. فما ينبغى لنا بعد الآن أن نبحث عن «سبب» هذه الحياة الرعوية فى ظروف جغرافية معينة، أو عن «المناخ» الذى يسبب «السهوب» أما الذى يعدل الحياة الرعوية ويغيرها فليس الظروف الطبيعية، بل العوامل البشرية، وإنه لأمر جدير بالاهتمام أن نلاحظ أن الأمن والطمأنينة - أو قوة البوليس - تحل محل الحروب والقلاقل والاضطرابات الاقتصادية، وهذا عامل له خطره، كما يقول برنارد ولا كروا، اللذان كرسا جهود فرنسا فى تأمين شمال أفريقيا، ويقول جوتيير Gautier[٢]. إن البداوة كانت راجعة إلى عامل الخوف أو عدم الشعور بالطمأنينة، وإلا فإلى أى سبب يرجع الأسلوب الرعوى البدوى؟ هل إلى الظروف

---

(١) «١٤٧» ص ١٦٤.

(٢) جوتيير «١٨١».

(٣) ويكوف «١٨١أ» ص ١١٣.

الاقتصادية العامة؟ مما لا شك فيه أن نشاط البدو يتأثر بالسهولة التى يستطيع البدو أن يحصلوا بها على ما يريدون، وأن يصرفوا ما ينتجونه. وإذا تركنا الصحراء إلى سهوب تركستان، فإننا نجد أن «ويكوف ـ Woikof»[1] ، يشرح لنا العوامل التى جعلت بدو هضاب آسيا الوسطى أقل قلقا واضطرابا من قبل، وأقل استعدادا للتجمع فى أمواج متدفقة تغزو وتخرب، ولقد ذكرنا تلك العوامل من قبل، وهى انجذاب المغول بالتدريج فى محيط الصينيين المستقرين واندماجهم فيهم وإيجاد مخارج جديدة للتخلص من حيواناتهم فى الصين وسيبيريا التى يزداد عدد سكانها الآن.

انتشار الإسلام، وتأمين الحياة المستمر، وتثبيت الجماعات البشرية تحت نفوذ الدول الصناعية الكبرى الراغبة فى سد حاجاتها، والتى لا ترغب فى السلم من أجل السلم، كما عرف البدو من قبل، بل التى تسير فى برنامج استغلالها لهذه الجماعات التى تعتبر أحط منها مقاما، كل هذا أدى إليه نمو نظام اقتصادى حسن فى نظر كل من البدوى والمستقر على السواء، لم يستطع إلا القليلون الإفلات من سحره، هذا كله سلسلة من الحقائق المتصل بعضها بالبعض الآخر والتى لا تترك مجالا للعوامل الجغرافية بمعنى الكلمة. وهل يستطيع أحد أن يشك فى سيطرة الدول الصناعية الكبرى وبطشها وقوة سلطانها ودهائها؟ لقد كان من نتائج الحرب الكبرى الأولى أن هذه المجتمعات المنحطة ـ كما يقولون ـ قد وقعت تحت سيادة أوربا أو أمريكا المتحضرة بحضارة أوروبا. ولتذكر دائما أن شعوب ميكرونيزيا وكارولينا الغربية. مثل الياب Yap والبالاو Palau، يستعملون عيدان الثقاب المستوردة فى إيقاد النار، وأنه عندما انقطعت السفن الدانمركية عن تصدير الطباق والثقاب والأسلاك، والأسلحة النارية، والمد، والفخاخ المعدنية إلى الإسكيمو عام ١٩١٧، قد كانت قد أصبحت من ضروريات حياتهم ، شعر هؤلاء البدائيون بأزمة شديدة، واضطروا إلى أن يعودوا ـ بقدر ما وسعتهم الحيلة، إلى وسائلهم القديمة. من الأدوات المصنوعة من العظام

---

(١) ويكوف «١١٨أ» ص ١١٢.

والظران. وكم من الأمثلة ما يشابه ذلك، مما يدل على المدى الكبير الذى انتشرت فيه المؤثرات الصناعية الغربية فى العالم ولماذا نقصر أنفسنا على الاقتصاد الصناعى والزراعة أيضا كانت لها آثار بعيدة هى الأخرى على البدو.

من الأسباب التى تشرح تقلص الرعى والبداوة، تقدم الزراعة وغزوها للسهوب المفتوحة، نتيجة لزيادة عدد السكان الزراعيين أو الأرقى حضارة، ولقد اجتمع اللاب، رعاة الرنة سنة ١٩١٧، فى مؤتمر ليحتجوا على استمرار تعمير بلادهم لأن تلك الحركة كانت تقتضى إنقاص حقوقهم فى المراعى، وقد كان لانتشار أساليب الزراعة الجافة فى الجهات الحارة نفس الأثر فى تقلص مساحة المراعى، وهكذا يظهر لنا أن عمل الإنسان، وتقديره، وحركاته وازدياد عدده، هى الأسباب الحقيقية الأولى فى تشكيل أساليب الحياة وليس التربة أو المناخ. هذا أمر مفروغ منه، ولكن هناك من يعترف ولكنه يغالط وينسب كل شىء إلى البيئة الجغرافية، لا لشىء إلا لأنه لا يستطيع الفكاك من طرق التفكير القديمة . لقد ذكرنا نتيجة أبحاث برنارد ولا كروا فى تطور البداوة، فقد كانا على حق عندما نسبا إلى «السلم الفرنسى» الأهمية الكبرى فى عالم الصحراء، ولكن برنارد(١) فى كتاب له عن مراكش الشمالية، يقول «شمال أفريقيا بلد الجبال حيث تستطيع الأسر، حتى أضعفها، أن تستقر وتدافع عن نفسها ـ وبلد السهوب، التى تضطر فيها القبائل، حتى أقواها شكيمة إلى التجوال فوق المراعى»، تضطر بالقوة ! يا لها من آراء قديمة خدّاعة.

حقا إن البدو «مدفوعون» لأن يسلكوا أسلوبهم المعروف فى الحياة ما دامت الظروف الاقتصادية لم تتغير فهم يطيعون قانون الستبس الذى يحكمهم، ولكن من الذى أدانهم إلى ذلك القانون، إن لم يكن الإنسان نفسه؟ يجب أن نتخلص نهائيا من اعتبار البداوة وما يقابلها من تحضر أسلوبين متغايرين فى الحياة، فليست البداوة حكما أبديا كما يقول جوتيير عندما وصف جماعات الصحراء. ويؤكد برنارد هذا الرأى قائلا(٢) : «يجب أن يلاحظ أن البدو يعبرون بسهولة

---

(١) برنارد «١٧٧» ص ١٤١ وقارن ما قلناه من قبل ص «١٨٦» من الأصل الفرنسى.

(٢) «١٧٧» ص ١٤٦.

الحياة البدوية إلى الحياة المستقرة والعكس» وتاريخ القبائل حافل بأمثال هذا الانتقال فى الحاضر والماضى، بالرغم من أنه يبدو إن البدو ما إن استقروا مدة ما، سيظلون فى استقرارهم إلى الأبد، فمما لا شك فيه أنهم عندما يفقدون حيوانهم يضطرون إلى الاستقرار ولكن ليس ذلك بصفة نهائية. أما إذا قطعت أشجارهم ولم يعد هناك ما يربطهم بالتربة، فإنه لا يمكن أن يستمروا فى حياة الاستقرار، ولا مانع لديهم من حياة الظعن والبداوة. ومعنى بدوى فى اللغة التركية هى قرغيز. ويخبرنا كاهون أن قرغيز قازاق مكونة من كلمتين، الأولى معناها الآفاق. والثانية قطيع، كما أن الفصيل أو الحيوان الذى انفصل عن قطيعة أو الطريد أيضا يسمى بالقازاق، وها نحن أولاء قد انتقلنا من الصحراء إلى سهوب وسط آسيا حيث نجد رجال القبائل يتنقلون بين حياة رعى الماشية وتربيتها[1]، وامتلاك الأرض وسكنى المدن المسورة وبين حياة الرعى فى السهوب تلك الحياة الخشنة، المستوحشة التى يحياها الطريد المغامر أو القازاق فى الصحارى. تغير مستمر، بين صعود وهبوط، حظوظ متفاوتة، بين ابتسام وعبوس ولم يكن كاهون فى معصم من أن يرجع التقلب الشديد فى خلق الأتراك إلى هذا الأسلوب المتقلب فى حياتهم[2] ، وسوف لا نساير هذا التفكير إلى نهايته. فإن الناس لا يعيشون فى العراء إذا استطاعوا أن يجدوا الأمن حتى لو كانوا من القرغيز، إذا كانت أمامهم السهوب التى تضمن لهم حياة أخرى.

إذن فمنذ أن اتصل البدو بالحضر، فإنهم لا يستطيعون الاستغناء عنهم، ومن الممكن وجود بدو مع قطعانهم منقطعين عن العالم أجمع - ولكن هؤلاء لم يكن لهم وجود فى التاريخ. فقد عاش البدو والمغول والقرغيز والترك قديمًا على الحبوب[3]، وقد حصلوا على الحبوب من السكان المستقرين وأعطوهم عوضا عنها منتجات قطعانهم وعندما سنحت لهم الفرصة للاستقرار فإنهم يتحولون إلى زراع بكل سرور ولكن إذا قبض الحضر أيديهم عن البدو، وإذا قضت الأوبئة

---

(١) كاهون «١٨٦» ص ٤٨

(٢) نفس المرجع ص ٤٩.

(٣) نفس المرجع ص ٥١.

على قطعانهم أو مالهم، أو إذا غزاهم جارٌ عاتٍ وأعمل فيهم السيف وساق أنعامهم، فإن من بقى منهم عليه أن يعيش،، أو بالأحرى قبول شظف العيش، ومن هنا كانت هجرة القرغيز إلى السهوب ، أو الاعتصام بالصحراء مثل القازاق، وعندما يشتد ساعدهم يعودون للأخذ بالثأر، فعلينا أن نتذكر أن البدوى مخلوق عاطفى، «تضرم عاطفته منظر الجبال الزرقاء ، والسهول الخصبة، والخيوط الفضية من الأنهار الجارية[1]، وتثير كامن شعور الفارس التركى الذى يطل على الصين الضخمة من فوق ذرى الهضاب، لكى نفهم أن البداوة ليست ولا يمكن أن تكون، فى آسيا أو أفريقيا، حياة أبدية أو نوعا من لعنة إلهية تصب فوق جنس ما.

هذا هو الخطر من «الصور» التى تنشأ على الطريقة الكلاسيكية، من أجزاء مستعارة من نماذج متعددة، هذه الصور لها فائدتها ولها مضارها، ولكن لا ينبغى أن نخدع بها، لأنها تبعد فى الواقع عن الحقيقة، وتحرم الجغرافيا من حيويتها، ولا تصلح الا للتكرار فى حجرة الدراسة.

وعلى أى حال يجب أن نتذكر ما سبق أن قدمنا به هذه الدراسة، من أن النماذج الاقتصادية ليست هى النماذج الاجتماعية ، ففى الصحراء وجدنا أنفسنا أمام طرازين مختلفين، الطوارق من ناحية، والعرب المغاربة من ناحية أخرى، كل منهما يشترك مع الآخر فى الظروف الجغرافية، ويعيش تحت نفس العوامل المناخية، ولكن بينهما أكبر الاختلاف فى اللغة، والثقافة والعادات، والتقاليد والتسلح للحياة، ويفصل بينهما كره عميق، ولكن التاريخ يخبرنا أن هذه الهوة العنيفة بينهما لم تحفر إلا حديثا ، ربطهما الأصل البربرى[2]، منذ اعتنق أحد الجانبين الإسلام ورحب به ترحيبا تاما، قلبا وقالبا، بينما ظل الجانب الآخر محتفظا بتراثه الوثنى، هذا المثال الذى صوره جوتيير صالح لكى يكون مثيرا للفكر أمام من تخدعهم المظاهر القديمة فى التفكير.

---

(١) جوتيير (١٨١ ب) جزء ١، ص ٢٣٥.

(٢) جوتيير (١٨١)، ص ١٦٧.

ـ ٥ ـ

الزراعة بالفأس اليدوية وطبيعة حياة الاستقرار

«لقد ذهب الفكر الأوربى أشتاتا أمام البداوة، فاعتبرها تارة مرحلة من مراحل اتقدم البشرى وأنه يبدو لى أن للبدو ـ فى الصحراء على الأقل ـ أرستقراطية مثالية» هذا هو صوت جوتيير فى ملاحظته المتناقضة، وهى ملاحظة قيمة لذاتها، ولأنها تلقى شيئًا من الضوء عل الصحراء، ولكنها أيضا تلفت انتباهنا إلى الدور الذى تلعبه الاعتبارات الاقتصادية ـ الرغبة فى الغنى ـ فى تطور أساليب الحياة، ولا سيما فى الانتقال من البداوة إلى الحضر.

وهناك سؤال مهم حول انتقال الناس من البداوة إلى الحضر، هل يعنى هذا أن كل الحضر ومروا قبل ذلك فى دور البداوة؟ لقد كانت هذه النظرية مقبولة وقتًا ما، ولكنها فقدت قيمتها الآن، وذلك تبعا للمعلومات الجديدة التى لدينا، فقد كان هناك ـ وسيظل دائمًا ـ عدد كبير من الناس يوقفون حياتهم على الزراعة القليلة المتسعة المدى extensive، وهؤلاء يمتازون بجهلهم تماما باستعمال الحيوان المستأنس. ولا سيما الثيران. تلك هى الزراعة التى يطلق عليها الألمان اسم زراعة الفأس اليدوية ـ Hackbau لأن الأداة التى تستعمل ليست المحراث، بل أداة قصيرة ذات مقبض منحن تجبر صاحبها على إحناء ظهره، وقد كانت تصنع من قبل من قرن الوعل، ثم من غصن معقوف وأخيرًا دخل فى صنعها المعدن فأصبحت تصنع من جزئين، يد خشبية وقطعة حديد. هذه هى الأداة التى يستعملها زنوج السودان، أو بالأحرى نساء الزنوج، مادامت النساء هن القائمات وحدهن تقريبًا بالزراعة هناك[1] ، أما الرجل فيحتفظ لنفسه بالأحمال

---

(1) Claerhout, l'outiblage agricole des néolithiques (Ann. soc) roy. arch, Bruxelles, t, xxvi,

الشاقة أو التى تحتاج إلى مهارة مثل إزالة الغابة وقطع الأشجار الكبيرة وإعداد الأرض لزراعة المنيوق التى يقوم بها النساء، وقد بلغ من أهمية الفأس اليدوية أن حدها الحديدى يعتبر عملة تقوم مقام النقود فى التعامل عندما لا تستعمل فى الزراعة حتى تبرى بأيدى الناس فى النهاية(١).

وهؤلاء الزراع لا يحرثون الأرض إلى أى عمق كبير، فالزنجى لا يتعدى خدشها(٢)، وهو يبحث عن حفرة صغيرة أو شق صغير فى الأرض لكى يبذر فيه البذور(٣)، ولما لم يكن لديه أى حيوان مستأنس، فهو لا يعرف شيئًا عن السماد الطبيعى ويعوض ذلك بحرق الأحراج من نهاية أكتوبر حتى ديسمبر(٤)، لأنه ينهك الأرض بزراعته(٥)، ولعل هذا هو السبب فى هجرته من مكان إلى آخر، فبعد بضعة مواسم قليلة يستعد للرحيل ويبحث عن قطعة أرض أخرى يزرعها. يحرق الأحراج أو قطع الأشجار حسب الظروف(٦) وهو يبذر أى نوع من البذر دون انتقاء أو اختيار، ذلك الاختيار الذى يكون حرفة الزراعة بالمعنى الصحيح، وبعد الحصاد بدأ فى الهجرة،، وربما هاجرت القرية بأكملها فى نطاق ضيق.

وليس هناك صنف ممتاز من الحبوب، سوى الدخن أو الذرة الرفيعة المتشابهة فى كل القارات ، فلم يعرف الأزتك سوى فى المكسيك، وهم أيضًا لم يستعملوا سوى عصى معقوفة(٧) فى نهايتها، ذات رأس مدببة من النحاس ومنجل حصاد للحصاد (ويعرف الزنجى بأواسط أفريقيا أداة كهذه يستعملها فى الحصاد(٨) كما أنهم كانوا يحرقون الأعشاب يستعيضون بهشيمها عن السماد الحيوانى، وكانوا

---

(١) كورو (١٧٩) ص ٢٦٥.
(٢) نفس المرجع ص ٣٠٠ - ٣٠١ ولوحة ١٤.
(٣) ديكروز ١٠٨ ص ٤٧٢.
(٤) برويل أفريقيا الاستوائية ص ٢٤٣.
Bruel, l'Afrique équatoriale.
(٥) مينود ١٨٨ جزء ١ ص ٣٧٤، برويل ص ١٣٠.
(٦) شيفالييه ١٧٨ ص ٦٢، وبرويل ص ١٣٠ وقارن هاهن
Die Brandwirtschaft in der Bodenkultur
(٧) كورو ١٨٩ ص ٢٦٥.
(٨) كابيتاز ولوران ٢٠٢.

ينظفون التربة بكل عناية لأنها كانت شيئًا ثمينًا. وربما جمعوا التربة بكل عناية على أعواد خشبية تشبه الحدائق العائمة (chinampa) التى كان يحتفظ الصينيون بسرها. ويعرفها الأوربيون.

ليس هناك أمر خاص بانتقال السكان من البداوة الرعوية إلى الزراعة المستقرة بين هؤلاء الزراع لأنه لم تكن لديهم ماشية، ولم يعرفوا شيئا عنها، ولم يطلبوا مساعدتها، ومن المستحيل أن يكون أصلهم رعوًا وهم يجهلون كل شىء عن الماشية، ومن ناحية أخرى فقد كان استقرارهم نسبيًا، فإنهم لم يكونوا مرتبطين تماما بالتربة، وأكثر من ذلك فإن الزراعة لم تكن مغروسة تمامًا فى نفوسهم. وقد أشرنا من قبل إلى القرى الأفريقية التى تهاجر عن بكرة أبيها من مكان إلى آخر ولو كان قريبًا من مقرها الأول ولا يمكن أن نفسر الصعوبات الاقتصادية،، من إنهاك التربة وضرورة تنظيف التربة من الأحراج والغابات تفسيرًا تمامًا بميلهم إلى الهجرة السريعة من مكان إلى مكان. ويجب أن نذكر أن هذه القرى الأفريقية لا تشبه بحال القرى الأوربية. تلك المراكز الثابتة للمصالح العامة والتى لها كيان جغرافى تاريخى خاص، والتى لها حياة مستقلة إلى حد ما عن حياة سكانها.

القرية الزنجية مخلوق فردى[1]، يؤسسها رجل ينفصل عن عشيرته ويبنيها لنفسه ولزوجاته ولأولاده وزوجاتهم ولأحفاده، ولكن هذه القرية لا تستمر طويلا فسرعان ما تختفى بوفاة الزعيم[2] ، وليس هذا لأن الزعيم هو الذى كان ينظم العشيرة فى سلك واحد، فإذا مات تناثرت خرزاته، بل لأن هناك فكرة شائعة عن الموت بأنه نتيجة السحر، إذا حل فى قرية وجب على أصحابها أن يفروا منها سريعا[3].

(١) كورو (١٧٩) ص ١٢٤.

(٢) نفس المرجع ٢١٧.

(٣) برويل أفريقيا الاستوائية ص ٢١٠.

ونحن نحتاج أن نغوص فى أعماق نفسية الزنجى لنفهم هذا الأمر، وعلينا أن تتذكر أن الشعوب البدائية شديدة القابلية للتأثر، ولا سيما تلك التى تعيش فى الغابات مثل التى وصفها «ميتر ـ Maître» فى كتابه الغريب[1] فهو يصور لنا تلك الشعوب المسكينة بعقولها التى لا نستطيع أن نفهمها يروعها خوف غامض من نتائج أحداث لا يستطيعون تفسيرها أو جريمة قتل دون سبب ظاهر، ثم تهرب فجأة وقد استبد بها الذعر، ملتجئة إلى الغابات، تاركين أكواخهم الحقيرة التى أنشأوها بعد تعب. فهذه عوامل نفسية واقتصادية وأخلاقية كذلك. فهناك باستمرار خطر أخلاقى على الحياة المستقرة فى مظاهرها البدائية، مختلف تماما عن الخطر الطبيعى تترتب عليه آثار جغرافية لا شك فيها.

---

(١) ميتر ١٩٢ مكرر.

- ٦ -

مراحل الانتقال

المجتمعات البشرية ليست بسيطة فى الواقع. فالأنواع النقية فيها شاذة جداً، أما القاعدة فللأنواع الانتقالية. فهناك رعاة سلكوا أكثر من نصف الطريق نحو الاستقرار، لا ترحل إلا أنعامها، بينما هم مستقرون فى مجتمعات خاصة مرتبطة بقرى زراع مستقرين، مثل الفولا والتوكولور فى النيجر[١] ، ويكتفون بامتطاء جيادهم وزيارة قطعانهم فى مرابعها تحت حراسة رعاتها من وقت إلى آخر ، ويشبه هؤلاء الزراع الذين يعيشون حياة نصف بدوية فلاحى سهل المجر، الألفولد[٢] فى قلب أوربا، وهؤلاء يهاجرون فى الصيف الى حيث مراعى ماشيتهم ، فى مساكن مؤقتة، ولا يعودون إلى قراهم إلا فى الشتاء.

وكذلك هناك رعاة نصف فلاحين، مثل هؤلاء الذين يزرعون، بعض البقع الملائمة فى فصل الربيع ويعودون لحصادها فى الخريف، وأنصاف البدو فى هضاب إيران الذين وصفهم (Richtofen)[٣] وهؤلاء يعيشون فى الشتاء فى بيوت ثابتة، يبذرون فى الربيع ثم يصعدون فى الجبل حيث يقضون فصل الصيف ثم يهبطون إلى الوادى فى فصل الحصاد. وهناك القرغيز الذين حلل حياتهم «رختوفن» ويعيشون على حدود المنطقة الجبلية، ونستطيع أن نرى كيف تساعد هذه الظروفالطبيعية على الانتقال من حياة البدو الرعوية إلى حياة الاستقرار الزراعية.

---

(١) ميتر ١٨٨.

(٢) دى لاجره ١١، ١٩٠١ ص ٤٤١.

(٣) Richtofen, Vorlesungen uber allgem stidlungs u. Verkehrsgeographie

كما أن هناك زراعًا يقتنون الحيوانات، ثم لا يميلون إلى حياة البدو الرعاة ولكن إلى حياة الفولا والتوكولور، الذين لا يتحركون إلا بقدر، ولكنهم يتركون ماشيتهم ترعى فى السهوب، وحالة الانتقال هذه جديرة بالاهتمام. فقد يبدو أن اقتناء احيوانات ضرورة زراعية، وأن الزراع وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تربية الماشية وتحسين نوعها، ولكن هذا أمر مستبعد كما أن جوتيير يصور لنا البدوى الأرستقراطى، الذى يسود الحضر، والذى يجبرهم فى الصحراء على العمل لمصلحته، وعلى النقيض من ذلك يصف مينود (Meniaud) أسلوب حياة المالنكا والبامباراس فى النيجر[1] هؤلاء الزراع الذين يعيشون على الزراعة البدائية، ولكنهم يحصلون على الماشية بتبادل محصولهم من الحبوب فى مقابل الماشية مع الرعاة الفولا أو المغاربة أو الطوارق، وتلك هى وسيلتهم فى جمع الثروة، ولكنهم لا يعتنون بها العناية اللازمة ، فلم يفكروا يومًا فى المحافظة على المراعى أو جمع الحشائش وتجفيفها فى فصل الصيف لغذاء الحيوان شتاء، ولكنهم بالرغم من ذلك يحتفظون بها، ولعمرى تلك طريقة غريبة لا جدوى منها فى جمع الثروة، من الصعب المحافظة عليها، ولا تجدى نفعًا لصاحبها، وربما كان هذا هو السبب فى أننا نجد بعض الماشية فى وسط أفريقيا تهيم على وجهها مع الحيوانات المتوحشة، مثل الوعول والزراف والنعام الفيلة[2].

وعلى الرغم من ذلك فتلك ثروتهم التى يعملون باستمرار على تنميتها[3] - ولكنها ثروة غير مفيدة لا يحاول أصحابها الاستفادة منها، فهم لا يحاولون بيعها، وما جدوى النقود لهم؟ ولكن هناك نوعًا آخر من التجارة يقوم به العرب مع الدنكا، فهم يتبادلون بقرة واحدة من كردفان أو الحبشة فى مقابل خمسة ثيران، إذ إن البقر تعمل على كثرة تناسل القطيع.

ويستخدم المالنكا والبامباراس فى زراعة الأرز والبطيخ والقطن ويرون فى اقتناء الماشية أحسن أنواع الاستغلال الاقتصادى، ولكنهم مثل البدو لا يبيعون

---

(١) مينو (١٨٣) جزء ٢ من ١٦ وما بعدها.
(٢) قارن بيير (١٢) جزء ٢٦، ١٩١٢.
(٣) هذا يشبه ما يحدث لدى الهوتنتوت، قارن ديمانجون، (١١) ١٩٠٨، ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

صغار الماشية، بل يتركونها حتى تهرم فهى رأس مال ينمو باستمرار، ويشعر المرء منهم بالأمن والطمأنينة وفى حيازته هذا العدد الكبير من الماشية، يرعاها كما يرعى الوالد أولاده، لا يبيعها ولا يستبدلها بالنقود.

ويجب أن نتذكر أن من الصعب على هؤلاء الزراع البدائيين، أو أنصاف الزراع أن يسلكوا سبيل البدوى الراعى لأن الزراعة تعوقهم فى ذلك، ولكن الزراعة وحدها هى التى تدعو إلى العناية بالماشية وتربيتها حق العناية والتربية ولكن أنى لهؤلاء الذين لا تكاد تكفيهم مواردهم الزراعية، أن يعنوا بماشيتهم حق العناية؟ فعلى الماشية أن تعنى بنفسها، تهيم على وجهها فى الفلوات وتقتات من خشاش الأرض ، ولكن الحال تتغير إذا استغلت الأرض لتنبت علف الماشية، ومن هنا لا نجد تناقضا قط بين الحرفتين، بل إن كل منهما تكمل الأخرى، وهناك تداخل بين الواحدة والأخرى على الأقل بين (الزراعة) و (تربية الماشية) كما نفهمها بالمعنى الصحيح، أما الصعوبة التى نواجهها فى هذا البحث فهى ناشئة من أننا نصف نوعا من الزراعة أو تربية الماشية مختلفا كل الاختلاف عما نفهمه فى مجتمعنا المتحضر فإن مجرد امتلاك قطيع لا قيمة له إطلاقا سوى كونه رأس مال غير مستثمر، لا يفرط فى أي جزء منه سوى للضرورة القصوى ، وهذا ليس فى الواقع تربية للماشية ، كما أن الحفراريج الستغالية بعيدة كل البعد الديكة البريسية السمينة، ولا يمكن مقارنة الثور السودانى بالثور الشاروليه. وهل فى هذا ما ينبه أولئك الذين لا يبحثون عن الحقائق ويجرون وراء الألفاظ.

إن المجتمعات البشرية المختلفة تعيش تحت ظروف متغيرة تغيرًا لا نهائيًا وعلاقاتها بعضها بالبعض الآخر معقدة غاية التعقيد، أما أن نأخذ الفلاح الشمالى ونقارنه بالبدوى فى صحراء العرب ونعلن أنهما يعيشان فى طرفى نقيض ، فهى وسيلة رخيصة لإظهار الفرق الشاسع بين الجماعات البشرية، كما أنه من عبث الأطفال أن نأخذ هذين المثالين لتشييد نظرية عامة فى التاريخ «الصراع الأبدى بين البدو والحضر» علينا أن نخصص قبل أن نعمم، فكل علم يبدأ من كم معقد، عليه أن يشرحه، وأن يبسطه ، إذا أمكن ،إلى وحدات بسيطة، ولا يمكن العلم أن يبدأ من وحدة مفروضة مقدمًا.

تربية لماشية والبداوة والزراعة والاستقرار كل هذه كلمات غامضة جوفاء، لا تعبر عن آراء واضحة، فالحقائق أكثر تعقيدًا وأكثر تنوعًا مما نتصور، ولقد فرغنا الآن من الحديث عن هذه الحرية الغريبة، وهى الزراعة المتنقلة التى تتضح الآراء القديمة، ولكن لا هذه الحرفة ولا زراعة الفأس اليدوية التى تقوم بها قبائل أواسط إفريقيا المستقرون[1]، تشبه من قرب أو بعد زراعة الحدائق التى يقوم بها الصينيون واليابانيون الذين يستخدمون النفايات البشرية بدلا من السماد الحيوانى، كما أنهم يستعيضون عن عمل الحيوان بكد الإنسان ولا يصلح للزراعة فى الصين سوى ١٢٥ مليون فدان من ١٠٠٠ مليون فدان (٥٠ مليون هكتار من ٤٠٠ مليون هكتار) ، أما الباقى فموزع بين الغابات والمراعى والأوقاف العامة والأوقاف الدينية والمدن.

وزراعة الحدائق هنا تختلف عن الزراعة التى نعرفها فى أوربا، فالأولى تعتمد على كد الإنسان وحظه بينما الثانية تعتمد على كد الإنسان والطاقة الحيوانية واستعمال الأدوات الزراعية الكاملة من المحراث إلى الآلات الزراعية[2]، وأكثر من ذلك فإن هذه الزراعة تتحول بالتدريج إلى زراعة علمية، فالبذور تنتقى لملاءمة أنواع التربة والمناخ المختلفة، ويعوض الأسمدة الطبيعية أو الكيميائية ضعف التربة وإنهاكها وأخيرًا يختار عددًا صغيرًا نسبيا من الأنواع النباتية للاستغلال الزراعى وتقتبس أساليب مختلفة للاستغلال الاقتصادى، يعتبر كل واحد منها خاصا ببعض المجتمعات البشرية، فى جهات أخرى من العالم.

إذن فنحن لا يحق لنا أن نتحدث عن أسلوب الزراعة المستقرة، وهذه فى الواقع لم تنشأ إلا من زراعة الأشجار، التى تحتاج إلى عناية طويلة، وإلى وقت طويل حتى تنتج، ومن ثم فلابد من حراستها من يد الإنسان العابثة أو أظفار الحيوان المخربة، فالشجرة التى يحرسها سور صغير من الشجيرات الشوكية أو

---

(١) اقرأ هاهن (دور زراعة الحدائق فى تاريخ الإنسان) Gartenflora, 50.1910.p.346.

(٢) ركلوس (١٩٤) ص ٤٩٦.

الحجارة تبعث فى النفس بالتدريج الشعور بالملكية وبالأرض كوطن[1] ، ولكن ممارسة الرى تزيد الإنسان ارتباطا بالأرض، رى سطحى بواسطة إغراق الأرض بالماء، طريقة سهلة وبسيطة يقوم بها زراع الأرز فى شرق الهند قبل التدخل البريطانى؛ أو رى بواسطة القنوات، والرى عملية معقدة دقيقة تعتبر بحق أساس زراعة الحدائق التى يرجع إليها الفضل فى غنى الصين، وفى كونها بلد الزراع المستقرين، المرتبطين بالأرض ارتباطا وثيقا والذين يرون فى الزراعة أنبل وأشرف حرفة للإنسان[2].

أما النتائج التى عادت على المجتماعات البشرية من الزراعة المستقرة الكاملة ومن مثل هذه القواعد الثابتة للحياة، فهى أشهر من أن تذكر هنا ويكفى أننا حاولنا أن نوضح مراتب التطور فى المجتمع البشرى، والحقيقة أكثر تعقيدا وتشعبا من النظريات الفجة أو الملخصة[3].

---

(١) ريتشهوفن (١١٦) ص ١٧١.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) قارن .Hitier, l' evolution de l'agriculture انظر (١١) ١٩٠١.

الباب الرابع
المجتمعات السياسية والتجمعات البشرية

لقد درسنا فى الفصول السابقة أثر العوامل الطبيعية فى المجتمعات البشرية وقد بحثنا عن قوانين جغرافية ولكن عبثا كنا نحاول. وقد لاحظنا باستمرار وجود عدد كبير من التوافقات الممكنة والتى لم يتحقق فيها إلا عدد قليل.

لقد بدأنا بأن بينا أن فكرة المشكلة السياسية والمشكلة البشرية، أمر واحد(١). وعندما علقنا على رأى راتزل من أن «المجتمع هو الرابطة التى تربط الدولة بالأرض» قلنا إننا لا نستطيع أن نعتبر المجتمع مجرد لعبة داخل صندوق ـ هى الدولة ـ صندوق يتسع أحيانا ويضيق أحيانًا(٢) . وقد حاولنا أن ندرس المجتمعات البشرية وهى قائمة فى بيئاتها، وتستمد حياتها منها وهذه الدراسة أمر ضرورى لأن الدولة تقوم فى الواقع على قطعة من الأرض، وتستمد حياتها ومقوماتها منها، ولذلك فنشأتها فى الغالب جغرافية. ومن حيث المبدأ لا داعى لتفرع فرع من الجغرافية السياسية مستقلا عن الجغرافيا الاقتصادية التى تعتمد اعتمادًا كبيرا على الجغرافية الطبيعية وليس من الضرورى فى رأينا ـ أن نبحث عن أثر البيئة الجغرافية على الدول، بحثا مستقلا عن أثرها على البشر، أو على المجتمعات البشرية التى لا نعتبر الدول إلا إحدى وسائل التعبير عن أحد أوجهها.

---

(١) المقدمة، الفصل الثانى الفقرات ٤، ٥.

(٢) ص (٢٥) من الأصل.

وعلى الرغم من هذا، فربما كان من المفيد أن نستعرض بعض الحقائق ذات الصبغة السياسية، لكى نبين علاقتها بالعوامل الجغرافية الثابتة ولكى نمهد الأرض من عدد من العقبات الفكرية على الأقل، ولذلك فنحن نوقف هذه الفصول فى هذا الباب الرابع والأخير من كتابنا لهذا الموضوع.

الفصل الأول

مشكلة التخوم السياسية، والأقاليم الطبيعية للدول

إن هناك ثمة ما يسمى بالجغرافية التاريخية، وإن كان هذا العلم لم تفسده تلك الدراسات الناقصة عن أسماء الأعلام الجغرافية أو تحقيق الحدود السياسية، أو وصف التاريخ الإدارى[1] للأقاليم وصفا جافا، فإن أهم مشكلة يجب أن يعالجها هذا العلم هى مشكلة وجود الأمم الكبرى التى تعيش فى العالم الآن.

إنها تبدو لنا، وربما كان لنا الحق فى ذلك، شخصيات تاريخية حقيقية وشخصيات معنوية كذلك. فلهذه الأمم حياتها الخاصة الداخلية ومظهرها الخارجى، بل وشخصيتها الطبيعية، وشكلها الخارجى وكيانها المادى الخاص بها، لدرجة أننا عندما نفكر فيها، لا نتصورها فى غير هذا الكيان ، ويبدو لنا شكلها كما لو كان ضرورة أدبية لابد منها. ففرنسا وإيطاليا وإسبانيا وبريطانيا، لكل منها حقائق أساسية نقبلها دون أن نحاول أن نناقشها، وإذا تأملنا خريطة قديمة لفرنسا، مثل الخريطة الموجودة فى أطلس لونجنون (Longnon) الذى يبين مساحة فرنسا فى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر، فنحن فى الواقع لا ننظر فيها بإمعان ، أو لا نحاول أن ننفذ إلى ما تحمله من معان، مجموعة أسباب ونتائج، لا تتبع قانونًا محددًا واحدًا، ولكنها مجرد واحد من عدة إمكانيات، تحقق فى وقت معين على الأقل ، وبدلا من أن نبحث عن الإمكانيات المتعددة، والظروف التى كان من الممكن أن تتوافق، لتخرج عددًا آخر من الإمكانيات بدلا

---

(١) قارن الملاحظات ص ٦٥ وما بعدها فى
Tourneur - Aumont, l'Alsace et L'Alémanie, paris 1919

منها. قبلنا الوضع الذى حدث وشكلناه على هيئة «أسباب ومسببات» وأكثر من ذلك، نرجع بذاكرتنا إلى فرنسا أيام سانت لويس أو أيام شارل السابع، صورة فرنسا فى وضعها المثالى، وليست فرنسا الحالية، فرنسا ذات «الحدود الطبيعية».

- ١ -

نظرية التخوم الطبيعية

تبدو لنا المسألة كلها ، فى شكل مشكلة الحدود، وترسب فى قرارة نفوسنا، دون أن نلاحظ فكرة، «الحدود الطبيعية» للدول الكبرى، مما يجعلنا ننظر إلى حدودها كأشياء قائمة بذاتها، ذات قيمة منتجة نستطيع أن نسميها فضيلة ذاتية وهى فى الوقت نفسه قوة خالقة تفرض نفسها فرضا.

وكان من أهم أعمال المؤرخين والجغرافيين فيما سبق، هو تحديد هذه الحدود السياسية وتعيينها على وجه الدقة فيبدأون أبحاثهم بقولهم: «تحد الدولة من الشمال... ومن الجنوب... ومن الشرق... ومن الغرب» كأنما يؤديان تحية إجبارية للاتجاهات الأربعة الأصلية، وأما عن الدولة نفسها، فإن الجغرافى يكتفى مثل كل طباخ ماهر بتمزيقها إربا إربا وتركها بعد ذلك[١] ، ولقد وضعت حدود الأقسام الفرنسية الحالية، فى الوقت المناسب الذى اختاره الجغرافيون التاريخيون ليملأوا صدر الموظفين الرسميين فى وزارة الداخلية زهوا وخيلاء. أما فرنسا القديمة فكانت لها «مقاطعاتها القديمة» التى كانت كفيلة بسد جميع الرغبات[٢]، ولكن استعيض عنها بأشكال هندسية مزقتها إلى أقسام واكتفى الباحثون بالشكل دون الجوهر، وتساءلوا هل كانت فرنسا ثمانية الأضلاع أم سداسيتها، وشغلوا بالجدل العقيم فى ذلك.

أما عن الحدود السياسية فلم تكن مجرد خطوط. ولم تكن قيمتها وقتية أو نسبية، ولم تكن المسألة مسألة حدود سياسة، بل مسألة فواصل «طبيعية» بكل ما

(1) Febvre L. Histoire provincial, Rev. bourg.de l'Enseignement superieure, Dijon 1912.

(2) Brette, A. les Limites et les divisions territoriales de la France en 1879. Paris 1907, chap. III, pp 57.

تحمله كلمة طبيعية من معان وفلسفة، وعندما نتحدث عن هذه الفواصل الطبيعية، فنحن فى الواقع نتحدث عن حدود مثالية وضعتها الطبيعة، وأصبحت مُثلا يجب أن نجاهد لكى نحققها وهناك باستمرار هوة بين الحدود الطبيعية والحدود الموجودة فعلا، وهذا ما يكدر. ولذلك يجب أن تختفى، هذه الهوة. والمؤرخ الذى يتأمل خريطة فرنسا عند وفاة «فيليب لى بل»، يعرف أن هذه الهوة كان يجب أن تختفى وأن حدود فرنسا لم يكن لها أن تقف عند نهر الرون. وأن مقاطعات دوفينيه، سافوا، ثم ترس شمالا وفرانش كونتيه والألزاس واللورين.. الخ، كان يجب بحكم الضرورة أن تنضوى تحت لواء الوحدة الفرنسية». ولكنه يلاحظ أن نافار ـ التى كانت موالية لحكم الكابيت، تتخطى حدود فرنسا الطبيعية، إلى الناحية الأخرى من جبال البرانس، وهو عندئذ يتغاضى عن ذلك، إذ إن هذا يعوضه غياب رسيللون من الناحية الشرقية لجبال البرانس.

ومن المفيد أن نصنف هذه الحدود الطبيعية. هناك أولا أذرع بحرية ومحيطية تحيط ببعض هذه الحدود، ويبدو أن هذه أكثر الحدود بداهة، وأحسنها على الإطلاق، والحدود التى لا يمارى فيها أحد، وأما عن واقعة انقسام بريطانيا إلى عدد من الممالك المتنافسة، عدة قرون، فهذه فضيحة تاريخية يحسن إسدال الستار عليها. بعد البحر ـ كفاصل طبيعى ـ نجد أن أهم الحدود الطبيعية فى دول غرب أوربا، هى سلاسل الجبال ومجارى الأنهار.

ومن الغريب أن تلك الحدود الطبيعية كانت تسيطر على دراسة الجغرافيا الطبيعية فى الماضى، فلم تكن الجبال سوى «سلاسل» من المرتفعات، صعبة الارتقاء، تنهض بين الأوطان كحوائط أقامتها الأقدار. ولم تكن الجبال فى نظر الباحثين سوى عوائق وحوائط؛ فلم تدرس قط لذاتها، وكانت تعتبر فواصل لا مناطق جديرة بالدراسة. ونذكر هؤلاء الذين تحمسوا لفكرة الفواصل الجبلية.، والذين وصفوا البرانس وصفا مسهبا وأعجبوا بكونها المثال الذى لا يبارى للحدود الطبيعية «أبرز الظواهر الطبيعية ، وأبسط الخطوط التى رسمتها الطبيعة كأروع وأعظم ما تريم»[1]، لنذكر هؤلاء بأن جبال الأبنين تتوسط شبه جزيرة إيطاليا من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، ولم تفصل بين جزءيها

---

(١) جالوا (٣٤) ص ٣٠ وما بعدها.

الشرقى والغربى، بل إن الدويلات الصغيرة كانت تقوم عبر الجبال من الشرق إلى الغرب، كالحقيبة المتفتحة من الوسط فوق ظهر رجل قوى.

وقد أثر فى إظهار هذه النظرية، ما كتبه بوش سنة ١٧٨٢ فى «مثال فى الجغرافيا الطبيعية.. عن توزيع الأخشاب فى العالم» وفى رسالة جالوا «الأقاليم الطبيعية وأسماء الأوطان»، وما تحدثوا فيه عن أحواض الأنهار، التى تحدها ممرات جبلية، تنصرف مياهها فى هذه الأحواض، وكان لهذا وأمثاله أثره فى إبراز أهمية الجبال فى تخطيط الحدود السياسية، وإذا لم تكم هناك جبال، فلا بأس من الالتجاء إلى أى نشز من الأرض، ليحل محلها، دون تورع.

وكانت الأنهار من - من أقدم الأزمنة - تتبادل الأهمية مع سلاسل الجبال، كحدود سياسية. وعندما تبدأ فى قراءة الصفحات الأولى من كتاب قيصر، ذلك الكتاب صاحب الأهمية التاريخية الكبرى، نجد أنه يحفل كثيرا بأهمية الأنهار كحدود للقبائل فهو يقول: يفصل نهر الجارون الغاليين عن الأكويتان، كما يفصلهم المارن عن البلج (أو البلجيك) Gallos ab Aquitanis Garumna flumen, a Belgis matrona et Sequana dividit. ويقول إن الجرمان تعيش على العدوة الأخرى لنهر الراين، وهذا تصريح قديم مهم، كلف الأوربيين أنهارا من الدماء لتأكيده أو تحطيمه، ولقد ظلت الفكرة قائمة بعد، وهى أن مجرى الماء؛ مهما كان ضئيلا سهل العبور، صالح لأن يكون حدا سياسيا، وأن مجرى الماء - الذى لا نتصوره على حقيقته، أى جدول يترقرق بين المروج اليانعة - ولكننا نتصوره - كما يبدو فى الخرائط - خطا أو بالأخرى حدا بالضرورة، لا يمارى فيه ولا يجادل بشأنه وهذه الفكرة لا تزال قوية حتى وقتنا هذا، بالرغم من الأمثلة العديدة التى تثبت أنها فكرة واهية.

ومن أهم الأمثلة التى تدل على ثبات هذه الفكرة مثل قاطعات الحدود الفرنسية، من بدء الحرب العالمية الأولى فإن أى قائد يريد أن يطبق على عدد محتل لمصب وادى من الأودية، عليه أن يحيط به من كلا الجانبين، الأيمن والأيسر، اللذين يجب أن يكونا تحت قيادة واحدة، يحمى أحدهما ظهر الآخر فى زحفه، هذه حقيقة لا تحتاج لنقاش. ولكن للأسف كانت سبل الدفاع متأثرة

بفكرة الأنهار كحدود فاصلة، بحيث تنقسم إلى أقسام، يعهد فى الدفاع عنها إلى كل قسم على حدة. ومن جانب واحد، ليس هذا فقط بل كانت خطوط الدفاع تقام على جانب مجرى الماء. الذى لا يطمئن إلا فى قاع الوادى. وبذلك أهمل جانبى الوادى المرتفعين نفسيهما.

ولنأخذ مثلا جغرافيا آخر، أورده هيوبرت، الذى كان على رأس بعثة إلى داهومى يقول هذا المؤلف إن «الحقائق الجغرافية» كانت دائما تلعب دورا مهمًا «فى الحدود الطبيعية» فى منطقة نهر النيجر[١]. وقد استطاعت قبائل الجرما أن تصل إلى نهر النيجر من الشرق، «تخطوا بذلك حدود قبائل السونراى، ولكنهم لم يعبروا نفس النهر ـ وهو النيجر ـ الذى لم يستطع الفولا، وهم حلفاء الجرما أن يعبروه أيضا. «وهكذا كان نهر النيجر فاصلا طبيعيا بين القبائل» وهناك مثل آخر من إحاطة أنهار كوفو، تو، ويمى والبحر بقبائل الفون (فى رأينا أو فى رأى الفون؟) كما تحيط أنهار المارن والسين والأواز بجزيرة فرنسا. ولنعترف بالحقيقة وراء هذه الوقائع. ولكننا لا نزال نشك فى مسألة «الحدود الطبيعية» عندما نواصل القراءة فى نفس الكتاب «أما عن الأنهار، فيما عدا النيجر ونهر الويمى الأدنى، فإنها لا تكون أى خط دفاعى للفصل الجاف. عندما تجف وينصب منها الماء»[٢]. وأكثر من ذلك، فهل لا توجد قبائل نيجيرية تعيش على جزره. وعلى ضفافه من الجانبين، بحيث لم يكن النهر فاصلا بين منازلها، بل معبرا؟ فمثلا هناك قبائل الدندى التى تسكن على جانبى النهر، بين بيكينى وجازة وغيرها كثير.

ويعطينا المؤلف تفسيرا نفسيا وسياسيا للحقائق التى أوردها، بعيدة كل البعد عن التفسيرات الطبيعية، ولا صلة لها بأثر العوامل الطبيعية، أو الحدود الطبيعية؛ ويورد هذه الأسباب فى ص ٥٤٥ من كتابه عندما يقول: إن القبائل القوية عازقة ـ كما يبدو على أن تمد حدودها (التى اتسعت اتساعا كبيرا خطرا لا شك فيها بحيث لا تستطيع أن تسيطر عليها) وراء حدود جغرافية فعلية، صنعتها أنهار أتا كورا، والنيجر وويمى، وكوفو. وهذه ملاحظة معقولة جدا وتدل

---

(١) هوبرت (١٨٢) ص ٥٤٤.

(٢) نفس المرجع ص ٥٤٨.

على حكمة فليس نقطة الخلاف هى ما إذا كانت بعض «الوقائع الجغرافية» كما يقول هيوبرت، تتفق مع الحدود القبلية، ولكنها فى دعوى وجود «حدود طبيعية» ذات أثر حتمى، تفرض نفسها فرضا، على الحركات البشرية ، ويفسر بها الحدود القبلية وغيرها من الحدود السياسية هنا - كما فى غير ذلك المكان - ويجب أن نأخذ فى الاعتبار أفكار البشر ورغباتهم، فبعض القبائل قد تحب أن تقيم نهرا أو جبلا كحد طبيعى لها، وربما دفع بها الطمع السياسى أو الاقتصادى إلى مد حدودها إلى جانب دون آخر، نحن دائما ندرس جماعات إنسانية، ويجب ألا نغفل مطلقا العامل النفسانى للأفراد، بل وأكثر من هذا، للجماعات.

- ٢ -

خطوط حدود أم مناطق حدود؟

منذ أن بدأت الجغرافيا تتحرر من قيود الأسماء والألفاظ، وتؤكد مكانتها كعلم بين العلوم الموضوعية الأخرى، بدأت فى نفس الوقت تناقش مبادئها مناقشة موضوعية وتضعها موضع الشك والنقد لكى يثبت منها ما يثبت ويذهب منها ما يذهب، وكان من أول هذه المبادئ والأفكار العتيقة فكرة «الحدود الطبيعية».

تدرس الآن ظواهر الجبال والأنهار والغابات، لذاتها، كموضوعات خاصة، وبذلك تفصح بالتدريج عن كنهها.، وهى فى أغلب الأحوال حدود لا شك فيها، كما أنها أيضا عوائق طبيعية ولكنها أيضا معابر، ومراكز للتجمع والانتشار، عوالم صغيرة لها قيمها الخاصة، تجذب إليها الناس وتربط بينهم وبين الأقاليم التى تقع على جوانبها، وعلى أية حال فهى ليست حدودا «بالضرورة».

وقد تكون الأنهار حدوداً؛ ولكن من يستطع أن يفصل الحقيقة عن الأوهام، سواء كانت نفسانية أم سياسية، فيما يتعلق بنهر الراين كفاصل بين الغاليين والجرمان كما قال قيصر؟ إن مسألة الراين أكبر وأصعب من أن تحل فى هذا المكان، ولذلك نكتفى بتسجيل وجودها. ولكن إلى جانب الراين، من ناحية كم من «الأودية» من الناحية الأخرى سجل أهميتها التاريخ، كوحدات طبيعية يسكن الأقوام على جوانبها ـ وليس على جانب واحد؟ ـ كم من الجماعات النهرية تعتمد فى حياتها على الأنهار وتستمد كيانها ووجودها وقوتها منها؟

لقد وصف برون مجرى نهر الفولجا، وهو يهبط من روافده العليا، وأهميتها من وجهة النظر الجغرافية[1]، ولم يهتم بالظواهر الجغرافية الأخرى غير النهر

(١) برون، (١١) ١٩٠٨، ص ٧٩.

نفسه ويقول «إن النهر ظاهرة جغرافية فعالة، تغير من طبيعة الإقليم الذى يشقه ويخلقه خلقا آخر، فهو يشق واده ويشق مجراه ونحن إذ نتتبع مجراه، نعرف مجراه، واديه وشطآنه. ولا شىء غير هذا» فكل نهر عالم خاص صغير - سواء تحدثنا عن الأنهار الروسية الكبرى، بشطآنها المختلفة المتناقضة الصفات، أحدها منخفض، رملى، تغطى الشجيرات والأجمات، كثير الجزر النهرية الصغيرة، والمستنقعات، والآخر مرتفع سريع الانحدار[1] أو كان نهر الساءون الذى يجرى فى واد متسع كثير المستنقعات، أو نهر الراين وهو يجرى فى الألزاس فى منطقته وليس خطا مستقيما، بل كثير المنحنيات والإنشاءات. فى منطقة مستنقعات، وأجمات، وجزر نهرية متعدد المجارى والأفرع المائية، كثير الأخوار، ولكنه أيضًا كثير الخيرات ، من الأسماك، والطيور المستوحشة. وحقول القمح.. هذا غير صلاحيته الكاملة للدفاع بين خنادقه المائية وأجماته[2]. وهذا ولا شك يدل على أنه طبيعة قائمة بذاتها فى الألزاس . ولكن خارج الألزاس، كان النهر مفيدا جدا كحد طبيعى، هذا إلى جانب حقول القمح فى مصاطبه الكبرى، التى كانت مصدر، ثروة للإقليم الذى يقع بين جزيرة فرنسا، وتلال الفوج الأمامية، والكروم التى تعتبر أمرا جديدا بالنسبة للراين، كما أنها أمر جديد فى برجانديا بالنسبة للساءون وأخيرا جبال الفوج، الحليف الطبيعى لسكان الجبال وسكان السهل.

فهل يمكن اعتبار مثل هذه الجبال فواصل طبيعية؟ إنها منطقة طبيعية، غابة ضخمة، تنتهى بمدرجات رعوية واسعة، مهمة لذاتها، ولمصادر ثروتها، التى كانت مصدر طمع السكان الريفيين - من أقدم العصور[3] - الذين يسكنون شرقها وغربها، ولكنها منطقة لا تعيش حياة خاصة وحدها، مقفلة داخل حدودها، منعزلة عن غيرها، فالجبال كما يقول تورنيرادمونت[4] بحق بالنسبة للألزاس، مثل الأردن بالنسبة للوالون، أو الجورا بالنسبة لإقليم رومانس أو الألب بالنسبة للرومانيين وراء ترنسلفانيا، هذه الجبال مصدر قوة قومية لا يستهان بها. «الفوج

---

(١) فيفر، أقاليم فرنسا، فرانش كونتيه Revue synshése historquc, paris, 1905,p.19
(٢) . Tourseur - Aumont, L'alsacc ct L'alémanic paris 1919, p.71
(٣) بونيه (٨١٢).
(٤) نفس المصدر.

معبر سهل إلى السهول، فهناك علاقة وثيقة رابطة قوية بين السهل والجبل، لا يساهم فيها نهر الراين، فعلاقة السهل يالجبل أقوى من علاقته بالراين» ولم تكن جبال الجورا قط، حاجزا[1] بين سهول سويسرا المرتفعة وبين جيرانهم الغربيين، بالرغم من أنها تبدو خطا واضحا فى الخريطة، يمتد بحافة شرقية، تطل على بحيرات سويسرا وهضابها (إقليم هلفسيا القديم) وتواجه جبال الألب، ولكنها كانت منطقة وثوب بين السويسريين وبين الكونتوا contois فى الغرب، يتحاربون ويتعاركون على امتلاك المروج الغنية والغابات التى تقع بينهما، وهى الشو، والجو "Chaux" & Joux". أما فيما يختص بالبرانس، هذا الحائط السريع الانحدار، والمستقيم، المتصل البنيان «التى تشقها فتحة أو فتحتان، ولكنه لا يزال حائطا» يقول نفس المؤلف، وهو مؤرخ لا خبرة له بالجغرافيا، لو أمكن لنا أن نتصور حدا سياسيًا بين أمتين، ثابتا، غير قابل للزحزحة، خلال القرون القليلة لتاريخنا القومى، أليس هذا الحد هو جبال البرانس؟ ولكن هذا ليس بصحيح، على العكس، إن تاريخ حد البرانس، تاريخ معقد كثير الاضطراب»[2] ونحن لا ندهش من هذا التصريح، ألم نتحدث من قبل ونردد قول كافاييه Cavaillés وماكس سور، عن الاتحادات البرانيسية، التى وحدت سكان أودية البرانس وجمعت كلمتهم فى مواثيق ومعاهدات؟[3]. ألم نشر من قبل إلى هذه الحركات أو الهجرات الفصلية للرعاة، وراء قطعانهم، صعودا إلى الجبل وهبوطا إلى الوادى، فى الفصول المختلفة، حركة منتظمة رتيبة؟ أليس هذا يدل على أننا لا نقر كثيرا فكرة الجبال «كحدود طبيعية»؟ وهذه أمثلة قريبة المنال، ولكننا لو نظرنا إلى بقية أجزاء العالم لعز علينا أيها نختار وأنها ندع من وفرة الأمثلة التى بين أيدينا. ألم يبن سيون مثلا، فى دراسته عن التبت الجنوبية[4] العلاقات التى أوثق رباطها الرعاة المرتحلون رحلات فصلية وراء الماشية، بين السكان على جانبى الهيمالايا؟ وألم يلاحظ دى مارتون نفس الظاهرة فى الكريات بين الكويجيك Cuijic والبلقان؟

---

(١) فيفر «أقاليم فرنسا. فرانش كونتيه» ص ١٩ ـ ٢١.
(٢) كالميث، سبق ذكره، ص ٢.
(٣) الباب الثالث، الفصل الثانى، أعلاه ص ٢٨٢ (من الأصل).
(٤) سيون (١٩٦) ص ٣٢.

ويقال أيضًا إن الغابات حدد طبيعية ولكن هناك الكثير من الدول نشأت فى قلب الغابات، وقد ذكرنا من قبل المثل الرائع فى ظاهرة تكوين دولة وسط السهول ذات الغابات، وهى دولة روسيا[١].

وأخيرا أليست الصحارى المجدبة، وأيضا حدودا طبيعية؟ ويجيب عن ذلك شودو الذى يعرف وسط الصحراء الكبرى وغربها، معرفة جيدة، بقوله أن أجدب مناطق الصحراء ، التى لا تغطيها إلا الحصباء والصخور لا تقف حاجزا منيعا أمام قبائل الصحراء، وبالرغم من أن الصحراء الكبرى نطاق عرضه ١٢٥ ميلا، فإنها لا تتفق قط مع أى حد سلالية، وترتاد القبائل الرعوية العديدة المراعى شمال هذه المنطقة المجدبة وجنوبها[٢].

وهكذا عدلنا آراءنا، وذلك من مصلحتنا . نحن لا ننظر بعد إلى هذه الظاهرات الجغرافية المعتمدة، على أنها حدود خطية. كما أننا أدركنا أن الحدود القديمة لم تكن مطلقا خطوطا، بل كانت مناطق، فأوطان الغاليين ومدنهم لم تكن محاطة مثلا بحدود ثابتة، مرسومة بخط ومعينة بشريط، مثل الحدود التى تحيط بالدول فى الوقت الحاضر، والتى يحتل السكان داخلها يتخاصمون على امتلاك أراضيها، فالغاليون يسكنون مناطق آهلة بالسكان، تفصلها مناطق غابات[٣] طبقا للعادات والتقاليد القديمة ـ مناطق حزام بين منازل بعض القبائل ومنازل البعض الآخر، ولكن الغابات من ناحية أخرى لم تكن مجرد مناطق حدود، بل كانت أقاليم ذات أسماء قائمة بذاتها، فلما حدث أن زالت الغابات ظلت أسماؤها لاصقة بالقرى التى قامت محلها، والتى كانت تنعم بحياتها، فمثلا (فى غرب أوربا) برأى اسم غابة، ظل عالقا بعد ذلك بعدد كبير من القرى التى حلت محلها، ومثلها فى فرنسا أيضًا ثيل Thelle الذى كان اسم منطقة غابات دالت من الوجود من زمن مضى[٤].

---

(١) الباب الثالث، الفصل الأول، ص ٢٠٧.
(٢) شودو (١٦) جزء ٢٤، ١٩٣، ص ١٨٥.
(٣) ديمانجون (٢٢٤) ص ٤٢٧.
(٤) نفس المرجع ص (٤٢٨ ـ ٤٢٩).

وهكذا هوجمت فكرة الحدود الخطية من جانبيين وتحطمت، فقد عدلنا آراءنا الأولية، وآراءنا العامة بحيالها، واختفت فكرة الحدود الطبيعية، ولم نعد نعترف بقيود لا مفر منها تضعها الطبيعة أمام الإنسان، أو تفرضها الجغرافيا على السياسة ، فالإنسان بكل بساطة يهيئ نفسه لإمكانيات، وهذه الفكرة لاشك أسلم وأصح من فكرة الحدود الطبيعية. ولكن لايزال لها عيب واحد كبير. أنها تفسح المجال للنهائية. وتحاول أن تقول الكلمة الفاصلة لمسألة لا تزال موضع جدل، لأنها مسألة شرح لا تبرير ونحن لا نجد حتى الآن سوى تبريرات.

نحن نبدأ من الحاضر، عندما نحاول أن نصور مراحل التطور الإنسانى السابقة الطويلة، ونفسرها نبدأ من الحاضر على أنه نقطة ثابتة، وليس على أنه لحظة مارة ونشرح الماضى كله على ضوء تجاربنا الحاضرة، وتحت أسر هذا الحاضر نرفض الكثير من الإمكانيات الكامنة التى قد يظهرها التطور المستقبل يوما ما، ويلبسها الناس حينئذ ثوب الضروريات.

دعنا نأخذ مثلا تاريخ مقاطعة معروفة لنا، وهى فرانش كونتيه Franche Comté، فعلى حسب الجدل التاريخى المعهود؛ بتكوين الكونتيه من ثلاثة أقسام فرنسية، وهذه هى الكونتية الفرنسية التى احتلت مكانها فى الاتحاد الفرنسى ، وقد بذلت محاولات عديدة لبيان أسباب ارتداد هذه المقاطعة عن الوحدة الفرنسية - من حين إلى آخر - فى فترات تاريخية سابقة، وكالعادة أشير إلى الأسباب الجغرافية التى أغرتها بذلك، على أنها ضروريات طبيعية قيمة، ثم لا يلبث الابن الضال الذى حاول الانفصال عن أمه الكبرى، أن يرتد إلى أحضانها مرة أخرى ، وهذا هو المهم.

ولكن عندما يدرس مؤرخ الحروب البرغاندية والمشاريع العديدة التى تبعت تقسيم الكونتيه بين عدة أمراء، ويدرس آراء أهل برن Berne عن غنى هذا الإقليم، وعن حجج السويسريين التى قيلت مرارا وتكرارا عن الكونتيه على أنه كانتون سويسرى. ثم ينتهى بأن يقول لو أن نيقولا الديسباتش لم يمت متأثرا بجراحه فى بور نتورى. وهو دون الخامسة والأربعين من عمره ولم يختطف الحظ

السيئ أحسن قواد الكانتونات السويسرية لاستطاع أن يغزو الكونتيه ويضمه نهائيا إلى برن»(١) ؟ فإنه سيتهم فى تفكيره. وفى أنه يحاول تزوير التاريخ. ولكن أليس من الأفضل التحرر من الآراء السابقة. وإعادة كتابة التاريخ الماضى وتطور المقاطعات الفرنسية إلى كونت الوطن الفرنسى. بحرية ونزاهة؟

---

(1) Toutey charles le Téméraire et la Ligue de constance, 1901. p. 225. ff.

- ٣ -
دور العوامل النفسية

نصل الآن إلى مرحلة ثالثة من التفسير وليس فى التبرير بأى حال ومن المستحسن أن نقدم فى هذا الشرح فكرة المراحل المتتابعة التى تختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافا كبيرا. ولكننا لا نقدم مطلقا شيئا نهائيا، فنحن لا ندرس إقليما تتكشف صفحات تاريخه خلال العصور صفحة صفحة. والذى انتهى ولن نعيشها. لأن ذلك فوق طاقتنا. ولن نلجأ إلى دراسة باريس أيام لويس السادس عشر، ولن نلجأ إلى تفسير مركزها أيام فيليب أغسطس أو الإمبراطور جوليان واخيرًا، وأهم من هذا كله، لن نقصر أنفسنا على بحث الإقليم الذى نحن بصدده، بل سنعالجه من حيث علاقته بالأقاليم المجاورة والتى يكون معها وحدة منسقة، وحقيقة فعالة باستمرار خلال التاريخ ويجب أن نتذكر أن غابة ما، التى كانت حدا أو موقف دفاعيا، فى عصر ما، ربما أصبحت معبرا فى عصر آخر، ولن نحكم على الماضى على ضوء الحاضر وبالعكس لن يكون الماضى - فى دراستنا مفروضا على الحاضر ، حتى ولو ألقى الضوء عليه، وهذا عمل شاق لا تنهض به إلا الدراسات المختصة الدقيقة، وهو عمل يستحق كل تقدير وإذا أحسن القيام به يتبين منه أثر العوامل الجغرافية على سير التاريخ. كما أنه يمكن الانتهاء منه إلى بعض العوامل الدائمة المهمة فى تشكيل تاريخ قطر ما.

ولكنا ما زلنا بعيدين عن الاتجاه الذهنى الصحيح فى الدراسة الجغرافية التاريخية، ولا تزال الآراء القديمة تتشبث ببعض الأذهان، ولا يزال الأسلوب القديم فى البحث مسيطرًا على بعض الناس، ونتصور أحد المؤرخين بدأ بحثه

مزودا بنظرية الحدود الطبيعية والحدود الخطية بين الدول. ثم تمسك بهذه النظرية وقام بأبحاثه على ضوئها وكان يبحث مشكلة حدود البرانس . فهل كان يستطيع أن يصل إلى نتائج صحيحة من بحثه، لا مطلقا وهذا مثال لأحد هؤلاء المؤرخين فى هذا الموضوع «من الصعب أن نفهم التلاميذ فكرة الحدود الطبيعية فى دراسة إقليم سهلى منبسط مثل شمال فرنسا ليس به ظاهرات تضاريسية بارزة، ولكن على العكس من ذلك بالنسبة لسلسلة جبال البرانس، فهى المثل الصحيح للحدود الطبيعية»(١) . وهنا نجد تحذيرا ففكرة الحدود الطبيعية «للكبار» فقط وليس للتلاميذ وليس العهد ببعيد عندما كان لونجنون (Longnon) يجهد نفسه بحثا عن تحديد صحيح لجزيرة فرنسا، وبعد أن قال إن حدودها من الجنوب المارن والسين ومن الغرب الأواز، لم يجد لها حدودا مميزة من الشمال والشرق لكى يقفل الشكل الرباعى ، فلجأ إلى جدولى الثيف والبفرون الضئيلين.

وبعد هذا ندهش عندما نجد فى كتابات علماء اللغة ما يضحك، ويملأ القلب أسى فى الوقت نفسه، ثم ينتهى بهم المطاف إلى الاعتراف - مندهشين أن هناك وحدات جغرافية محددة لا تنطبق حدودها، على حدود انتشار اللغات أو اللهجات، التى كانوا يحاولون تفسير توزيعها. فيكاد يصل بهم اليأس إلى الاعتراف بفشل الجغرافيا، التى غرست فى عقولهم(٢) نظرية حتمية معينة، أو بعبارة أخرى فشل جبرية الظروف الطبيعية. والواقع أن مجرد وجود خليج نهرى أو نهر أو سلسلة جبال، لا تكون حدا لغويا لا ينطوى مطلقا على أى اتهام للجغرافيا؛ التى لا تعترف الآن لحسن الحظ، بتأثير العوامل الطبيعية، مثل التضاريس أو نظم توزيع المياة وتصريفها على النشاط البشرى المعقد. فجبال البرانس مثلا ليست حدا لغويا وليست الألب أيضا - فى أى مكان فيها - حدودا لغوية كذلك(٣)، ومثلها أيضًا مصبات اللوار والسين وماذا تقول الجغرافيا إذا كانت الجبال أو الأنهار ليست حدودا طبيعية، انها تقنع بأن هناك احتمالاً أن

---

(١) كالمبث، - سبق ذكره، ص ١.

(٢) فيفر «التاريخ واللغويات» (١٧) الجزء ٢٣، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) Dauzat, Essai de méthodologie lingustiqne, 1906. p. 221.

تكون كذلك، الجغرافيا على حق فى ذلك، فهى لا ترتكب الأخطاء، إنما يرتكبها اللغويون عندما يتحدثون فى الجغرافيا.

وبمعنى آخر، يبدو أن كل وحدة تاريخية، أو كل مجتمع منظم، كان بطبيعته أو بحكم الواقع شخصية جغرافية فى الماضى. ونظرتنا لحسن الحظ أعم وأشمل. ففى شمال فرنسا توجد ثلاث مقاطعات بيكاردى إلى أرتوا ومن آرتوا إلى كامبريسيس.. ولكننا نمر من بيكاردى إلى أرتوا ومن أرتوا إلى كامبريسيس. دون أن نلحظ أى فرق فى الظواهر الطبيعية و كلها إقليم واحد متشابه فيه الحقول الجداول والقرى، إقليم واحد من الناحيتين الطبيعة البشرية، بنيتها واحدة وتكوينها واحد[1]، فهى إذن ليست وحدات جغرافية، ولا تزعم الجغرافيا أنها كذلك، فالوحدة الجغرافية لابد أن تتميز بميزات خاصة تمزها عن غيرها، هذه قاعدة عامة مثل اختلاف فى مظاهر القرى، اختلاف فى حقول القمح هنا، والمراعى هناك، وجود فاصل طبيعى بين كل مقاطعة وأخرى، وليس مجرد خط يرسمه جدول أو نشز من التلال هذا ما لا يتورط فيه جغرافى قط.

بعد هذا يبدو أن مشكلة الحدود قد اتخذت شكلا آخر، واكتسبت أهمية خاصة،. فهى لم تعد مسألة البحث عن خطوط ما بأى وسيلة، كلا بل الحد الطبيعى هو الذى يميز بيئة عن أخرى تختلف كل منهما عن الأخرى، فى المظهر الطبيعى والنشاط البشرى، فلس الحد هو المهم، بل ما هو داخل الحد نفسه.

ولنضف كلمة أخرى، لا تقل أهمية عن تتبع تاريخ الحدود، فعنصر الزمن مهم جدًا، ولا ينبغى مطلقا أن تناقش الحدود على أنها ظواهر ثابتة لها صفة الدوام، فبعضها أفلته الظروف الجغرافية إملاء على الإنسان فى بادئ الأمر مثل حدود الإبرشيات الدينية الفرنسية، التى تبعت حدود المدن الغالية الرومانية، وهذه كانت تتبع حدود المدن الغالية؛ وهذه فى النهاية قد حددتها العوامل الجغرافية مثل الغابات. والمستنقعات. والعقبات والحواجز الطبيعية الأخرى. فكل من يدرس حدود هذه الإبرشيات ينتهى أخيرا إلى حدود جغرافية معينة. ولكن على وجه

---

(١) ديمويجو (٢٢٢) سبق ذكره.

العموم هذه الحدود قد فقدت مميزاتها الطبيعية بسرعة، وأصبحت مجرد خطوط تفصل بين الناس وأشياء يشابه بعضها بعضا وتتداخل بعضها فى البعض. ثم تعددت الحدود الإدارية الإقليمية، بفعل تعاقب الحكومات المختلفة، كل حكومة تضيف جديدا وتمحو قديما وهكذا حتى أصبح من العسير التعرف إلى الحدود الإبرشية القديمة، فعدت أرتوا حدودها الجغرافية، كما لم تعد كاليه السفلى أو السوم وحدات إدارية ذات حدود جغرافية[١] ، والواقع أننا يجب أن ننفذ ببصيرتنا إلى ما وراء الحدود المادية، فهى ليست الا رموز ونبحث عن الرغبات والمعتقدات والعوامل النفسية البشرية وراء إقامة هذه الحدود وقد كان راو على حق عندما قال أن الشعب عندما يقيم حدا سياسيا، فإنما هو فى الواقع يقيم حذا لأطماعه ورغباته فى التوسع والانتشار[٢] ، ومن الممكن الاعتداء على أى حدّ طبيعى»، فالبحر لم يمنع وليم النورماندى من مهاجمة هارولد الساكسونى فى قلب جزيرته، فما بالنا بالحدود الأخرى، التى لم تلق أى احترام من جانب المعتدى.

ويعطينا جوتيير[٣] فى كتابه الصغير عن الصحراء مثلا رائعًا؛ لحدود بيشار التى أمرت الإدارة الفرنسية بإقامتها فى الصحراء ، ثم لم تلق إلا كل هزؤ وسخرية من جانب القبائل المشاكسة.

---

(١) ديمانجون (٢٢٤) ص ١٢٠.
(٢) راو (٢٦) ص ٦٣.
(٣) جوتيير (١٨١) ص ٧٠.

- ٤ -
الدولة لا توهب ولكنها تُصنع

لا يهم كثيرا الإطار الخارجى للدولة أو الحدود، إنما المهم هو ما داخل الإطار الذى يجب أن ينال أكبر عناية، بمعنى آخر يجب أن تدرس مسألة الحدود من الداخل؛ وليس من الخارج. كذلك الحال عند دراسة الدولة، يجب أن نميز بين أمرين وندرسهما بكل عناية، الأول النواة التى تكونت حولها الدولة، والثانى مكانتها الاقتصادية.

لا توجد دولة إقليمية لم تتكون أصلا حول نواة، أو مركز نمو جغرافى؛ بل وليست هناك وحدة سياسة عريقة، لم تتكون فى الأصل حول مركز، كان كالنواة الصلبة، التى تجمع حولها بقية الأجزاء، أو الهيكل العظمى الصلب الذى يكتسى بعد ذلك باللحم والدم. ونقول إن الدولة مثل «تكتل عدة قوى» وقد كتب. فيدال دى لابلاش من قبل سنة ١٨٩٨، فى إحدى مقالاته عن الدولة «بأنها نواة صلبة تنضم إليها الأجزاء الأخرى. بعضها أثر بعض. كتكون البللورة حول نواتها»[١] وينتهى بقوله إن الدول تشبه الأجسام الحية ثم يقول - «بعد ذلك إنه من المهم أن يجهد الجغرافى نفسه فى البحث عن النواة الصلبة التى تجمعت حولها الدولة، وعن القوة الباطنية. التى دأبت على أن تكون مركز الجذب».

لاحظ فيدال فى بدء تكوين جزيرة فرنسا. وبراندنبرج. ودوقية موسكو، وولاية نيويورك. «نشاط ظواهر محلية معينة، كان لها، شيئا فشيئا ، قوة التركيز والجذب فيما حولها».

---

(١) فيدال (٩٥) ص ١٠٨.

وبهذا لاحظ فيدال خطر التعبير عن «نواة صلبة» فالجرثومة الأصلية التى نمت وكونت الدولة ليست مطلقا وحدة طبيعية ذات ميزات جغرافية قوية، ينبغى على الجغرافي أن يبحث عنها فى كل دولة من الدول المعقدة فى الوقت الحالى. فليس هناك دولة، مهما كانت صغيرة المساحة. يمكن أن تحلل حتى تنتى فى أصلها إلى إقليم واحد معين. بالمعنى الذى حدده جالوا[1] ، والدليل على ذلك موجود فى مثل فرنسا، وأقاليمها المثالية. التى يختلف بعضها عن الآخر اختلافا قويا مميزا، وبالرغم من ذلك فسنرى أن هذه الأقاليم لم تكون قط وحدات تاتريخية.

فمورفان[2] مثلا لم تظهر قط كدولة. بل ولم تكن قط وحدة إدارية، ومثلها فى ذلك مثل برى وبوس وليمانى. ولم تكن وخدتها الطبيعية الصغيرة مقاطعة أو وحدة سياسية تاريخية مستقلة. وبالرغم من هذا فقد لاحظ الناس ـ فى كل العصور ـ انفرادها بميزات معينة، لا يزال لها مركزها فى النشاط الاقتصادى. نشاطها الزراعى الخاص. ومظهرها العام، وأسس الحياة الاقتصادية التى يمتاز بها هذا الجزء المنفصل عن الكتلة الجبلية الوسطى، هذا الإقليم الجبلى بظواهره الطبوغرافية الممزقة، وتربته الفقيرة، ومناخه القاسى. ومعابره الوعرة؛ وحياته الريفية. أى أنه من الصعب تكوين دولة فى إقليم لا يمتاز بالتنوع ـ أى فى وحدة متجانسة ـ وتبدو هذه الصعوبة أكثر وضوحا كلما بعدنا فى الماضى. عندما كانت الدول تبحث جاهدة للوصول إلى درجة كبيرة من الاكتفاء الذاتى. وهذا يستدعى أن تشتمل حدودها على عدة أقاليم متنوعة فى التربة وفى الإنتاج. وتتكون الدول الكبرى من تجمع أجزاء عديدة من عدة أقاليم طبيعية نباتية. يكمل بعضها بعضا، ويرتبط بعضها بالبعض الآخر فى وحدة سياسية جديدة.

إن فعل الإنسان فى عالم السياسة شبيه إلى حد كبير بفعله فى عالم النبات فهو كما قد حطم المجتمعات النباتية، وكون من عناصرها الممزقة، تكوينات جديدة، تلائم حاجاته ؛ هى الحقول والمروج. مزق الوحدات الطبيعة وكون من

---

(١) جالوا (٣٤).

(٢) ليفينفيل (٢٢٥).

عناصرها الممزقة وحدات سياسية جديدة وقد أشرنا كثيرا إلى قيام دولة كونتيه. وإلى التوافق البديع فيها بين السهول والجبال. بين حقول القمح والكروم وبين الغابات والمراعى. التى قامت فيها هذه الدولة من زمن واستمرت عدة قرون[1]. وقد ميز كاميل جوليان أيضا فى تاريخ الغال[2] بين الأقاليم التى تسكنها قبيلة واحدة ـ وحدات زراعية أصلا، تحدها الغابات والمستنقعات والجبال وتحميها ـ وبين أقاليم أخرى شديدة التعقد. تكون وحدات اقتصادية ودفاعية، وتتكون من أراض وأقاليم متكاملة. سهول وجبال وغابات وأراض زراعية. تتفتح على طرق واحدة وتنتهى إلى وحدة واحدة. تساند بعضها بعضا. وتجد أنه ينبغى لها أن تتفق وتتحد لتبادل المصالح والسلع والمنتجات والدفاع المشترك، بمعنى آخر مجتمعات تتبادل المنفعة والحماية وتكون وحدة طبيعية وروحية تجعل منها بنيانا واحدا قويا. وهذه بعض الأمثلة التى تبين أن الإنسان لم يكتف بالموقف السلبى فى تكوين الدول، وفى ترتيب حياته المادية.

والنتيجة لهذا أنه لابد من وجود بعض الأماكن على الأرض، مهيأة خصيصا لميلاد وحدات سياسية حية، أو أقاليم معدة لوصولها إلى مرحلة النضوج.

وعندما نتأمل خريطة للعالم نجد أن هناك فعلا أمثال هذه الأقاليم، كما قد أشرنا مقدما، على حدود الإقليم الطبيعية الكبرى (السهول والسافانا، والغابات الاستوائية) وعند نقط نقابل هذه الأقاليم. وقد حدث هذا فى آسيا، عندما كونت النطاقات التى تحد السهوب الوسطى مراكز للنشاط السياسى؛ هذه النطاقات شهدت تذبذب قوة البدو وضغطهم على القبائل المستقرة، التى شرحنا حياتها من قبل.

وحدث هذا فى أفريقيا، حيث كانت أجزاء السودان المختلفة، فى ماضيها المضطرب؛ مواطن لتكوين عدة دول متتابعة. تمد نفوذها من الصحراء شمالا إلى الغابات الاستوائية جنوبا. وأخيرا حدث هذا فى أمريكا إبان حضارتها القديمة السابقة للكشف الكولومبى، بميزاتها الخاصة القديمة.

---

(١) فيفر، فيليب الثانى وفرانش كونتيه، ١٩١١، ص ٣٩.

(٢) جوليان (١٧٢) الجزء الثانى ص ٢٠.

على أية حال، يجب ألا نذهب بعيدا، ونضع حدودا للاستدلال القياسى. حتى ولو كان دقيقا صحيحا. لأن ما يصدق على الدول فى مرحلة معينة من مراحل تكوينها، ومن نوع معين من أنواع التكوين لا يصدق بالضرورة على دول أكثر عراقة، وأشد تعقدا فى تكوينها. والانتقال من الدول الإقليمية الضيقة مثل فرانش كونتيه وبرغانديا واللورين إلى دولة قومية كبرى مثل فرنسا لم يكن سهلا خاليا من العقبات. ولم يكن مماثلا للانتقال من الأوطان (الباجى) الغالية. أو المقاطعات التى كانت تحتلها القبائل. أى مناطق نفوذ الأمم الكلتية الكبرى. ومن الواضح أن الطريقة التى اتبعت فى كل حالة. كانت مخالفة للوسيلة التى اتبعت فى غيرها، وليس من السهل تفسير كل حالة على أساس اتحاد أقاليم متكاملة لتكوين دولة مكتفية بذاتها.

وبعبارة أخرى لكل مشكلة عناصرها الجغرافية الخاصة. إلى جانب عناصر بشرية أخرى. مثل العوامل العاطفية التى تتداخل وتلعب دورا يكسو المصالح الاقتصادية والروابط الجغرافية بلون خاص، وقد لاحظ دوركايم مثلا معينا. وهو الرباط الروحى والمعنوى الذى يربط أجزاء الدول الكبرى مثل روسيا. وانتهى[1] إلى أن الدول يرتبط أجزاؤها بعضها بالبعض الآخر بعاطفة معنوية، تجعل أفراد مجتمعاتهم يعتقدون أنهم من أصل شعبى واحد. وأن هناك قرابة إثنوغرافية تربط بعضهم بالبعض الآخر. وإذا حدث وأن تفرق شملهم، فإنهم سيظلون يذكرون الماضى الذى جمعهم فى وحدة واحدة يوما ما. وتصبح عاطفة الوحدة المعنوية مجرد صدى لحادث بعيد. ولكنها عاطفة قوية لا يخبو أوارها، فرابطة السلالات الكبرى وجدت منذ وجدت المجتمعات السلافية. وعاطفة الوحدة الجرمانية أو الوحدة الهلينية. صدى لماض بعيد.

ولاشك أن هذه الفكرة ستوضِّح كثيرا من الحقائق الغريبة. مثل وجود عاطفة الوطنية الغالية العارمة بين قبائل الغال المتحاربة المتنابذة، ولكنها برزت ووضحت أيام (Vercingotorix) ولكننا يجب أن نحذر ولا نغالى وراء آراء دوركايم وإلا فإننا سننتهى إلى التقليل من أهم العوامل الجغرافية فى تكوين الدول ونشأتها، وسنعود إلى ذلك بعد قليل. ولكن لا ريب أن العوامل الجغرافية فى تكوين الدول

---

(١) دوركايم (١٧) ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ ـ ص (٤٤٩ ، ٤٥٠).

الكبرى ليست من طراز العوامل الجغرافية فى تكوين المقاطعات الصغيرة، ولنأخذ ملاحظة دوركايم على أنها مجرد إيحاء إلى وجود عوامل أخرى بجانب العوامل الجغرافية كما أنها تعيننا على تفهم ما سبق أن قلناه عن تجمع البشر فى تجمعات بشرية كبرى. كما أنها تجذبنا إلى الوقوع فى الأوهام الاجتماعية التى لا تعتبر الظاهرات الاجتماعية إلا مجرد سلسلة من الإضافات تجرى كما يلى:

رجل وامرأة وأنجال = أسرة، أسرة مضافا إليها أسرة مضافا إليها أسر = قبيلة. قبيلة مضافا إليها قبيلة: مضافا إليها قبائل أخرى = شعبا. شعبا متحدا= أمة كبرى، أى تكوينات تحدث بمجرد التكاثر والتجمع، وقد بينا من قبل خطل هذا الرأى[1] ، ولكن هذا الخطأ قديم. ولذلك فهو يطفو على السطح دون أدنى مجهود.

---

(١) انظر أعلاه الباب الأول، الفصل الثالث.

ـ ٥ ـ

أقاليم الدولة الطبيعية

يجب مقارنة تلك التكوينات المتخصصة الكبرى، التى لم تظهرها قوى الطبيعة، بل عقل الإنسان، بتكوينات مشابهة لها. ولذلك نستطيع أن نقول، بل يجب أن نعترف بوجود أقاليم طبيعية للدول الكبرى «على وجه الأرض». ونحن هنا لا نشير إلى نطاقات خاصة، أو إلى وحدات سياسية بسيطة. من السهل تحليلها. بل إلى قوى سياسية وفكرية ومعنوية كبرى[1].

لا تعيش الوحدات السياسية الكبرى منعزلة بعضها عن البعض الآخر منكمشة داخل حدودها. غيورة على كيانها وراء السدود والحدود[2]. ولكنها تعيش فى غمار التيارات الدولية. داخل بيئات اجتماعية متداخلة تشملها جميعا. كل منها فى حالة تكون وانحلال مستمرة. تنفصل من الكل بعض العناصر لتكون دولا أخرى مجاورة. وبالعكس يضاف إلى الكل بعض العناصر تمتصها بدورها. وتتمثلها فى كيانها وهناك حركة تبادل مستمرة فى السكان. وفى الآراء وفى العواطف وفى المعتقدات. وبهذه الطريقة تتكون وحدات سياسية أكبر باستمرار تبادل المنافع والمصالح. وتميل إلى أن تزداد قربا وتشابها بعضها بالبعض الآخر. وتكون مناطق الحضارات الكبرى. أو العوامل الكبرى ذات المسميات العامة والمفهومات الغامضة الشاملة. مثل العالم الشرقى والعالم الإسلامى والعالم الآسيوى.

---

(١) قارن دوركايم (١٧) ١٩٠٦ ـ ١٩٠٩، الجزء ١١، ص ١٧.

(٢) ماير (٨١) فقرة ٤٠، ص ٨٧، مناطق الحضارات ، وأيضًا نفس المرجع فقرة ١١١، ص

هناك مد وجزر. دفاع وهجوم. الشعوب تزداد قربا بعضها بالبعض الآخر. يوما بعد يوم، يقلد بعضها بعضا ويؤثر بعضها فى البعض الآخر. ويتخذ بعضها بعضا أسوة ومثالا. وينهج بعضها نهج بعض. وينشر بعضها مدنية بعض. ويهضمها ويتمثلها وبذلك تخف حدة الخلاف بين بعضها والبعض الآخر. ولكنها فى نفس الوقت، تقبل جاهدة على أن تفصل بعضها عن البعض الآخر. وتغير على جيرانها. وتنمى ملكاتها الخاصة ومواهبها المعينة وتحافظ على طابعها القومى المميز. ولا ريب أن الصراع الدائم بين هذين التيارين هو الحقيقة الكبرى فى التاريخ.

ولكن أى التيارين يرجع أكثر من غيره إلى الظروف الجغرافية؟

يقول راتزال: إن التيار الثانى هو الذى يرجع إلى الظروف الجغرافية، وأن شخصية الدولة نتيجة تلك الظروف. ومن العبث الجدل فى هذه المسألة. ولا حاجة بنا إلى أن نعفى العوامل الجغرافية من دراسة التيار الأول أو التيار الثانى. ولا حاجة بنا إلى أن ندعى أنها قوية بالنسبة لأحدهما دون الآخر، ومن الخير أن ندرس كلا منهما دون التأثر بفكرة سابقة. وعلى كل حال فقد رأينا أن العوامل الجغرافية كان لها أثر فى كال التيارين على حد سواء، ولا حاجة للتنافس بين عالم الاجتماع أو الاقتصاد أو النفس أو الجغرافيا على إثبات وجهة نظره فيما يختص بدراسة الجماعات البشرية. فالبشر لا يستطيعون أن يتخلصوا تماما، مهما جاهدوا، من أثر البيئة على حياتهم. والإنسان مدرك هذه الحقيقة، يستغل الظروف الجغرافية بقدر الإمكان، طبقا لمصالحه. ويستفيد بقدر الإمكان كذلك من الإمكانيات الجغرافية. ولكن هنا أيضا لا مكان للضروريات.

الفصل الثانى
النقل: الطرق

تتكون الدول بشكل يتضمن وجود طرق ووسائل مواصلات تربط أجزاءها بعضها بالبعض الآخر. وإلا فكيف يستطيع الناس أن يرتبط بعضهم ببعض عبر الأقاليم الطبيعية المختلفة التى تتكون منها الدولة.

ويبدو لأول وهلة أن وجود شبكة من الطرق يدل على تعاون وثيق بين النشاط البشرى والطبيعة، وأن تركيب الإقليم نفسه وتضاريسه ومظاهره الطبيعية ترسم طرق المواصلات خلاله، وبعبارة أخرى؛ إن مسألة الطرق والمواصلات مسألة جغرافية. على أن الجغرافيين الذين نناقش آراءهم وننقدها لم يلقوا ضوءا كافيا على هذه المسألة. ولاسيما اتباع راتزل الذين لم يولوها كبير اهتمام. وهؤلاء وقفوا جهودهم على دراسة حركات الشعوب. وهم أثناء ذلك قد سنحت لهم الفرصة دون شك للإشارة إلى أهم واد من الوديان أو معبر من المعابر. أو ممر من الممرات الطبيعية. أو غيرها من المسالك الطبيعية التى عبرتها الشعوب، وربما أشاروا إلى وجود بعض العوائق الطبيعية الأخرى كالصحارى أو الجبال التى تجنبتها طرق القوافل أو الجيوش الغازية. ولكنهم لم يدرسوا تلك الممرات لذاتها. بل لمجرد كونها ممرات واسعة تسمح بهجرات شعوب كاملة، على نطاق واسع، وهم لا يلقون بالا إلى طرق المواصلات الثانوية الصغيرة. اللهم إلا فى حالات شاذة. إذا كانت تعتمد اعتمادا كليا على الظروف الطبيعية، والسبب فى ذلك أنهم غيورون على إثبات نظرية معينة رسخت فى أذهانهم، ومن ثم كانت طريقة بحثهم فقيرة فى نتائجها. عميقة فيما يمكن أن تنتهى إليه من آراء.

- ١ -

الطريق وطبيعة الأرض

لسنا محتاجين لكبير جهد لكى نثبت أن السهول، على اختلاف أنواعها فى مختلف العصور، تفسح أحسن مجال للحركة والانتقال. بينما الأنهار الكبرى والجبال والصحارى والبحار عوائق كبيرة للحركة. ولكن يجب ألا نعتمد كثيرا على القوانين العامة. فهنا أيضا يجب أن نحترس من التعميم فالشعوب الماهرة فى الملاحة لا تعد الأنهار عوائق أمام حركتها، إنهم سرعان ما يقبلون على استغلالها وإذا كان الشعب ميالا للتجارة والقوافل، فإن الجبال لن تقف فى سبيل نشاطه. بل إن أهميتها ستتراوح بالنسبة له حسب الظروف. هذا غير ما قد يثير بعض الشعوب، لظروف خاصة، نحو إتمام العقبات وارتياد الفيافى المقفرة مضطرين. كما إن الكشوف العلمية قد تقلب العادات رأسا على عقب. فطرق جبال الألب الطبيعية أصبحت لا قيمة لها أمام السكك الحديدية عبر الأنفاق. ولكن استعمال السيارات فى النقل أعاد لهذه الممرات الطبيعية أهميتها من جديد. وهكذا حدث تحول فى استعمال الطرق. رغم بقاء الظروف الطبيعية على ما هى عليه. وهكذا لا نجد أنفسنا إزاء ضروريات بل إمكانيات فعلية.

وما هى الوسائل التى تستعمل فيها الأنهار؟ لا يهم إن كان النقل بالقوارب أو بالأرماث أو إن كان من الممكن الانزلاق عليها بالزلاقات فى الشتاء، أو إن كانت آهلة دائما بالسكان. مثل الوديان التى تشق المرتفعات. أو الوديان التى تقطع الصحارى. وتمد المسافرين بمورد الماء الوحيد لهم فى تلك الفيافى؛ ولهذا كان النيل والفولجا الأدنى والأرتش والسند والنيجر بل والأمازون طرقا طبيعية. إذ من الصعب السفر فى تركستان إلا متتبعين نهرى سيحون وجيحون. وكان على لفنجستون أن يتتبع مجرى وادى ماكوكو الجاف، الذى تنبثق منه العيون، لكى

يخترق المسافة بين نهر أورانج وبحيرة نجامى. كما أن نهر سانت لورنس والبحيرات العظمى كانت وسائل ميسرة لاختراق أمريكا الشمالية من المحيط الأطلسى حتى سهولها الوسطى. هذه أمثلة قليلة مما تحت أيدينا من أمثلة. يقدمها لنا تاريخ الكشوف الجغرافية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. ومن الأمثلة أيضا على ذلك الطريق الطبيعى الذى يشقه نهر هدسون وفتحة موهوك فى أمريكا الشمالية.

كما أن الوديان التى تشق المناطق الجبلية، تحدد السبل الطبيعية لاختراقها. فالممرات الجبلية تجذب إليها الطرق البعيدة. بل إن طبيعة الأرض نفسها تحتم اتخاذ سبل معينة. وتجعل من المستحيل أو المتعذر اختراق نطاقات معينة. كما تحتم اختراق السلاسل الجبلية من منافذ معينة، فمثلا لايمكن الانتقال من فرنسا إلى إسبانيا إلا عبر ممرات معينة فى شرقى البرانس وغربها. وليس فى وسطها. ويتعذر اختراق جبال الألب فى بعض مناطقها. حيث تقف بعض سلاسلها حائلا دون اختراقها. مثل المناطق التى تقع بين ممر جريمبل وأعالى الدون. وبين ممر سمبلون وسان برنار الكبير. وهذا يفسر لماذا لم تختف الممرات الكبرى خلال التاريخ، فطرق الألب خلال العصور القديمة وخلال العصور الوسطى[1] كانت أيضًا تتبع أعالى الراين. وكوار، حتى تصل إلى حوض الدانوب عن طريق نهر ألم. وكان ممر البرنر الطريق الذى سلكه الكمبيرى والتيوتون. وطريق الأباطرة إلى إيطاليا لأجل حضور حفلات التتويج أو للمناسبات السياسية. ومنذ عهد الرومان، بل قبل عهدهم كذلك بكثير كانت معابر الألب بين إيطاليا وبلاد الغال، هى نفسها المعابر التى تسلكها السيارات فى الوقت الحاضر؛ وكان طريق أورليا Aurelia يخترق الكورنيش وكان ممر جبل ماترونا (جبل جنيفر الحالى) يصل بين دورا ريباريا والدورانس. وكانت موجات المدنيات المختلفة تنتشر إلى شمال فرنسا وشرقيها عن طريق ممر سانت برنار وطريق فاليه الأسفل Bas، Valais- وسانت موريس داجوم ـ مفتاح الطريق المهم الذى يصل سواحل بحيرة جنيف وفتحة، بونترليه Pontarlier.

---

(1) Maillefer,"Lesroutes romaines en Suisse" Revue histor. vaudois, 1900, Oehlmann Die Alpenpasse immittlelale, jahrb. f. schweizer Gesch. 1900, iii, P.P 164-89, iii, pp. 3 - 324.

ويمكن تفسير أهمية ممر خيبر التاريخية وبوابة هيرات وممر داريال، كما يمكن تفسير أهمية فتحة بلفورت التى يسميها فيدال دى لابلاش بوابة برغانديا، بنفس الطريقة[١].

وفى الحقيقة، عندما يريد الناس أن ينشئوا طرقا للمواصلات. فإنهم لايجدون خيرا من الالتجاء إلى الطرق القديمة التى كان يسلكها أسلافهم عبر الجبال أو متتبعين مجارى الأنهار. ومن أمثلة ذلك قناة إيرى التى تتبع فتحة الموهوك. والقناة التى تصل بين الراين والرون. والخط الحديدى الذى يمتد من مولهاوس وليون والذى يعبر بوابة برغانديا الطبيعية. كما أن الرياح السائدة والتيارات البحرية لعبت دورا كبيرا فى قصة الأمم البحرية وعينت الطرق التى سلكتها سفنهم. وهذا تفسير هجرة الإسكيمو وغيرهم من العناصر البشرية. فى فترات تاريخية معينة إلى أوربا. يحملهم تيار الخليج الدافئ. ووصلت قبائل هندية ملاجيسية إلى مدغشقر، تدفعهم الرياح الموسمية. وتقدم رحلات البرتغال الكشفية عبر المحيطات. وانتقالهم من جزيرة إلى جزيرة، كل هذا يفسره اتجاه الرياح السائدة.

إلا أن هذا كله لا يصور إلا احتمالات، فالبشر ليسوا سلبيين باستمرار، فهم الذين كيّفوا الطرق الملائمة لأغراضهم المختلفة، حتى ولو كانت طرقا قديمة مطروحة. فهم عدلوها ومهدوها لكى تتفادى الأخطار وتجنبهم المشاق. فمثلا كان فيضان نهر أيزير مانعا دون إنشاء طريق يسير فى بطن الوادى، عند مستوى جرينوبل، ولذلك أنشأ الرومان طريقهم فى منتصف المنحدر عبر منحنى كاسك دى نيرون. كما لوحظ وجود عدد كبير من ثعابين البحر التى تصعق الخيل بتيارات كهربائية تبعثها، عندما تحاول الخيل عبور أحد الجداول الصغيرة، ولذلك عدل الطريق عبر سهوب[٢] Urituca، كما أن هناك طرقا للشتاء وأخرى للصيف، فى المرتفعات وفى الجهات المسطحة المنبسطة، ففى شمال ألمانيا تتبع الطرق الجيست فى الشتاء والمارش فى الصيف[٣].

(١) فيدال (٣٢) ، ٢٢٤.
(٢) همبولدت (٧٢) مجلد ١: ٢٩.
(٣) راورز فى (١٣) الجزء ٥٢، ١٩٠٦، ص (٤٩ - ٥٩).

هذه تعديلات طفيفة للطرق المهمة. تعتمد اعتمادا مباشرا على الظروف الطبيعية، ولكن الإنسان يعمل جاهدا لتحرير نفسه من الرباط الثقيل الذى يربطه ببيئته، أو على الأقل أنه لا يختار دائما نفس الاحتمال الواحد، من بين عدة الاحتمالات المبسوطة أمامه. فما دام الإنسان يستعمل حيوانات النقل والجر فلا حاجة به إلى طرق واسعة، وبذلك يقتصر نشاطه على إيجاد أقصر الطرق بين نقطتين، وتحاشى الأرض الوعرة والمخاضات النهرية العديدة. ولكن الطرق التى تسلكها العجلات تستلزم صفات أخرى، منها أن يأخذ المهندس فى الاعتبار مسألة الانحدارات، التى تصبح أهم مشكلة له وخصوصا لتيسير النقل فى فصل الأمطار. وتختلف الطرق أيضا باختلاف السرعة التى يتوخاها الإنسان، فإذا كانت تلك السرعة بطيئة؛ فلا بأس من شق طرق ضيقة، أما إذا كان الإنسان يتوخى السرعة فى اختراقها فلابد وأن يكون الطريق متسعا، معنيا به، متسقا فى انحدارات محتاجا لمهارة هندسية أحسن. فالإمكانيات إذن تختلف من طريق إلى آخر حسب رغبات الإنسان المختلفة.

على أن من المعلوم أن مشكلة الانحدارات تختلف فى كنهها وفى طريقة التغلب عليها، إذا كان الطريق معبرا للسيارات، أو للسكك الحديدية العادية، أو سكك حديد الجبال.

فمشاكل الخطوط الحديدية ومدها الخاصة بالانحدارات الجبلية تستدعى أحيانا إقامة الجسور العالية والكبارى وشق الأنفاق، وهنا نجد أن مسألة التصاق الإنسان ببيئته وضروراتها ليست بذات أهمية، فالطريق الذى كانت تمليه ضرورة معينة فى وقت معين، يصبح قليل الأهمية فى وقت آخر، ثم قد تدب فيه الحياة فى وقت آخر، وهذه ظاهرة كثيرة الحدوث فيما يختص بالطرق التجارية، وتحت أيدينا عدة أمثلة تؤيدنا، منها هجر طريق البحر الأبيض المتوسط، بعد تحول طرق التجارة إلى المحيط الأطلسى إثر الكشوف البرتغالية البحرية، من بدء القرن السادس عشر، ثم استعادة هذا الطريق حياته فجأة بعد شق قناة السويس.

كما أن هذه التغييرات قد انتابت بعض الطرق البرية أيضا فطرق القوافل التى كانت تخترق بادية الشام إلى العراق أقفرت فترة من الزمن بعد شق قناة السويس، ثم استعادت أهميتها بعد مد السكك الحديدية وشق الطرق فى هذا

الجزء من الهلال الخصيب، ومن ناحية أخرى، أهملت شبكات الطرق فى الأقاليم العريقة بعد مد السكك الحديدية ، ولم تستعد نشاطها إلا بعد اتخاذ السيارات وسيلة أخرى سريعة فى النقل.

ونستطيع فى إقليم من الأقاليم أن نتبين بوضوح تام اختلاف الطرق، باختلاف مراحل المدنية التى مر بها هذا الإقليم.

ومن أمثلة ذلك منطقة الكوت فى برغانديا، حيث يمكننا أن نميز طرق القرون الوسطى القديمة التى كانت تتوخى المستوى المرتفع المشرف على الإقليم من فوق خط التلال، وهذا احتياط فى سبيل الأمن استلزمته عصور اضطرب فيها حبل الأمن. ولكن لما نشر الأمن ربوعه، هبط الطريق إلى جوانب الأودية المتسعة، ثم سلكت السكك الحديدية والطرق القومية بين ديجون وليون قاع الوادى نفسه[1]. هذه إذن صلاصة احتمالات، استغلت فى ثلاث مراحل مدنية مختلفة.

(١) انظر الأشكال فى فيدال (٢٣٦) ص ٢٤٣ خريطة رقم ٤٤٥ وقارن أيضا:
jobaid (g.) L'archĆlogic sur lc tcrrtain, Dijon, 1903, p. 121 f.f.

- ٢ -

وظائف الطرق: الطرق التجارية

لندع الظروف التاريخية التى تتحكم فى شق الطريق، فهى سهلة الفهم. ولا يصعب على أى طفل تفهمها. ولندرس قيمة هذه الطرق. الطرق عديدة، ومع ذلك فإن الإنسان يفضل دائما طرقا معينة باستمرار. فما السبب فى هذا؟ ولأى غرض؟ فى الواقع لا يمكن تحليل النشاط البشرى إلا إلى حد معين. ومن العبث محاولة فصل الطريق عن طبيعة الحركة التى تعبره والتجارة التى تحملها. ومن هنا نستطيع أن نميز عدة طرق، من أنواع مختلفة، فهناك الطرق التجارية وطرق الحاج الدينية، والطرق السياسية.

أما عن الطرق التجارية فهى قديمة قدم المدنية نفسها، حتى أقدمها وأضيقها نطاقا. بل إن علماء ما قبل التاريخ يثبتون بأبحاثهم المستمرة، وجود طرق تجارية كبرى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ[١]. وهذه الطرق التجارية لا ترجع إلى عصر البرنز فحسب، بل إلى العصور الحجرية الحديثة[٢] أيضا. ويمكن تتبعها فى الوقت الحاضر، وهناك دلائل معينة تدل على نوع النشاط التجارى القديم ونحن نعرف الآن انتشار حضارة النصب الحجرية (الميجاليثية) فى أنحاء مختلفة من العالم، حيث توجد فى غرب أوربا، منتشرة من إسكنديناوة إلى شبه جزيرة إيبريا، وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، وفى الهند وفى جنوب اليابان بل وفى كوريا[٣]. ونحن لا نريد أن نناقش الفروض البعيدة عن

---

(١) دى مورجان (١٧٥) الباب الثالث، الفصل الرابع، شكل يبين الطرق التجارية القديمة ص ٢٧٠.

(٢) نفس المرجع ص ٣٢٨.

(٣) نفس المرجع، خريطة التوزيع رقم ١٤٧.

المعقول، ولكن نكتفى بأن نشير إلى ما ذكره أحد الإنجليز[1]، وهو أننا إذا رسمنا خريطة لتوزيع النصب الحجرية القديمة، ووزعنا عليها فى نفس الوقت ركاز المعادن. والأحجار الكريمة، وشطوط اللآلى فى الهند وشواطئ المحيط الهادئ، فإننا نجد توافقا عجيبا بين الظاهرتين، ومن ثم وصل إلى نتيجة معينة، وهى أن شعبا معينا أقام هذه النصب الحجرية، وكان محبا للثروة ولم يكن هذا الشعب سوى الشعب الفينيقى. ولكن يجب علينا أن نحترس من خطر إذاعة مثل هذه النتيجة الجريئة، ويجب أن نعتبر الفينيقيين فى هذه الحالة أسطورة جميلة حتى يقوم عليها الدليل الشافى. إلا أن مثل هذا التوافق بين الآثار القديمة ومصادر الثروة سيفتح دون شك مجالات واسعة لدراسات جديدة مشتقة.

ونحن مع الوثائق المكتوبة التى تركها الأقدمون، نشعر بأننا فى مركز أحسن، وهذا أمر أثبته فكتور بيرارد فيما يختص بالفينيقيين فى البحر الأبيض المتوسط، ويدل التاريخ القديم والتاريخ الوسيط على أن الطرق البحرية لم تتغير كثيرا فى هذه العصور، وقد يقال إن هذه الطرق البحرية القديمة كانت الطرق الوحيدة التى جسر الإنسان فيها على ركوب البحر، ولكننا نرد على هذا بأنها كانت الوحيدة التى غامر فيها الإنسان، لأنها أكثرها فائدة له. وأن الطرق البحرية لم تتخذ إلا لأسباب اقتصادية معينة، فمن عادة الإنسان أن يسلك أقصر السبل لمراكز الإنتاج، وهذا هو السبب الوحيد للكشوف الجغرافية فى القرن الخامس عشر، وللطرق التجارية التى فتحت منذ ذلك التاريخ. ومن الأخطاء التى يرتكبها المؤرخون أن يضعوا الأسباب المختلفة لهذه الكشوف فى نفس الدرجة من الأهمية، فيذكرون أن أسبابها روح المغامرة، والتقدم فى فنون الملاحة.. إلخ، وأن هذه لم تكن سوى ظروف مواتية فحسب، ولكن السبب الحقيقى لهذه الكشوف كان الوصول إلى مراكز الموارد الطبيعية وما علينا إلا أن نذكر الأرباح الطائلة التى عادت - من ناحية أخرى - على تجار البندقية وجنوة، ومقاومة البنادقة والعرب للخطر البرتغالى الجديد كمنافس لتجارتهم فى المحيط الهندى، لكى نقنع أنفسنا بالدوافع الحقيقية لهذه الكشوف، وعلينا أن نتذكر بعد ذلك النشاط التجارى الكبير للمحيط الأطلسى، والذى كان وقفًا على البحر المتوسط.

---

(١) و.ج، برى (١٦) الجزء ٢٩، ٢٩١٨ - ١٩٩ ص ١٢٣.

وقد خطت طرق ملاحة تجارية جديدة، فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، بين أوربا وأمريكا الجنوبية وهى خطوط ملاحية سارت فى طرق مرسومة محددة، مثل طرق الغلايين (السفن) من قادش إلى قرطاجنة وبورتو بللو فى برزخ بنما، وطرق المهربين التى كان يرتادها قراصنة سان مالور الإنجليز الذين كانوا يصلون إلى بيرو عن طريق بوينس إيريس أو رأس هورن، «السفن المسجلة» تتبع طرق القراصنة والمهربين كذلك، تبعا لضرورات التجارة[1].

ولما كانت الأنهار أيضا طرقا تجارية جيدة، فإنها استعملت منذ فجر التاريخ، ولعبت فى التجارة دورا خطيرا، فقبائل الأيدوى كانت تستمد قوتها من مركزها على ضفاف السوار والألير والساءون، وسيطرتها على هذه الأنهار التى كانت تعبرها التجارة، وفرضها المكوس والضرائب على السلع التى ينقلها التجار، مما أوغر الضغينة والحسد فى قلوب جيرانهم الذين تألبوا لحرمانهم من تلك المكوس، فكان الصراع بينهم وبين السيكوانى[2]، وهذا مجرد مثل واحد من أمثلة عديدة فقد كانت المدن الغالية تتكتل على ضفاف النهر من الأنهار الفرنسية[3]، والسيطرة عليه من كلتا الضفتين، حتى تكون السيطرة عليها وعلى التجارة التى تحملها كاملة. وهكذا كان النهر عاملا للوحدة، فاصلا أو عازلا إلا فى النادر.

وتتكرر نفس القصة بالنسبة للطرق البرية.

إن قيمة الطريق سواء كان يعبر سهوب الستبس أم فيافى الصحراء، وسواء كان طريق قوافل، أم كان يؤدى إلى مراكز التجارة وسط كروم شمبانيا، وسواء كان طريقا حديديا حديثا أم طريقا بريا قديما، إن قيمة الطريق على أى حال لا تتوقف على حالته الطبيعية. وإنما على الغاية التى من أجلها شقه الإنسان .

وقد لاحظ ديمانجون وهو يعرض كتاب مارسيل بلانشارد عن طريق الألب الغربية[4] الكبرى، أن أهم مبرر لطريق سنى Cenis، هو أنه يمكن اختراق الألب

---

(١) Girard, A. "Les voies de commerce dans Amérique espagnole pendant l'epoque coloniale (Bibl. Améric) II, 1912. p 289. ff.

(٢) سترابو، (٤)، ٢،٣؛ قيصر (٤) ١٠، ٣.

(٣) جوليان (١٧٢) الجزء الثانى ص ٢٦ وما بعدها، ٢٢٣ وما بعدها.

(٤) (١١) ، ١٩٢١، ١٢٨.

عند هذا الحد من أول محاولة، حيث إنه لا يوجد سوى جزء واحد صاعد فى الطريق وآخر هابط، وربما كان هذا صحيحًا، ولكن أى تفسير لاتخاذ هذا الطريق يجب أن يتضمن مقارنة بين ممر سنى وممر جنيڤر Genévre، الذى يتضمن مصعدا من إيطاليا، ثم مهبطا إلى داوى دورانس، ثم مصعدا آخر لمغادرة هذا الوادى إلى الغرب والشمال الغربى، عن طريق وادى لوتاريه Lautaret أو عن طريق ممر بايارد Payard، وممر شامبساور. وبالرغم من هذا فربما كان ممر سنى أكثر أهمية أيام القوافل والانتقال على ظهور البغال وأيام أول العهد بمد الخطوط الحديدية. فالخط الحديدى الذى يخترقه من أقدم خطوط الألب إطلاقا ولكن الحال تغيرت الآن، ألم نلاحظ السباق الجنونى من جانب الدول الكبرى فى شق الأنفاق فى جبال الألب قبيل الحرب العالمية الأولى، كل منها تريد وتصر على شق أنفاقها[1] الخاصة، دون اعتبار للصعوبات الجغرافية التى تواجهها؟ وكيف يمكن أن نبرر هذا، بينما طريق سنى البسيط يؤدى الغرض، لولا التنافس الاقتصادى بين هذه الدول؟

على كل من يريد أن يصنف الطرق التجارية على أساس علمى، يجب ألا يهتم بتفاصيل الطريق أو على الاعتبارات المكانية والموقع الجغرافى، بل على أهمية وطبيعة الحركة التى تغذى الطريق، وهذا أساس بلغ من الحقيقة مبلغا كبيرا، حتى إننا نلاحظ أن بعض الصناعات قد اتخذت لنفسها طرقا خاصة للنقل.

ولعل أكثر هذه الصناعات دلالة، صناعة استخراج الملح، ففى بعض المقاطعات مثل فرانش كونتيه. نشأت أحسن وسيلة لتوزيع هذه السلعة الضرورية، معتمدة على نظام طرق خاص، اسمها طرق الملح. ومركزها سالين، وقد نشأت طرق الملح viae salaraioe فى كل مكان، حتى فى قلب الصحراء، ولما كانت طبقات الملح الصخرى، تقع بالقرب من مراكز المعدنين، كما هى الحال فى نوريكوم واللورين وفرانش كونتيه مثلا، كانت طرق الملح فى الوقت نفسه طرقا للمعادن، ذات وظيفة

(1) Eisenmann, "les chemins dc fer transalpins". Rev. des covrs et conférences, 1914, notes. p, 191 - 193.

مزدوجة وظيفة حربية وأخرى تجارية، إذ كان التنافس شديدًا بين الدول على امتلاك مناجم الملح، ومناجم المعادن الأخرى، كما كان التنافس بينها شديدًا على السيطرة على الأنهار. وألسنا نسمع كثيرًا عن طريق الكهرمان، والمرجان، وطرق البهار وطرق الحرير؟ من العبث أن نحاول تقسيم رحلات هذه الطرق، كما لو كانت هى السبب فى شق تلك الطرق، كما أنه من العبث أيضا أن نصنف الموانئ تبعًا لمواقعها الجغرافية. فإذا بدأنا نميز بين الموانئ الساحلية، والموانى النهرية، ثم نقسم الأخيرة إلى موانئ قائمة على خلجان كبيرة أو صغيرة، أو قائمة على فيوردات، ونقسم الأخيرة إلى موانئ خليجية نهرية وموانئ خارجية، عند مصب النهر[1]، فإن هذا فى رأينا يشبه دراسة نفسية أفراد أسرة من صورها الشمسية على طريقة وصف جوازات السفر، الأنف متوسط، الذقن مستديرة، الوجه بيضاوى» إلا أنه هناك حقائق ذات أهمية كبرى، مثل اتصاف بعض البشر بالعين المنحرفة، وبعضهم بالأنف الأفطس، كذلك من الحقائق المهمة أن هناك موانئ نهائية عند مصاب الأنهار لها قيمتها وأهميتها؛ ولكن هذا الوصف الأخير لموقع الميناء لايزال مطلقا على طبيعة التجارة التى تصرفها الميناء، كما أن الوصف الجسمانى للأول لا يدل على نفسية أصحاب العيون المنحرفة أو أصحاب الأنف الأفطس، فكل من مارسيليا وجنوة موانئ على خلجان، ولكن إحداهما انقطعت عن ظهيرها، فهى مجرد سوق كبير أو مخزن للبضائع، واتجاهها الجغرافى نحو البحر فحسب بينما الأخرى، منفذ لسلع المناطق الصناعية والزراعية الكبيرة، تتجمع فيها وتقوم بتصديرها. ولكن إلى جانب هذين المبدأين اللذين يشبه أحدهما الآخر فى الموقع الجغرافى، والتخطيط الطبوغرافى، كل منها يقع على نفس الشاطئ من نفس البحر، فى نفس الإقليم الاقتصادى، من نفس المدينة، هناك عدد لا حصر له من أنواع الموانئ؛ التى أتعبت الجغرافيين حتى الآن فى محاولة تصنيفها على أى أساس جغرافى.

---

(١) عن هذه التصنيفات انظر أسادا، «أنواع الموانئ دراسة فى التصنيف». (١٢) جزء ٢٧، ١٩٣ (١) ص ٢٦٢ وما بعدها.

ليس من السهل إيجاد التشابه الجغرافى بين موانئ التوزيع الكبرى مثل بومباى، هونج كونج. وزنزبار وموانئ المرور مثل عدن ودكار والجزائر أو بين منافذ الأقاليم الصناعية مثل بوسطن ونيويورك وبرشلونة وروتردام وأنفرس بل أكثر من هذا فأى محاولة فى عمل ذلك تضليل. وإن كل من يتصدى لإنشاء ميناء يجب أن يأخذ فى الاعتبار الظروف الجغرافية، مهماكانت هذه الظروف صعبة، لأننا نجد بعض الموانى تخلق خلقا، بالرغم من الظروف الجغرافية الغير المواتية، لأن الإنسان يجد من مصلحته الاقتصادية الكبرى. فى هذا الإقليم. إنشاء ميناء ومن أحسن أمثلة تلك الموانئ زيبروج. Zebrugge، أنها من خلق الإنسان بأدق معانى هذه الكلمة فلم يكن هناك أى موقع صالح لإنشاء ميناء فى هذا الساحل القفر؛ ليس هذا فحسب بل لم تكن هناك ضرورة ملحة لإنشائها؛ فلم يكن ثمت اقليم صناعى أو مركز تجارى؛ دون منفذ بحرى آخر له، ولم تكن هناك فرص للتوسع تستدعى إنشاء ميناء جديدة. فلم تكن بروج هذا المركز التجارى الكبير، ولم تكن الدلائل تبشر بنشاط تجارى غير عادى يستدعى قيام ميناء جديدة لها. بل على العكس، كانت بروج مدينة قديمة نائمة، تهتم بمجدها البحرى القديم وظنت أن إنشاء ميناء سيعيد إليها هذا المجد. القديم ومن ثم أُنشئت زيبروج «لتكون فى خدمة بروج إذا عاد نشاطها التجارى وتوسعت فى المستقبل، أو كما قال أحد الكتاب[1]، كانت منفذا لإحياء مستقبل، ولكنها لم تكن منفذًا لازدهار حاضر. ولكن إنشاء الموانئ، حتى على الرغم من الظروف الطبيعية، مسألة يسيرة أمام التقدم الهندسى الحالى. ولكن هناك فرقًا بين الميناء وبين المصنع «ففى حالة المصنع تكفى إقامة العدد والآلات وإدارتها وإخراج المنتجات ولا تبقى إلا مسألة توزيعها» أما فى حالة الميناء فيجب جذب الزبائن، بل ولابد من خلق الظهير، وليس هذا بالأمر اليسير فى عالم بلغت فيه المنافسة التجارية ذروتها، حيث تتحكم فى التجارة العالمية منشآت ومؤسسات تجارية احتكارية كبرى، نشأت لتضبط من النشاط التجارى فى العالم، وقادرة على وأد أى نشاط تجارى حر، بل وتستطيع أن تتحدى كل الاعتبارات الجغرافية أو الطبيعية، ومن ثم لم تكن

---

(1) J. Nissens-Hart, "Les Ports et leurs fonctions économiques," in société scientifique de Bruxelles, vols, IV, louvain, 1909, p.p 179 - 180.

زيبروج بقادرة على النمو «إلا فى خطوات وئيدة وبعد نشاط دائب صبور» وأخيرًا فإن ازدهار هذا الميناء الصناعى لا يعتمد على الظروف الطبيعية، كما أن جغرافيتها التجارية لا تقوم على أساس سليم ونشاطها يجب أن يعتمد على تدخل الإنسان باستمرار وسنرى إن كان خلق المهندسين يلاقى نجاحا أو فشلا.

ومن ثم فإننا نجد أن الموانئ أحد المبتكرات الإنسانية الكبرى. يسير الآن نحو التحرر من الظروف الجغرافية، فإذا أردنا أن نصنفها تصنيفا مفيدا، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وظائفها الاقتصادية والأفضل من هذا القيم النسبية التى تشتمل عليها، وما تجمعه من توافق بين مختلف الوظائف الخاصة التى تقوم بها[1]. وليس من المستحسن أن نعلق معانى كبيرة على حكمة «اقتصادية»، إذ إن كل العمليات التجارية والمالية تتأثر إلى حد كبير بالمعتقدات العامة للشعوب، فالرأسمالية مثلا ليست إلا أسلوبا فى التفكير ونظاما فكريا خاصا وقد كان «أسادا - Assada»، وهو مؤلف دراسة ممتعة عن الموانئ، محقا عندما قال إن الظروف الاجتماعية. ويضرب لذلك مثلا: «قد يبدو غريبا أن نرجع تصدير القمح على نطاق واسع إلى أسباب اجتماعية، فالواقع أن هذا التصدير يعتمد على درجة المدنية التى يتمتع بها السكان الريفيون لظهير ميناء التصدير، كما يعتمد على أسلوبهم فى الحياة وإذا كانت أودسا قد تخصصت فى تصدير القمح فإنما يرجع ذلك إلى أن روسيا لاتزال دولة حديثة، حيث كثافة السكان قليلة بالنسبة لمساحة الأرض، وحيث حاجات الشعب بسيطة، هذا إلى جانب خصوبة التربة السوداء»[2].

فى الواقع لم تبدأ بعد دراسة أمثال هذه الموضوعات دراسة جدية. فليس من اليسير، فيما يختص بالدول العريقة فى المدنية، استخدام الإحصائيات، ولاسيما فيما يتعلق بالسكك الحديدية، ومعرفة أهمية تجارة سلعة من السلع، وإذا وجدت حالات خاصة بالتعريفة الجمركية، أمكن أيضا معرفة الحركة التجارية الخاصة بين دولة وأخرى، وبالرغم من أن هذا الموضوع دقيق؛ فإنه قد يكون أقرب منالا

---

(١) انظر روسبير (١٦٦).
(٢) نفس المرجع ص ٢٢٦.

من تناول إحصائيات الجمارك جملة وتحليلها. لأن أهمية الميناء تقاس بتقدير ثلاثة أشياء: مجمل حمولة السفن التى تزورها، مجمل حمولة الصادر ومجمل حمولة الوارد، ومجمل قيمة التجارة التى تمر بها. وهذا ليس من السهل تقديره، كما أن أى تقسيم قائم على تقدير واحد من هذه الأشياء الثلاثة فقط. لايمكن أن يكون مضبوطا. إلا أن الموانئ لا تتفق فى مدنا بجميع هذه الإحصاءات التى نريدها. وعلى نفس الأسس التى نتوخاها. ومن ثم كانت معظم الاحصاءات مضللة. لأننا نعالج نظاما متداخلا معقدا، ونحلل عناصر تجارية من الصعب التمييز فيما بينها. وليس الأمر قاصرا على المدنيات المعقدة العريقة، فإن نفس الصعوبة تقابل المؤرخ والجغرافى والاقتصادى إذا حاولوا دراسة المدنيات البسيطة.

ومن المفيد ترتيب هذه الحقائق فى مجموعات، إذ إن فهمها يكمن فى اعتبارات فنية ليس من اليسير فهمها بسهولة.

ولنضرب مثلا بطرق الصحراء الكبرى. فهى تشبه إلى حد كبير الطرق الملاحية البحرية، أو كانت تشبه إذا توخينا الدقة، حيث إن جزءا كبيرا من هذه التجارة قد نضب معينه. هذه الطرق تمتد بين ساحلين متقابلين. إذا شبهنا داخلية الصحراء بالبحر. ساحل أفريقيا الصغرى فى الشمال وساحل السودان فى الجنوب عبر البحر من الرمال والصخور الجرداء فيصل بينها، ولابد من اختراق هذا البحر بأقل خسارة ممكنة. وتقوم على كل من الساحلين الشمالى والجنوبى سلسلة من الموانئ أو المحطات القوافلية النهائية من جانب تندوف، طرابلس، بنغازى ومن الجانب الآخر تمبكتو، كانوء زندر، كوكا، أبيك، والفاشر. وهذه المدن جميعا قامت حول نويات من محلات التجار البربر والعرب[1]، الذين يقومون بتنظيم تجارة الصحراء، هؤلاء الوسطاء التجار يخزنون تجارة الشمال، من ملابس وخرز وروائح وسكر وورق، ثم يوسقون القوافل عوضا عنها بسلع يجمعونها من ممالك الزنج، مثل الذهب والعاج وريش النعام وأهم من هذا كله الرقيق. وفى الطريق تضاف إلى هذه السلع، سلع صحراوية أصيلة وأهمها الملح،

---

(١) منيود (١٨٣) الجزء الأول، ١٧٥.

الذى كان تجارة قائمة بذاتها، جديرة بأن تجذب الناس إلى فيافى الصحراء وهكذا تسير منتجات البحر المتوسط والإقليم السودانى والصحراء فى طرق الصحراء[1]، ولكن تجارة عبر الصحراء الحالية ليست إلا أثرا ضئيلا مما كانت عليه فى الماضى، عندما كان بالقرب من ١٠٫٠٠٠ إلى ١٥٫٠٠٠ ألف جمل تضرب على الدروب من تمبكتو إلى توات ومن ثم إلى تافليت أو من أغادميس إلى طرابلس أو من كانو وزندر إلى غات وإلى مرزوق أو من أبيك إلى بنغازى عن طريق واحة الكفرة، ولماذا إذن أقفرت دروب الصحراء الآن؟

يرجع ذلك إلى اختفاء تجارة الرقيق، وبالتالى أهم سلعة بين السودان والبحر المتوسط. ولا شك فى هذا، ولكنا نضيف إلى هذا عاملا آخر أوضحه مينود: فإن خمسة عشر ألف جمل تستطيع أن تحمل حمولة قدرها ١٥٠٠ طن. وكان هذا يبدو رائعا فى الزمن الماضى؛ عندما كانت حمولة السفينة هارى الكبير ألف طن، وكانت تزهو بهذه الحمولة بين السفن أيام إليزابيث؛ وعلى هذا القياس كانت حمولة قوافل الصحراء فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تضارع حمولة أضخم الأساطيل الأوربية أما الآن فإن أصغر السفن التى تمخر العباب إلى امريكا الجنوبية أو افريقيا أو افريقيا أو استراليا أو الشرق الأقصى، تتراوح حمولتها من ٦٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ طن، وتسير بسرعة تتراوح ما بين ١٤، ١٥ عقدة وتصل حمولة بعض السفن التجارية إلى ٢٠,٠٠٠ طن، ولكن معظمها تتراوح حمولته بين ٣,٠٠٠. ١٠,٠٠٠ طن وتبلغ حمولة أكبر سفينة حديدية من ١٥٠٠ - ٥٠٠٠ طن[2]. أليس من المفيد مقارنة هذه الأرقام الأخيرة بأرقام عصر اليزابيث؟ وأليس من الحق أن نقول إن ظروف سفن البحر تسمح لها بأن تسحق منافسة سفن الصحراء سحقا[3]، وخصوصا بعد أن تم تعبيد الطرق التى تصل بين ساحل البحر المتوسط وداخلية البلاد، أو بين خليج غانة وقلب القارة الأفريقية. بهذا تم للتجارة البحرية أن تسود تجارة الصحراء والحياة الاقتصادية للسودان.

(١) قارن بصفة خاصة دراسة كوريتر الدقيقة (١٢) جزء ٢٥، ١٩١٢، (١) ص ٩ وما بعدها. ولا سيما ص ٩٧، ٩٨ فيما يتعلق بتجارة بلما.
(٢) منيود (١٨٣) نفس الموضع.
(٣) فالو (٢٥٦) ص ٢٨٠.

ومجمل القول: طبيعة الأرض لا تلعب إلا دورا ثانويا فيما يختص بإنشاء الطرق التجارية، أما الدور الأول فتلعبه الحاجة الدافعة إلى إنشاء هذا الطريق، والإنسان كفيل بتخطى كل العقبات التى تعترض سبيله، ولن تقف فى طريقه مستنقعات، أو هيارات ثلجية، أو جبال شامخة أو صحار مجدبة.

- ٣ -

الطرق الدينية والطرق الثقافية

ما يصدق على الطرق التجارية يصدق أيضًا على الطرق الدينية، فالناس لا ينتقلون من مكان لغرض التجارة فحسب. وتدل أقدم وثائق التاريخ التى نستطيع أن نستنبئها. أن الإنسان كان يقطع المسافات الطويلة لكى يحج إلى المراكز الدينية الكبيرة، وإلى مراكز الحياة المتقلبة وهل نحتاج إلى أن نذكر مثلا رحلات الحج فى بلاد اليونان القديمة. وتلك الجموع التى كانت تحتشد قادمة من جميع أنحاء بلاد اليونان فى مواعيد معينة لزيارة دلفى وكورنث والأولمب وأثينا وديلوس؟ لم تكن هذه الرحلات دون علاقة بالظروف الجغرافية. ولكن الحجاج كانوا يفضلون دون شك أيسر الطرق وأسهل المسالك، ولكن فيما عدا ذلك، لم يكن للظروف الجغرافية دخل فى مواعيد الحج، أو فى دواعيه، أو فى اتجاهاته أو فى حركاته الموسمية (الفصلية) أو فى الخبرات التى يكتسبها الحاج من حجه. وقد كانت هذه الظاهرة الخاصة بالحج دائمة مستمرة فى التاريخ، ونحن نعرف مقدار أهمية الحج فى العصور الوسطى، وكيف أنه كان السبب فى إنشاء عدد من الطرق، وتعبيدها والعناية بها، وكيف كانت هذه الطرق تنتظم عددا من الأديرة والفنادق والمبرات، وكيف كانت توضع فى وصفها الكتب الخاصة.

وأهم طرق الحاج كانت تؤدى إلى روما أو إلى القدس من ناحية وإلى «سانتيا جودى كومبوستيلا - Santiago de Compostella» من ناحية أخرى. ونحن نعرف طرق الحاج إلى روما[1]، عبر ممر سان برنار الكبير ووادى آوستا، ووادى أرك،

(1) Bedier, Les Légandes épiques. 2d. vol, II, 1916. p. 143 ff Les chansons de gestes et les routes d'Italie. Carte. p. 153.

وممر سينى، دورا ريباريا؛ وأحيانا قليلة الطرق الجنوبية، مونت جنيفر، ممر تندا، وطريق الساحل أو الكورنيش ومن ثم يعبرون إلى روما عن طريق ممر سيسا Cisa، أو عن طريق ممرات الأبنين، بين فورلى وأريزو Arezzo[1]. وكانت برنديزى ميناء السفر إلى الأراضى المقدسة ولكن أحيانا كان الحاج يستقلون السفن من البندقية أو جنوة أو بيزا[2]. وليس من المهم أن نذكر أن هذه الطرق يرتادها الحاج فى الصيف، وأنها كانت تعبر الجبال فى المعابر والممرات ذات الظروف الجغرافية الحسنة، فأهم ما كان يميز هذه الطرق، وظيفتها الدينية وغايتها، أما ما عدا هذا فأمر ثانوى، ومن المهم أن نذكر أن معظم هذه الطرق كانت مهيأة أيضا للسير على الأقدام، وأن رحلاتها كانت تبدأ فى تواريخ محددة فى بعض الأحيان، لحضور حفلات دينية خاصة فى الطريق وأحيانا لم تكن تتقيد بتاريخ، ولذلك كان أمر اختيار الفصل الخاص بالرحلة متروكا لتقدير الحاج. ولسنا هنا بإزاء حركة مرور مهمة عاجلة. مثل نقل المواد والسلع الضرورية للحياة.

كما أننا نعرف الطرق التى تتجه من أنحاء أوربا كلها صوب سانتياجو دى كومبو ستيلا فى غاليسيا[3]. ونحن نعرف أيضا أن هذا الطريق كان مزدهرا فى القرن العاشر، ثم ازدادت حركة الحاج فيه فجأة فى القرن الثانى عشر، وهذا يرجع إلى نشاط رجل نشيط طموح، هو ديجو جلميريز، أسقف ثم كبير أساقفة «كومبوستيلا» وهنا أيضا نرى الدافع الفردى الإنسانى وراء كل هذه الحركات الإنسانية الجماعية، ووراء المنشآت العديدة، مثل الموانئ والأديرة والصناعات الأخرى. ونعرف أيضا مدلول حركة الحج هذه، وما تؤدى إليه، من تعبيد الطرق - طرق سانت جيمس الشهيرة مثلا. وإنشاء المبرات ودور الضيافة على طول هذه الطرق، والملاجئ التى تفتح أبوابها فى الليل أمام الحاج، وتكوين جمعيات الأخوة فى كل مكان، والعناية بمؤسسات ونظم دينية وحربية، تقوم على حراسة الحاج

---

(١) Male "L'art du Moyen Age et les pélerinages" Rev.de Paris, t. CLV, Oct. 15, 1919. p. 718.

(٢) بيديير. نفس المرجع ص ٢٦٦.

(٣) بيديير، نفس المرجع جزء ١، ١٩١٩، ص ٣٦٦.

فى الطرق المهمة[١]. ولم يحدث هذا فقط فى الطرق المؤدية إلى روما وسانتياجو، حيث كانت الطرق تزدحم بالحجاج، فى الصيف، فى أعداد غفيرة، حتى إنه أطلق عليها طرق الحاج العامة، وكانت غيرهم من التجار والجنود والسفراء والقسس لم يكونوا يشاركونهم، بل إنها أيضًا كانت تزحم الطرق الرومانية القديمة[٢]. وكانت هناك مئات أخرى من المواضع المقدسة المسيحية تجذب إليها الحاج من مختلف أنحاء أوربا - منها - فى فرنسا وحدها - شارنز، كليرمونت، لى بى، تور، بواميتيه، سانت، كونك، مواساك وتولوز. ونستطيع أن نفهم بسهولة الدواعى التى رسمت تلك الطرق الدينية، وهى وجود أكبر عدد ممكن من المبرات فى الطريق، وهى على أكبر عدد ممكن من الأماكن المقدسة فى الطريق كذلك[٣].

وليست ظاهرة الحج قاصرة على المسيحيين فى القرون الوسطى، فكاميل جوليان يذكر لنا نشاط الأديرة وأماكن تجمع الحجاج فى الأماكن الكلتية المقدسة، وكانت تشبه أديرتنا فى العصور الوسطى، مراكز نشاط تجارى صناعى فى نفس الوقت[٤]، «ومن هذه اليزايا ذات الأهمية المعدنية المعروفة، ولم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ صناعة الحديد، كما يقول الكسندر براتراند - فى نفس المكان الذى اتخذته إحدى المؤسسات الدبلية (ليرويديكال) Druidical الكلتية مركزا لها». كما أن المراكز المقدسة هذه كان لها نشاط تجارى، فنشأت رابطة اقتصادية بينها، ويمكن ربط المجتمعات القديمة التى نستطيع إرجاعها إلى عصر البرنز والحديد فى أوربا، بارتباطها برباط اللغة والمصلحة والدين، وكان مركز هذا كله، محلة دينية مقدسة، وتربط بين المحلات الدينية المختلفة طرق خاصة ليس هذا فحسب، بل إن أحد الباحثين ربط بين صناعة الأجراس فى فرنسا ومراكز صناعة الحديد Clocca (بالفرنسية Cloche) والأجراس الدينية الكلتية القديمة. فهى توجد فى مراكز معينة فى شمال إيطاليا، والأنجادين، وفرنسا، واستوريا والبرتغال. ويقال إن القسس الأيرلنديين هم الذين أدخلوا السيف والناقوس إلى

---

(١) بيدير نفس المرجع، ١ ص ٣٦٧.
(٢) نفس المرجع جزء ٢، ص ١٤٨.
(٣) Male. Revue de Paris vol. CLVII Fev. 15, 1920 p.774 ff
(٤) jullian, Rev. des Et. Anc. t. XXII, 1920, pp. 211-212.

القارة الأوربية، وأن انتشار استعمالها تبع طرق الحاج التى تسير من بوبيو إلى سانتياجودى كومبو ستيلا، ولنرجع إلى أبحاث بيديير وميل وغيرهما عن انتشار الحضارة الروحية والفنية والعقلية فى القارة الأوربية لنستزيد معرفة وعلما.

ومثل هذا يمكن أن نجده فى الأقطار الإسلامية والأقطار البوذية، ويظهر هذا بوضوح فى مراكز الحج فى مكة، أو أماكن الزيارة أيام موالد الصالحين فى القيروان وتلمسان. وقد درست طرق الحاج إلى مكة، كما درست طرق الحاج إلى لهاشا بعناية أيضا. ولماذا نذهب بعيدا، فلنلاحظ حركة الركاب بالسكك الحديدية الجنوبية فى فرنسا أيام المواسم الدينية فى لورد، وفى يوم عذراء أوراى Auray، أما عن لورد فهى تحتل مكانا ممتازا من الناحية الجغرافية، كما أنها مدينة تاريخية قديمة، صغيرة تنبثق فيها عين ماء مشهورة من قديم، كما أنها مزودة بصخرة منعزلة مهيأة تماما لأعمال التحصين والدفاع «وتحيط بها الحقول والمروج، وتلعب أيضا دور السوق الريفية المحلية، التى تقوم عند عين ماء، تحتمى بقلعة حصينة. وقد أضيفت إلى أهميتها هذه صفة دينية تجتذب الحاج وهى الآن فى طريقها لتصبح عاصمة البرانس.

لنلاحظ أخيرا أن هذه المراكز المقدسة لها فى الغالب وظيفة مزدوجة؛ وظيفة الدين، ووظيفة الحضارة العلمية، ففى بلاد اليونان القديمة، كانت الأعياد الدينية تقام فى نفس الوقت الذى تقام فيه المباريات الرياضية، والمباريات الأدبية والفنية والموسيقية. ومراكز الأديرة الكبيرة فى القرون الوسطى، كانت نويات نمو مراكز الثقافة الكبرى فى أوربا، والجوامع الكبرى والمساجد الشهيرة فى البلاد الإسلامية مراكز للثقافة أيضا، وهل نحتاج إلى الاشارة إلى نظرية بيديير عن نشأة الأغانى الفرنسية Chansons de gestes، وما وصل إليه فى بحثه، من وجود رابطة بين المراكز الأدبية والإنتاج الأدبى، وبين تأثير مراكز الحج فى أوربا أثناء العصور الوسطى، لاشك أنه فى مرحلة متقدمة من تطور المجتمعات الإنسانية، فيصل بين النشاط العقلى والنشاط الدينى، وبين مراكز الثقافة العقلية، ومراكز الحج الدينية، ولكن ألم تتحول المراكز الدينية الكبرى إلى جامعات، فأصبحت نقطا تجتذب إليها كل من يهمهم أمر الثقافة والدين معا من كل مكان فأدى هذا إلى حركة مرور جديدة، من نوع جديد، من طرق الحج القديمة، ونحن نعرف

مركز جامعة باريس كمركز للجاذبية العقلية، فى العصور الوسطى، وقد ظلت حركة الحاج قائمة حتى عصر النهضة، حج من نوع جديد، حول فرنسا وحول إيطاليا ولكن يقوم به طلبة العلم الآن. ولاتزال بعض الجامعات الألمانية والأنجلوساكسونية مراكز يحج إليها طلبة العلم من جميع أنحاء العالم.

- ٤ -

الطرق السياسية، ونشأة الدول

هذه طرق تجارية ودينية وثقافية، ولكنها ليست الطرق المهمة التى تخلق الدول أو تحفظ الإمبراطوريات.

لا يمكن أن تقوم الدول إلا إذا رغب بعض الناس أن يعيشوا معا، تربطهم أمان وآمال ومصالح واحدة. وتلعب الطرق دورا مهمًا فى حياة الوحدات السياسية، ولكنه دور تختلف أهميته من وقت إلى آخر. ومن ظرف إلى آخر. ولكنه فى الوقت نفسه يمكننا دراسته، فى قطر ما، فى عصر ما ومقارنته بالدور الذى لعبت شبكة الطرق لإقليم آخر، فى نفس الفترة أو العصر، أو مقارنته بشبكة الطرق لنفس القطر، عصر آخر ومن أن يلقى ضوءا على مميزات هذا القطر وأغراض الدولة التى تحكمه. وقد بين فيدال دى لابلاش هذا فيما يختص بفرنسا، فى آخر كتابه «خريطة فرنسا»، وليس أدل من المقارنة التى يعقدها بين خريطة الطرق الرومانية فى بلاد الغال، والطرق الملكية فى آخر القرن الثامن عشر والسكك الحديدية الحالية. فهى تبين شبكة كاملة من وسائل المواصلات وطرقها، بشكل يمكن الدولة من أن تهيمن على موارد القوة ومصادرها وتسيطر على وسائل النقل والمواصلات السريعة بين مركزها وبين الدول المجاورة التى تنافسها، كما تبين أن الطرق الدولية تكون نظاما موحدا معينا ـ وهذا بخلاف الطرق الأخرى. ولاشك فيما يختص بالطرق الفرنسية أنها وضعت لكى تخدم النظام الملكى المركزى لفرنسا، كما أن الطرق الرومانية كانت تتبع نظاما معينا تربط أجزاء الإمبراطوريات بعضها بالبعض الآخر، وكذلك الحال فيما يختص بالطرق الملكية الفارسية أيام داريوس، ولا يزال هذا صحيحا فيما يختص بشبكة الطرق والسكك الحديدية فى معظم الدول الحديثة، ونحن نستطيع بقليل من

الجهد أن نميز بين الخطوط الحديدية الإستراتيجية وبين الخطوط الحديدية الثانوية العادية التى تخدم الركاب والبضائع، وهذا أيضا صحيح فيما يختص ببعض الطرق الملاحية، مثل الطريق إلى الهند، عن طريق البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر أو المحيط الهندى. تحرسه الممتلكات البريطانية من مبدئه حتى غايته. وهذا أحسن الأمثلة لهذه الطرق الملاحية الإمبراطورية.

هذه الشبكات إذن أمر يهم التاريخ والسياسة أكثر مما يهم الجغرافيا، إنها مسألة صنع أقوى الدروع لحماية عناصر معينة للتنظيم السياسى، ومثل هذا العمل صعب وليس من اليسير المحافظة عليه ولذلك يتطلب عملاء متخصصين لخدمته؛ ولا تخضع الدول فى محاولاتها هذه لحكم الضرورة القصوى، ولكنها مسألة سياسية ومصالح، وصلت إليها الدول المختلفة. بعد محاولات عديدة وارتكاب أخطاء عديدة وهى مسألة من صنع السياسة كما هى من صنع التاريخ.

وأكثر من هذا ليس هناك ضرورة معينة - أو ضرورة جغرافية - تحتم ترابط أو تكتل مقاطعات معينة لكى تكون دولة واحدة. فتكتل بعض المقاطعات يوازى تكتل غيرها دون أى استحالة أو خروج على حكم المنطق. بل أحيانا ما تهمل التسهيلات التى تقدمها الظروف الجغرافية فى سبيل مصالح أو أطماع معينة. ويقول فيدال دى لا بلاش فى الكتاب الصغير الذى ذكرناه من قبل: لو لم يكن اتحاد المقاطعات الغالية حقيقة واقعة. قبل أن تبلغ القبائل الجرمانية الشمالية مرحلة الوعى القومى، فمن يدرى، ربما تكونت دول أخرى. من اتحاد بعض المقاطعات الفرنسية على جيرانها. أليس حوض باريس أقرب إلى حوض لندن، وأليس اللورين أقرب إلى سوابيا. من الناحية الجغرافية البحتة. أكثر من قرب هذه المقاطعات من مقاطعات البحر الأبيض المتوسط الفرنسية؟»[1]. وهذه فكرة رائعة فليست الدول إذن أشياء ولدت وحدها، ونمت فى فراغ. بل هى تتأثر بالعوامل الخارجية فى بلادها ونشأتها. هذا الدافع خارجى باستمرار، فليس هناك دولة من صنع مدنيتها الخاصة، وإلا فإنها لم تكن بقادرة إلا على خلق مدنية محدودة الأفق، كالساعة التى تدور بعض الوقت ثم تتوقف عن الدوران. ولكى تنمو الدولة أو

---

(١) فيدال «٢١٠» ص (٥٣ ، ٥٤).

المدينة، يجب أن تكون وثيقة الصلة بالتيارات المدنية الخارجية، التى تغذيها عناصر جديدة باستمرار[1]، وبعبارة أخرى، هناك «طريق» باستمرار فى حياة كل دولة. مثل الحبل السرى الذى يربطها بجسم المدنية الكبرى فى العالم. والذى تنبض من خلاله ومضات الحياة من هذا الجسم الكبير. وهو كما نرى غير الطرق الصغيرة التى تربط أجزاء الدولة بعضها بالبعض الآخر.

ويتحدث فيدال دى لابلاش، فى موضع آخر، عن هذا الشىء غير المادى الذى يسمى «طريقة المواصلات»[2]، أنه كما بينا ذلك الطريق الذى كان السبب فى قيام الأمم الكبرى، والوحدات السياسية الكبرى: ومضة كهربائية تسرى فى كيان عدد من المقاطعات؛ تربط بعضها بالبعض الآخر. أو «تصل» بعضها بالبعض الآخر. وتسلك هذه الأجزاء المختلفة فى عقد واحد هو فى الواقع شىء غامض. ولكنه رابطة بيئية، يجعلها جميعا تتحد، فى حكم معين. دون بقية الأشكال أو الاحتمالات، وهذا عمل عظيم كبير الأهمية ولكن هذا الرباط المعنوى . لكى يكتب له البقاء . يجب أن يتحول إلى رباط مادى . طريق من الحجارة والأسمنت. «فلم تصبح إيطاليا أمة واحدة إلا بعد أن ربطت طرق أبيان، وفلامينيان، أطرافها البعيدة بعضها بالبعض الآخر» ولم تتكون الأمة الفرنسية إلا بعد أن أقام الكلت قبل الرومان شبكة من الطرق العديدة، ربطت أجزاء فرنسا بعضها بالبعض الآخر وأوجدت تيارات عديدة، تلاقت وأولدت وأتمت الوحدة الفرنسية.

هذا مثل من أمثلة عقلية ذلك الجغرافى الكبير الذى سبر أغوار التاريخ وما قبل التاريخ، والذى كان يجمع الحقائق ويمثلها ويخرجها آراء ناقدة جديدة. لا يستطيعها غيره من المفكرين. فهو قد تحرر من فكرة الحتم الجغرافى، والقرارات التى تفرضها طبيعة الأرض والظروف الجغرافية الأخرى، ولكنه يقدرها تقديرا سليما صحيحا ببصيرة نفاذة. فلم يتصور فرنسا عدداً من المقاطعات اتصل بعضها بالبعض الآخر اتصالا آليا، كمن يبنى منزلا طابقا فوق آخر بالطوب والحجارة. ولكنه كان يعلم علم اليقين أن دوافع الفكر الإنسانى، وهى تكوين الدول

---

(١) نفس المرجع ص ١٧.

(٢) نفس المرجع ص ٥٢.

والأمم. لم يأت عفو الساعة ولكنه عمل نشأ أول الأمر نشأة بسيطة. ثم ظل ينمو ويتعدل ويزداد صلابة كلما تخطى دور الطفولة. حتى يتغلب على الصعاب التى تترصد له خلال العصور الطويلة، وإن وراء هذا البنيان إرادة قوية تكافح لكى تتغلب على الصعوبات. وتلائم بين رغباتها وبين ظروف البيئة الطبيعية. وتجاهد فى استغلال عناصر البيئة لتلائم تلك الرغبات. ولكنها لا تخضع لها خضوعا سلبيا مطلقا.

الفصل الثالث
المدن

- ١ -
التفسيرات المتطرفة

لقد كتب بعض الجغرافيين الرسائل الجيدة عن المدن فى فرنسا، ولسوف نعود حالا إلى النتائج التى وصلت إليها هذه الرسائل كما ظهر أيضا - خارج فرنسا وبخاصة فى ألمانيا - دراسات حاول فيها أصحابها أن يقسموا المدن إلى أقسام ومجموعات حسب مميزاتها الجغرافية، وقد أسس بعض هؤلاء دراستهم على الموقع، ومنهم راتزال الذى يتبعه[1] أكثر الكتاب، وبعضهم أسس تقسيمه على تخطيط المدن كما اختار بعضهم مميزات أخرى أساسا لتقسيمهم مثل مادة البناء وشكل المدنية والمظهر الخارجى للمنازل والمبانى[2]، وقد أفرغت المدن المدروسة فى قوائم ثم قسمت إلى أسر وفصائل وطرز، هذا عمل جليل، مهم فى نتائجه، أو على الأقل فى طريقته، ولا شك فى قيمة هذا العمل، بشرط أن يتذكر أصحابه أن تقسيمهم هذا مبدئى، وألا يندفعوا فى التعميم جزافا.

هذه مدن أربع، زيورخ ولوسرن، ثون، جنيف[3]، كل منها يقع على طرف بحيرة، على جانب النهر الذى يصرفها؛ فهل هى تكون مجموعة طبيعية؟ الا يحق لنا أن نطلق عليها ذلك التعبير الجذاب، «طراز» الذى يثير الخيال؟ بلاشك. إذا أردنا. ولكن ما هى قيمة تلك المقارنة بين ثون المدينة الثانوية، وبين زيورخ المدينة الكبيرة. عاصمة سويسرا الصناعية - أو بين لوسرن، مدينة الفنادق الصغيرة يؤمها الأجانب، وبين جنيف؟ فهل يشفع مجرد الموقع. أو الصفة الجغرافية

---

(١) راتزال «١٦٢».

(٢) هاسرت «١٥٤».

(٣) برون «٦٦» ص ٢٤٥.

المشتركة بينها فى الجمع بين هذه المدن المختلفة تحت طراز واحد، أو يمكن أن يخلق ذلك وجها للمقارنة بين وظائف هذه المدن؟ لا وجه للمقارنة فى الوظيفة بين هذه المدن إطلاقا. الواقع أن أهم عامل فى هذه المدن المختلفة هو وظيفتها، يمكن أن نقسم المدن إلى أقسام وطرز حسب وظائفها كما فعلنا لدى الحديث عن الطرق والموانئ، إذا أردنا أن يكون تقسيمنا للمدن على أساس سليم؛ وإلا فإنه يجدر بنا أن نقسم الأمزجة العقلية لدى الأفراد حسب طول الأنف أو شكل العين.

ربما كان للوظيفة أثر فى شكل، أو مظهر، أو تخطيط المدينة، ولكن العكس[1] غير صحيح ولذلك فلابد من فهم هذه النقطة فهما جيداً. فعندما نقول إن «البندقية، وأمستردام، ودانزج مدن على البحر أو قرب البحر، وكلها تتفق فى كونها مدينة قناة؛ فهى ولاشك تستحق أن تجمع معا وأن تعقد بينها المقارنة»[2]، فإننا لا نملك سوى أن نعلق على هذا الحكم، ولكن ما قيمة هذه المقارنة؟ هل هى تضمن شيئا مفيداً أم مجرد أمر شيق؟ هل تزيد على الاشتراك فى صفة البناء على بحر، أو قرب بحر، أو على قناة؟ وما قيمة هذا؟ ليس كل مقارنة ذات قيمة فى نفسها، فتقسيم ملوك فرنسا إلى ملوك سمان أو نحاف طوال أو قصار لا يقدم كثيراً فى معرفتنا بحكمهم أو صفاتهم السياسية.

ويضيف نفس المؤلف الذى استشهدنا به فى الفقرة السابقة قوله[3]: «إن فائدة هذا التقسيم تنصب على الصفات الجوهرية التى تمتاز بها، وبذلك نستطيع أن نقارن بين مدينة وأخرى، بل بين جزء من مدينة وما يقابله فى مدينة أخرى تشاركها فى نفس الطبيعة الجغرافية» ودعنا نقتبس بعض أمثلته كيفما اتفق، هامبورج، بروغ، متز، «وستراسبورج بحيها المسمى Klein Frankreich - حى المصانع والطواحين، حيث يتفرع نهر إلى خمسة أفرع، بأرصفتها وموانئها، التى تحمل ذكريات «وطنية» عديدة مثل Zum Franzoesel[4]، ولكن ما هو ذلك القدر الجغرافى المشترك مهما كان ضئيلا، بين هذه الأحياء المختلفة. وربما كان من المضحك أن ننسب حى المصانع فى ستراسبورج إلى صفة البندقية. وإذا قيل لنا

(١) هاسرت «١٥٤» بناء المدينة، ص ٩٣ - ١١٢.

(٢) برون «٦٦» ص ٢٤٦.

(٣) نفس المرجع.

(4) Scyboth,Strasbourg historique et Pittoresque, Streasbourg, 1894, P. 581.

إن جميع الأحياء المائية فى المدن الأوربية متشابهة فى أن السماء تظللها جميعا، وأن بها منازل، وأنها مطلة على الماء، فإننا نقبل ذلك فى الحال، ولكنا لا نقبل مطلقا أن يقال لنا إن هذه المقارنة جغرافية، وإلا لأصبحت كلمة جغرافيا التى كانت تعنى أكثر مما ينبغى، لا تعنى شيئا. وليس من شك أننا نستطيع أن نقارن أحياء معينة فى بعض المدن بأحياء مماثلة، ولكن لا تعنى هذه المقارنة سوى رجل الأعمال. إنه وجه الشبه بين متز وستراسبورج وبارلى ووك وعدد من مدن شرق فرنسا هو وجود حجرات تجفيف واسعة فى مبانيها، وكانت هذه الحجرات تتطلبها صناعة معينة كانت تنتشر فى هذه الجهة من فرنسا. صناعة يدعو إليها الماء الآسن، وقد يدفع بنا إلى أن نعتقد أن الانسان اهتدى إلى حل واحد لمشكلة واحدة، فهنا فى العادة كان على الإنسان أن يواجه الحاجيات الصناعية باستعمال الأدوار الأرضية، ولكن أين الجغرافيا هنا؟ إذا أردنا أن نعتبر الجغرافيا علمًا؟ إن هذا لأمر غامض.

لقد استطاع فيدال دى لابلاس فى الواقع أن يلخص مشكلة المدن ويحللها فى عبارة موجزة معجزة عندما قال : «الطبيعة تهيئ الموقع، والإنسان ينظم المدن بحيث تفى بحاجاته»[١]، هذا حق صريح، ولكن علينا أن نبدأ بإضافة شىء من التمييز .

«الطبيعة تهيئ الموقع» صيغة غير زمانية . إذا جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير . ومن هنا ينشأ الشك فيها عند المؤرخ؛ فقد تسمح لنا بأن نخلط . كما فعل الجغرافى الذى اقتبسنا عنه مدن البحيرات ومدن القنوات . بين الصفات التى ميزها المؤرخ كاميل جوليان بعناية، وقسمها إلى عناصر مهمة تضيف إلى حيوية المدينة . وهى تكوين المدينة ونموها . فأى دراسة تخلو من فحص هذين العنصرين والتمييز بينهما، تعتبر دراسة ناقصة لا يمكن قبولها، ومن الممكن مثلا أن يكون موقع زيورخ ولوسرن وثون وجنيف على طرف بحيرة، بالقرب من نهر يصرفها، من الممكن أن يكون هذا الموقع الخاص ذا أثر فى نشأة هذه المدن الأربع، أى أن يكون لهذا الموقع أثر فى عصر تكوين المدينة، وإذا كان هذا صحيحا، وإذا عهدتنا

---

(١) فيدال ٤٠ ص ١٠٧.

دراستنا لهذه المدن أن هذا الموقع بالذات كان له ذلك الأثر التكوينى فى نشأة المدن، فإننا نرحب بتلك النتيجة ونغتبط بها، أما أن نقول ببساطة إن مدينة كذا ومدينة كذا تشتركان فى صفة معينة للموقع، وأن ننظمهما فى طراز واحد بمجرد ذكر تلك الصفة المعينة للموقع، فأمر لاجدوى منه. فالميزات الطبيعية من قديم أدت إلى ظهور عوامل مختلفة كل الاختلاف فى نمو المدن وإكسابها أهميتها هى عوامل نمو ـ أو كما يسميها جوليان ـ عوامل تنمية.

- ٢ -
مدن القلاع

والآن فلنرجع إلى بعض الحقائق، ونحاول أن نسلكها فى مجموعات، على ضوء هذا التمييز المهم، ودون أن يغيب عن أذهاننا اعتبار وظائف المدن، وليس من شك أن هناك بعض خصائص طبوغرافية ذات أثر فى وجه معين من وجوه وظيفة المدن؛ فهناك مواقع أسهل وأنفع وأوفى بغرض معين من أغراض نشأة المدن المختلفة.

وعندما نفكر فى وظائف المدن وأغراضها تتبادر إلى الذهن قيمة المدن الحربية، هذه المدن التى تمتاز بحصونها وقلاعها. ولكن إلى جانب تلك الحصون والقلاع يجب أن تزود هذه المدن بمصادر طبيعية للقوة، ومصادر القوة الحربية عديدة ومتنوعة مثل جبل سريع الانحدار أو تل ذى شرفات عديدة ناتئة أو صخرة تشرف على سهل، ذات قيمة حيوية لأمة تريد أن تعتصم فى مركز حربى، مثل قلعة أثينا، (Acropolis ،Acrocorinthus) أو جبل أوكسيوس أو هضبة جيرجوفيا أو جبل (Beuvray) أو سرتة (Cirta) الأفريقية، وإذا أضاف انحناءة نهر إلى ذلك عامل تحصين المدينة بخندق مائى صعب العبور، فإن الموقع يزداد حصانة.

وقد روعى هذا التحصين الحربى منذ الأزمنة الكلتية، وربما منذ أزمنة أبعد منها، ومن أمثلة ذلك مدينة بيسانسون (Besançon) الحربية، التى كانت تسمى قديما (Vesondio). والمدينة القائمة على جزيرة عاصم جيد، من السهل الدفاع عنها، مثل مدينة صور أو السيتى (Cité) أصل مدينة باريس وقلبها. وليس من الضرورى أن نعدد هذه الأمثلة فهى فوق الجدل، على أننا نلاحظ أنه بمضى الزمن يقل عدد المدن الدفاعية شيئا فشيئا؛ وليس معنى هذا أن حضارتنا لم تعد

تعرف المدن الدفاعية، ففى شرق فرنسا من لانجر وتول وفردان وبلفورت وهى لاتزال تلعب دورها العريق فى الدفاع عن فرنسا، ولكن مما هو جدير بالذكر أنه لم يكن هناك قسم جغرافى فيما يختص بهذه المدن كما سنبين فيما بعد.

فهذه المدن لم تكن النتيجة الطبيعية لصخرة أو انحناءة نهر أو مجرى ماء أو مستنقع. بل كانت أصلا من بناء الإنسان بإرادته.

وهناك أمر لاشك فيه، هو أن الموقع الحصين ليس شرطا لازما لإنشاء حصن يواجه حاجة المجتمع للدفاع عن كيانه. فإذا نشأت هذه الضرورة فإن الإنسان يحتال على تحقيقها بالاستفادة من أى مظهر تضاريسى، كنتوء فى الأرض أو صخرة طبيعية أو وجود تلال، ثم ينظم هذه المظاهر الطبيعية لتفى بحاجته، أما إذا لم توجد فهو يستطيع أن يتصرف بدونها.

مثل ذلك إنشاء حائط دفاعى سريع الانحدار، أو حفر خندق لكى يسد النقص فى طبيعة المظهر التضاريسى، بالإضافة إلى حصانته الطبيعية، أو يخلق هذه الحصانة صناعيا إذا لم توجدها الطبيعة.

وأحيانا لا يملك الإنسان اختيارًا. فقد ينشئ وقت السلم والطمأنينة مدنا للتجارة والتبادل، ولذلك فهو ينشئها فى الإقليم المكشوف المشمس، سهلة الوصول إليها، غنية فى مواردها الطبيعية، ولكن الظروف السياسية قد تتغير، وتظهر فى الأفق سحب الحرب والإنذار بالغزو[1] فلا بد من الدفاع عن المدن الكبرى التجارية التى أسست فى السهول، إذ ليس من اليسير التخلى عنها أو نقلها إلى مكان أكثر أمنا، فملتقى الطرق الطبيعية الكبرى لا يمكن نقلها، فعند غزو البرابرة، وقت ضعف روما، كان لابد من العمل على تحصين المدن التجارية التى قامت عند تلاقى الطرق الرومانية والتى لايمكن إزالتها. فلم يكن لسكان مدن فريولى وفينيتيا مفر من الفرار من التينوم وبادوا ورافينا كى يدفنوا أنفسهم بين المستنقعات الحصينة، والعودة إلى المرافئ الطبيعية قبل التاريخية، ولم يكن بناؤهم أكواما وسط المستنقعات والغاب التى لايتوفر فيها مواد البناء، من اختيارهم، بل كانوا عليه مكرهين.

---

(١) قارن على سبيل المثال Blanchet, le enceintes romaines de la Gaule, 1957 p.s.

فمدينة بواتييه (Poitiers) القائمة على ملتقى ثمانى طرق رومانية لا يمكن إزالتها. كما لا يمكن إزالة تور القائمة فى مركز شبكة تصل خيوطها إلى أورليانز، إلى مانز، ونانتس، وبواتييه، وبورج وإن كانت هناك بقعة حصينة أخرى صالحة للانتقال إليها قريبة منها، فإنها تنتقل إليها ويتغير اسمها وهذا ما لاحظه جوليان وما سنشير إليه فيما بعد. ولكن قليلا ما نجد مثل هذه البقعة قريبة من المدينة المهددة، وهنا لا مناص من بناء تحصينات صناعية. وهنا يتحدى النبوغ البشرى الطبيعة. فهناك أنشئت كثير من المدن الدفاعية المعروفة وسط أقاليم مسطحة، وهى حربية فى أصلها وفى تصميمها، ولم تعرف وسائل للدفاع غير الحوائط والخنادق على غراد مدينة فوبان (Vauban).

كما أنه توجد أيضا باستمرار مواقع عديدة يمكن أن تستخدم للأغراض الدفاعية، ولكن الإنسان أهملها أو على الأقل لم يستغل طبيعتها لبناء مدينة. وهنا يأتى عامل النمو أو التكبير، كما يسميه جوليان، وهذه العوامل أبعد ما تكون عن الطبيعة الجغرافية. فنمو المجتمعات المدينية وحياتها مشروطة على الأخص بعلاقاتها السياسية والدولية فى مختلف العصور، وهذا ينطبق أيضًا على المدن الحربية الضعيفة. فقد تتغير الحدود أو تتعدل بواسطة بعض المعاهدات ولكن مظاهر السطح لا تتغير، فتقل قيمة مدن الحدود التى تعدلت وتصبح أدنى من قرية بسيطة. ومن أمثلة تلك المدن المختصرة لاموت La Mothe، التى تقمصت زمنًا طويلا روح المقاومة اللورينية أو المدن التى لم تعد سوى متحف للعمارة الحربية مثل Semur en Auxois، أو الكاركسون، تلك المدن التى قضى عليها تغير الحدود أو ازدياد الأمن والطمأنينة فى الإقليم، وأيضًا تشاهد الآن بعض المدن التى لا ترجع أهميتها إلى قيمتها الحربية فحسب، والتى تكتسب أهميتها من نواح أخرى، بجانب كونها قلعة، أو قائمة على منحنى نهر، وهى تعانى أزمة كبيرة بسبب تغير الحدود فى الألزاس فى فرنسا، وألم تعان مدن الألزاس بعض الصعاب بسبب تغير الحدود بين فرنسا وألمانيا؟

- ٣ -

عوامل التكوين وعوامل النمو

خلق مدينة حربية أمر سهل فى الظاهر فقط. قد يظهر بسيطًا إذا ركزنا اهتمامنا إلى عنصرها التكوينى مثل التل التى بنيت فوقه أو انحناءة النهر التى شيدت عليه. ولكن مظهر البساطة هذا يزول عندما نمعن النظر فى عناصر نموها. وهذا الفرق ظاهر فى كل مكان. فكثير من المدن تدين بنموها إلى ينبوع، مثل مدينة نيمس Nîmes، التى لا يزال يوجد ينبوعها الشهير حتى الآن، والذى كان يقدسه أهلها إلى حد العبادة، محققين عبارة بلينى «الينابيع تصنع المدن وتخلق الآلهة» فمما لاشك فيه أن ينبوع نيماسوس Nimausus، حدد ميلاد مدينة نيمس، فهو سبب نشأتها، لولاه ما قامت تلك المدينة، وليس هذا بمثل فرد، فللماء فضل فى نشأة المدن حتى الآن، ألم يكن للمياه المعدنية أيضًا والينابيع الحارة فضل فى بلاد لاكسويل Luxeuil، إكس لاشابل وبوربون.. إلخ، وأليس لهذه المياه الفضل الآن فى ميلاد مدن فيشى ولوشون وداكس.. إلخ، ولكن ما إن تنشأ المدن، أى تبنى المبانى حول الينبوع حتى يكف الماء عن التأثير فى تاريخها. فتتدخل عوامل أخرى، عوامل ضرورية لتحويل هذا العدد القليل من البيوت التى قد تبقى قليلة ضئيلة مدى قرون، إلى ذلك البناء العنصرى النشيط وهو لمدينة.

من هذه العوامل المختلفة إيجاد مركز للتبادل، وهذا من أكبر عوامل نمو المدينة، وكثيرًا ما تكون القلعة سوقًا فى الوقت نفسه، وكثيرًا ما يقوم السوق تحت أبراج القلعة وبين الأسوار التى تحد المدينة، (فقد كان طول أسوار قلعة Bibracte ثلاثة أميال وكانت تشغل ٣٥٠ فدانًا، وكانت أسوار قلعة جرجوفيا تبلغ ميلين ونصف فى الطول، ومساحتها ٢٠٠ فدان) ويسمى مكان السوق فى اللاتينية فورم Forum وفى لغة الغال ماجوس، وهذان الاسمان يظهران فى كثير من أسماء المدن

والأماكن الفرنسية[1]. ولكن ليس هذا بقاعدة مضطردة أو ضرورة من الضروريات، فأحيانًا يكتفى بإقامة الأسواق العامة المؤقتة[2] التى تشبه المعارض فى وقتنا الحاضر، بدلا من إقامة سوق دائم، وهذه لايحتاج إقامتها إلى أماكن معينة؛ بل يكتفى بما تقدمه الهيئات المختلفة[3] من أنواع الحماية للبائعين والمشترين. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن أسواق التموين كانت قاصرة على النساء[4] دون الرجال فى الأزمنة القديمة، ولكن حينما ظهرت فى الأسواق مواد يحتاج فى جلبها إلى سفر طويل، يبدأ السوق فى التحكم فى تلك التجارة الواسعة المجال التى تحتاج إلى حماية حربية وتلك هى وظيفة الرجل.

على أى حال نستطيع أن نقول إن كثيرًا من المدن تدين فى نشأتها إلى التجارة وقد درس جوليان عددًا من هذه المدن فى بلاد الغال القديمة[5]، وقد لاحظ جوليان أن هذه الأسواق قامت على أطراف المدن، أو عند نقطة التقاء مجموعات مختلفة من المنتجين، مثل هذا مدينة نيجون بالقرب من بورمونت (Noviomagus) وبين Liugons و Leuques؛ وسوق Mosomagus سوق الميز والتى تسمى الآن موزون بالقرب من حدود ريمى وTreveri، وسوق Tornomagus، وهى تورنون (فى الأندر) على حدود أقاليم تورون و Biturges و Pictones . ولكن هذه الأماكن لم تلعب دورا مهمًا فى الحياة الاقتصادية، بل إنها لم تلعب دورا بالمعنى الصحيح وهذا دليل آخر - إن أعوزنا الدليل - على أن للإنسان باستمرار الإرادة فى أن يختار من المواقع المعينة ما يريده لكى ينشئ مدينة أو سوقا أو مركزا اقتصاديا حسب حاجته فى الأوقات المختلفة، كما أن Tongres فى العصر الرومانى، وQuentoirc، Tiel، Durslede فى العصور الكارلوفيجى كانت المراكز التجارية فى الأراضى الوطيئة، بينا لم يظهر سوى لييج ولوفين وماليز وأنفرس وبروكسل وبروغ وإيبريس وعنت فى أوائل العصور الوسطى[6].

---

(١) جوليان «١٧٢» جزء ٢ ص ٢٨٨.

(٢) هوفرلان «١٦٥» ص ٩.

(٣) نفس المرجع فصل ١٢.

(4) Lasch, Das Marktwesen auf den Primitiven Kulturstufen (Ztschft f. Sozialwissensch, 1906)

(٥) جوليان «١٧٢» جزء ٢ ص ٢٢٨٨.

(٦) بيرين «١٦١» ٢ - ٤، ١٥.

ويختلف اهتمام الناس بالأسواق المختلفة باختلاف مستوى المدينة التى يعيشون فيها وطبيعة إنتاج السلع المصنوعة ووسائل هذا الإنتاج وحالة الطرق ووسائل المواصلات وفوق ذلك الأحوال السياسية والدولية السائدة فى ذلك العصر. وهذه العوامل جميعا تقريبا تاريخية أكثر منها جغرافية وبواسطتها يؤثر المجتمع فى المكان. وهناك أمثلة عديدة لأسواق اكتسبت أهمية وفقدتها دون أن يعتريها تغير فى حد ذاتها، مثل ذلك اضمحلال سوق شامبانيا، واستبدال موانئ الأطلسى بموانئ البحر المتوسط فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وأخيرًا استبدال قادش بأشبيلية أو الهافر بروان، كل هذه أمثلة توضح تلك القضية. ومن العبث أن ترجع عهد الكشوف الكبرى إلى أسباب مجردة، فهذا يدخل فى نطاق التاريخ.

وهناك نوع آخر من المدن ترجع أهميتها إلى أن المواصلات أكثر من التجارة، نعنى تلك التى ترجع فى أهميتها إلى ما أطلق عليه جوليان «مظاهر الطريق» مثل المعابر والمخاضات والجسور أو مدخل منطقة غابات أو منطقة صعبة بصفة عامة، أسفل منحدر شاهق أو أول محطة فى السهل بعد عبور سلسلة جبال أو ملتقى عدة طرق ومفترق طرق، وربما أضيف إلى ذلك الموانئ إذ إن الميناء فوق كل شىء «مكان توقف» نهاية مرحلة على طريق مهم؛ إنه المكان الذى تلتقى فيه طرق، البر بطرق البحر، بل نستطيع أن نقول إنها محطة «إعادة تنظيم». هذه المظاهر جميعًا عوامل تكوينية فى تاريخ المدن؛ والمهم إنها جميعًا عناصر مهمة فى تاريخ نشأة المدن ونموها.. فازدهار المدن واضمحلالها يرجع أولا إلى الطرق؛ فقد تغيّر المدن مواقعها تبعا لتغير الطرق، فإلى الطرق تدين بكونها مراكز تجميع الحاصلات الزراعية والصناعية وتخزينها أو كونها مراكز توزيع لتلك السلع إلى أماكن بعيدة. إذن فلا يعادل تاريخ الطرق شىء آخر فى تقرير مصير المدن، سواء أكانت نشأتها راجعة إلى طريق أم إلى ينبوع أم مكان مقدس أو قلعة على تل.

وأكثر من ذلك فإن قوة الطريق التكوينية لم تنته حتى الآن، فنحن نستطيع أن نشير إلى جماعات يرجع تجمعها إلى وقوعها مباشرة على طريق مواصلات. مثل المدن الصغيرة القائمة عند مداخل أنفاق الألب ومخارجها، والمدن التى قامت عند تقاطع الخطوط الحديدية، حيث تتلاقى أو حيث تتقاطع، مثل لاروش

وسانت جرمان دى فوسيه وسكانها الذين يرتزقون من الفنادق أو المكونين من عمال السكك الحديدية. تلك أمثلة توضح هذا الرأى، ولكن يجب أن نتذكر أن هذه الحقائق جميعا لا تمت إلى الجغرافية بصلة، فمدن الأنفاق لا تشبه مدن الممرات التى تتعلق عليها مدرسة راتزل أهمية كبرى، كما لا تشبهها مدن السكك الحديدية التى قامت عند تقاطع الخطوط الحديدية أو تقابلها، فنشأة تلك المدن الأخيرة ذات صبغة خاصة، صبغة صناعية تختلف كل الاختلاف عن الظروف الجغرافية.

كذلك الأمر فيما يتعلق بالمدن الصناعية، ويقال لنا إن توزيع هذه المدن مرتبط بالموارد الطبيعية التى يمتاز بها الإقليم. ولكننا نستطيع أن نتشكك فى هذا الأمر. فالمناجم تجتذب مركزًا للتعدين، وهذا طبيعى، ولكن حرفة التعدين لا تمتاز بالثبات قط. فهى نتيجة مظهر اقتصادى أو سياسى معين. تعتمد على مستوى المدنية التى يتمتع بها أهل الإقليم أكثر مما تعتمد على الظروف الجغرافية بالمعنى الدقيق، فاستعمال البوكسيت أو الفلور سبات أمر حديث، والمعادن الأوليتية أصبحت ذات قيمة أضأل عند المعدنين، وكانت المعادن الفوسفورية عديمة القيمة حتى زمن حديث عندما بدأ الاهتمام بها يزداد شيئًا فشيئًا. كل هذه أسباب أحدثت تغيرات كبيرة فى بعض مناطق معينة وهذه ترجع إلى تقدم العلم والمعرفة الآلية، وإلى ظهور حاجيات جديدة: وتلك أسباب لا تمت إلى الجغرافيا بصلة، وليس أدعى للاهتمام أو أكثر تشويقًا من دراسة الأسباب المحلية لنشأة الصناعات ودراسة المجتمعات التى تعتمد عليها، ولكن كيف لنا أن نفسر قيام كليرمونت فران - مثلا - ونموها على صناعة المطاط؟ فالإقليم الذى يحيط بهذه المدينة سيئ المواصلات برًا وبحرًا، كما أن المدينة لا تملك أى مطلب من مطالب الصناعة، ونحن أمام مدينة من خلق الإنسان. أو بالأحرى جهود عدد قليل من الرجال، وهنا نجد أنفسنا أمام ظروف مفتعلة تمامًا[1] وأمام حالة كانت الظروف الطبيعية فيها أضعف بكثير من جهود الإنسان وحتى هذا الجهد لم يعتمد على إمكانيات جغرافية.

---

(1) Bataillon (1). Clermont-ferrand Ville industrielle (Action nationale 25 octobre 1920) .

وهل نحتاج الآن أن نتحدث عن العواصم السياسية. والمراكز الدينية الكبرى، أو عن مراكز العلم والمعرفة؟ ولاشك أن أهمية الطرق التى تشرف عليها العواصم تفسر جزئيا الدور الذى تقوم به العواصم الكبرى وتفسر نموها، والحقيقة التى لا مرية فيها، أن مركز باريس فريد فيما يتعلق بسهولة مواصلاتها ببقية أنحاء فرنسا، وأن أهمية برلين ترجع إلى موقعها عند تقابل الطرق المائية الكبرى فى ألمانيا؛ ولكن موقع العاصمة لا يفسر قط حجمها ولا ثباتها، ولا السبب الذى من أجله أصبحت عاصمة. فكم من مدينة فى أوربا فقدت صفة العاصمة فجأة لأسباب سياسية وتاريخية ولا علاقة لها ألبتة بموقعها؟ فقد دانت فرسايل بمولدها إلى نزوة ملكية، ولم تسبب الظروف الجغرافية سقوطها[1] والواقع أن الدولة تصنع العاصمة وأن ازدهار العاصمة من رقى الدولة واضمحلالها من اضمحلال الدولة، ولذلك كان أثر العوامل التاريخية والسياسية أعظم فى تطور العواصم من الظروف الطبيعية التى ساعدت على قيامها.

أما عن مراكز المعرفة والدين، فهل نحتاج إلى أن نذكر أن عدد طلاب الجامعات الألمانية يتراوح كثرة وقلة حسب قدوم أستاذ أو رحيل آخر؟ هل كان للظروف الطبيعية أى أثر فى نشأة القيروان وتلمسان أو لورد التى اجتذبت آلاف الحجاج؟ وهناك مدن سياحية، فهل هى أمثلة كبيرة على الختم الجغرافى؟ فيكفى أن يؤم المدينة رحالة مشهور أو طبيب مهم أو رياضى معروف حتى تغدو قبلة الأنظار، تلك المدن السياحية تنشأ وتتطور وتنمو على أسس غير صالحة أحيانا لنمو مدينة. وإننا لنرى كيف أن الأسواق العالمية وحالتها من الرخاء والشدة قد تؤثر على حياة هذه المدن، أو تودى بها وتتركها خرابا بلقعا.

---

(1) Foncin (M.) Versailles, étude de géograghie historique, XI, t.XXVIII. 1919, p.321 sq.

- ٤ -

الإنسان والاحتمالات المدينية

استغلال الاحتمالات هى المشكلة الجغرافية الوحيدة الصحيحة، ولكن هذه المشكلة تبلغ من التعقيد حدا يجعل من الحمق أن نحاول من الصيغ البسيطة أو بأحد القوانين الجغرافية المزعومة، ومن فضل الرسائل التى كتبت عن المدن والتى أشرنا إليها، أنها أثبتت هذا البيان، ومن أهم هذه الرسائل وأحراها بالانتباه، تلك التى حررها بلانشار عن مدنية أنسى Annecy، ونشرها فى ملخص أبحاث معهد الجغرافيا الألبية فى جرينوبل[١].

تتصل أنسى بموقعها بمقاطعات عديدة غير متسعة المساحة، وتقع عند نهاية ممر ضيل ملتو عسير، ولذلك لم تهيئها الظروف كى تحتل مركزا ممتازا، ولكن موقعها ليس بسيطا، فموقعها يتألف من اتحاد عدد معين من العناصر المختلفة.

فهناك حافة صخرية، «السمنوز ـ Le Semnoz»، تشرف على البحيرة والمنطقة التى تحيط بها، وهى صالحة للدفاع وهناك تل منخفض. تل أنسى القديمة، خصب التربة ويتجه نحو الجنوب وملائم لزراعة الفواكه، أما ساحل البحيرة فمعرض لخطر الفيضان، غير مأمون الجانب وغير صحى ولكنه يمد المدينة بالسمك، ويسمح بمواصلات مائية سهلة وله قيمة دفاعية أما السهل الذى تقوم عليه المدينة فهو جاف خصب، تربته خفيفة يسمح بسهولة الحركة وقيام الزراعة وتكاثر السكان وأخيرا فوجود نهر منتظم الجريان يقدم تسهيلات كبيرة للصناعة.

---

(1) Recual Traimaux de l, Institut de geographie Alpine de Grenoble. T. IV, 1916, Fasc, lv.

كل هذه العوامل لها ميزاتها ولها مضايقاتها، ولا يستطيع عامل واحد منها أن يؤمن تماما قيام مدينة، ولكن من الحقائق المعترف بها أن المدينة ظلت حيرى بين هذه العوامل المختلفة، تارة يدعوها عامل من هذه العوامل إلى القيام فى بقعة معينة، وتارة يجتذبها عامل آخر إلى القيام فى بقعة أخرى، تتحرك من البحيرة إلى السهل ومن السهل إلى التل وتقفز من التل إلى صخرة سمنوز وتهبط ثانية إلى ضفة نهر ثيون Thion، وتتحول من موقع يجتذبها فى وقت من الأوقات إلى موقع آخر يجتذبها فى وقت آخر حسب مقتضيات الظروف والأحوال التاريخية. ولكنها فى كل مرة من هذه المرات تقوم مدينة فقيرة بسيطة سيئة التكوين. ولابد من زيارة المدينة الحديثة لنرى كيف أنه كان ينبغى أن يستفاد من جميع هذه العناصر المختلفة، وأن تبنى المدينة على هذا الموقع المركب المتعدد المظاهر وأن تستفيد منها جميعا فى آن واحد. فساحل البحيرة مصدر جمال، وسهول الفنز تغطيها المبانى الملائمة، وتل أنسى القديمة تغطيه البيوت الريفية والفيلات الأنيقة ولا تزال حافة سيمونز مركز المدينة وأخيرا فنهر ثيون أصبح . أكثر من أى وقت مضى . روح المدينة الصناعية. وهكذا تم استغلال جميع عناصر الموقع الطبيعة، مما جعل أنسى مدينة كبيرة جميلة، تأسس ازدهارها على عناصر متنوعة تستطيع . كما يبدو . أن تواجه خطوب القدر.

تلك رسالة كبيرة الفائدة، وفى الوقت نفسه مثل جيد للدراسات التى كتبت عن المدن، وتلك ملاحظة ساقها كاميل جوليان تناسب المقام تماما[١]. فإن كانت المدن أو الأماكن قد غيرت أسماءها فى كثير من الأحيان، فإن ذلك كما يخبرنا راجع إلى تغير السكان أو تغير عاداتهم، فقد يحدث أن يتغلب اسم حى واحد على المدينة كلها، فلمنكوم مثلا لم تصبح شامبرى Chaurbéry، إذ إنها لاتزال موجودة، فلمنك Lemincum، على الربوة المرتفعة إلى يمين الطريق، بينما شامبرى تقع على يساره، وعندما ازدادت أهمية شامبرى طغت على بقية الأجزاء وأطلق اسمها على المدينة كلها «لا تقل إن اسم فليرى سير لوار Fleury - Sur - Loire، قد تحول إلى

---

(1) Jullian, Rev. des Etudes anciennes, t.xxll, 1920, p.23.

سان نيو Saint-Benoit، صحيح تغير اسم المجموعة كلها، ولكن لا يزال اسم فليرى يطلق على أحد أحياء المدينة الحديثة»[1]، وفى الواقع لاتوجد دراسة أمتع من دراسة نشأة الأحياء المختلفة التى تتكون منها المدن الفرنسية وقد قضى كاميل جوليان عدة سنوات يحضر فى هذا الموضوع فى الكوليج دى فرانس[2] 'وبعد أن اكتملت لديه عناصر دراسته التى استقاها من عدة بلدان فرنسية، توفر على تحليلها واستخلاص وظائف الأحياء المختلفة والدور الذى تلعبه فى حياة المدن، وأن ملاحظاته الأخيرة عن ائتلاف الأحياء المختلفة فى مدن تقدم لنا آراء ناضجة مثمرة جدا، وأنها تفتح للمؤرخين ميدان بحث جديدًا لاشك فيه فى تاريخ المدن.

نحن نقول «للمؤرخين» ولسنا نعنى بذلك إقصاء أى باحث آخر مستعد لأن يقدم معونة، وما نريد بذلك أن نثير الموضوعات المحلية بين مدرسة أو أخرى، تلك الموضوعات التى تعتبر عارا فى جبين العلماء، إن لم تكن فى جبين العلم نفسه، ولكننا أردنا أن نقول إن هذه الأبحاث لا تمت فى الواقع إلى الجغرافيا بأى صلة، ولئن قام بهذه الدراسة بعض الجغرافيين المجريين فإننا نميل إلى أن نجد فى بعض الجغرافيا الاجتماعية تاريخًا مجددًا فى مصادره، مجددا فى مناهجه. انقلابيا لحسن الحظ فى موضوعاته.

(١) المرجع نفسه.

(٢) انظر . Jullian, Rôle Monuments dans la formation topographique des villes (Rev.des cours - et conférences, 22 ann. Mars 1914. No 8).

- ٥ -

هل ضعُف أثر الظروف الطبيعية على الإنسان؟

إن مثلا أنسيا يجعلنا نسأل ذلك السؤال القديم: هل ضعف أثر الظروف الطبيعية الآن على الإنسان؟ فى رأينا هذا سؤال لا يمكن الإجابة عنه بالنفى أو بالإيجاب، ولاشك أن من السهل أن نبنى من بعض الحقائق القليلة قضيتين تعارض إحداهما الأخرى. إحداهما تستقى أمثلتها من انتصارات الحضارة الحديثة والأخرى تعتمد على الحضارات القديمة. ألم ينقذ التقدم الحديث الإنسان من مجابهة الأقاليم الزراعية الطبيعية فى الجهات التى يسكنها. وألم يجبر التربة على إنتاج الفواكه وغيرها من المحاصيل رغم أنف المناخ؟ وأليست المدنية الحديثة - كما رأينا - شديدة اللهفة على استغلال جميع عناصر البيئة الطبيعية؟ ألم تعد للمراعى الجبلية قيمتها، بعد أن احتال الإنسان على طلب الحبوب من أطراف الأرض وحوّل جهوده إلى العناية ببيئته المحلية وبصناعة الرعى؟ وهكذا تحولت سفوح الجبال إلى مروج خضراء، وعلى رأى أربوس Arbos فى كتابه عن الرعى «إن تقدم المدنية لم يزد على أنها استغلت الظروف الطبيعية استغلالا اقتصاديًا» هذه الحقائق التى يمكن مضاعفتها تؤيد القائلين بأن حضارتنا الحديثة تسير نحو التناسل[1]، وهم يدعمون نظريتهم كذلك بجهود المستعمرين الحديثة فى الأراضى الجديدة فهناك يتحسس الإنسان طريقه لأول مرة. فهو لا يقتبس دفعة واحدة، يخطئ ولكن لا تلبث إرادته أن تسود وهدفه أن يتحقق، ولماذا نعدد الأمثلة؟ فربما كان من الأفضل أن نفسر تفسيرا صحيحا ما يتوارد إلى أذهاننا من أمثلة.

---

(١) انظر أعلاه الباب الثانى، الفصل الثالث ٣.

هل يجب علينا أن نسلم بخضوع الإنسان للطبيعة؟ لقد قال ذلك حديثًا أحد الكتاب الذين بحثوا عن جغرافية مدينة مارسيليا[1]، وقد بين بوضوح كيف أن موقع المدينة كان خلوا من أى ميزة، فالأرض مقطعة تقطيعا. تشقها المسايل فى كثير من المواضع، ولم تكن هناك بقعة مسطحة صالحة لأبناء الإقليم إلا فى الجنوب بل هناك سلسلة من التلال تحيط بالأخدود الذى يكوّن الميناء: وفوق ذلك فهى خالية من الماء والمناخ غير ملائم والأمطار قليلة (٦٥٠ مليمترًا) سيئة التوزيع (على ٥٥ يومًا) فى الشتاء. تهب عليها المسترال قوية لافحة فى الصيف، باردة جدا فى الشتاء؛ يحيط بها مدرج من الصخور الجبرية الجرداء تنحدر مسرعة نحو البحر غربيا، مكونة عقبة كؤودًا فى سبيل المواصلات. والحق أن العامل الفرد الذى أقام الميناء هناك هو وجود ميناء مثالية، هو ميناء لاكيدون Lacydon.

ولعلنا لا نجد مثلا أفضل من هذا من أهمية العناصر المكونة للبلدان، التى يسمونها نويّات المدن كما تحدثنا عن نويات الدول.

وليس هذا هذا المثل بالفريد فى نوعه، فقد تحدث بلانشار عن جرينوبل التى شيدت فى مكانها الحالى بالرغم من المناخ ومن الرياح القارصة الشمالية، ومن خطر الفيضان فى النقطة الوحيدة التى يقابل فيها نهر إيزير نهر الدراك Drac؛ وألم تواجه تولوز فياضانات الجارون الجارفة لكى تحافظ على مكانها على النهر حيث تتقاطع عدة طرق كبرى؟ ولكن أى نتيجة يريد المؤلف أن يصل إليها من هذه الأمثلة؟ إن الإنسان ليس عبدا للطبيعة؟ إنه يتحداها، ويسخّرها ويواجه بشجاعة كل صروفها، ما دامت له مصلحة بشرية فى ذلك. هل هذا ما يجب أن يصل إليه المؤلف؟ كلا بل إنه ينتهى من كل هذا بقوله: «يجب على الإنسان، إذن، أن يخضع لقوانين الطبيعة»[2] وهذا لأنه وجد أن أهل مرسيليا قد توسعوا فى أسهل الجهات صلاحية للبنيان، وأنه راعى اختيار كل الصفات التى يمكن أن يعثر عليها، وبنى على هذه الحقيقة التى تدل إليها البديهة السليمة حكمه» هذا مثل رائع لأثر الطبيعة على الإنسان «ومن الحق أيضا أن الإنسان بدأ باحتلال

---

(١) G. Rambert, I.agglomération marseillaise, étude de gèographie urbaine (la vie urbaine, 1919, no.3)

(٢) ص ٢١٤ من المرجع السابق.

المنخفضات، حتى إذا ما ضاقت عليه زحف على سفوح التلال الوعرة وهنا نجد النتيجة» مثل آخر رائع لاستجابة الإنسان لقوى الطبيعة[1].

أليس لنا أن نأسى بعد ذلك الأسر الذى يقع فيه الباحثون المجدون؛ وهم فى ربقة فلسفة صبيانية، تدور حول أثر الطبيعة على الإنسان ولولا تلك الملاحظات المتلاحقة لكان عمل هؤلاء الباحثين رائعا، مفيدا، دقيقا، يستحق كل ثناء.

هناك وسيلة واحدة للخروج من هذا الجدل البيزنطى: هل هى الطبيعة التى...؟ أو الانسان الذى...؟ الحق أن السؤال الذى يجب أن نسأله، ليس كما يأتى: هل ضعفت قبضة الظروف الطبيعية على الإنسان؟ «كما وصفه العرافون والمنجمون وأتباع الطبيعة البدائية للمؤرخين، أو الجغرافيين، بل إن المشكلة حقًا فى السؤال الآتى: هل قويت قبضة الإنسان على الطبيعة؟ ولا ريب فى الإجابة عن هذا السؤال.

ليس طلبة سان سير[2] وحدهم هم الذين «يدرسون ليقهروا» إن الإنسان المتحضر بفضل فتوحات العلم وبفضل التقدم العلمى الآلى، لم يعد قانعًا كأسلافه باستعمال النار لمواجهة الطبيعة، إنه لا يحرق الغابات والمراعى ويغير وجه الكرة ويشوهها، كمن يحرق منزله لكى يسلق بيضة، كلا إنه يشتغل سطح هذا الكوكب بمهارة تدهشنا إذا توقفنا وركزنا فيها فكرنا لحظة واحدة ليس هناك «طبيعة» جاهزة يأخذها قضية مسلمة وينحنى لها باحترام، وأنه - دون أدنى اعتبار للطبيعة البكر - يدخل نباتًا هنا، ويلغى نباتًا من هناك، ويقلب بعض الاقتصاديات رأسا على عقب، لأنه يشير بالصناعة الرأسمالية الحديثة، التى تتطلب باستمرار مواد أولية من نبات وحيوان لكى تطحنه وتسحقه وتحوله.

وهناك مثل الثورات الاقتصادية التى تتابعت فى سيلان خلال الثلاثين عاما الماضية. لقد كانت سيلان منذ أجيال طويلة موطن التوابل والبهارات ولكن عندما لم تعد التوابل تجارة رابحة أصبحت سيلان جزر البن. ولكن الإنسان أدخل محصول البن على نطاق واسع فى البرازيل. ولذلك تخلت سيلان عن البن

---

(١) السابق، ص٢١٥.

(٢) الكلية الحربية فى فرنسا. «المعرب»

وتحولت نحو الشاى، ولكن البرازيل أقلمت الهفيا Hevea[1]، وكانت لتلك التجربة نتائج باهرة. لهذا استبدلت سيلان المطاط بالشاى وأصبحت سيلان جزيرة المطاط لدرجة أن أمريكا الجنوبية تخلت عن هذا المحصول ـ وهى موطنه ـ كما تخلت عن الكينين لجزيرة جاوة. وما تلك بالنهاية. قديما أصبحت سيلان جزيرة القطن وغدا. وماذا بعد غد.

ولربما قيل إن كل شيء يعتمد على المناخ والتربة. تتعذر الزراعة بدونهما. وربما أجبنا على ذلك بأن الرى والسماد الطبيعى والصناعى والطرق العلمية فى الزراعة وفى النقل. كل هذه تذلل الصعاب الطبيعية. ولاشك أن هناك حدوداً لكل شيء ولا يدور بخلد أحد أن الأناناس يمكن زراعته فى جرينلندة. ولكن فى كل نطاق مناخى نباتى متسع لمئات من الزراعات التى يمكن أن تنتج تحت ظروف المناخ والتربة المحليتين، والتى يمكن أن تنتج ليس لذلك التجريد البغيض «الانسان» بل للصناعة الحديثة التى تلتهم المواد الخام فى كميات كبيرة وعلى نطاق واسع، لأسباب بعيدة كل البعد عن «العوامل الطبيعية» ولكن لأسباب مالية واقتصادية، وأى جنون يمكن أن يدفعنا إلى القول بأن الظروف «الطبيعة» هى التى تحكمت فى توزيع النباتات الزراعية فى الأقطار الجديدة التى فتحها الإنسان المتمدين واستعمرها حديثا؟ ففى بلد مثل نياسالاند كانت تنمو أيام راتزال عندما كتب «الجغرافيا السياسية» نباتات زيتية فى السهول المنخفضة بالقرب من البحر، بينما كان البن والشاى والنيلة تزرع على الهضبة بعيداً عن البحر، فهل كان السبب فى ذلك راجعًا إلى التربة أو المؤثرات المناخية؟ كلا، بل أجور النقل، فالبن والشاى والنيلة محاصيل ثمينة، غير ذات حجم كبير، بينما النباتات الزيتيه ثقيلة، قليلة القيمة ولا يمكن أن تكون مربحة إلا إذا كانت قريبة من الموانئ للتصدير، فالربح وحساب تكاليف الإنتاج هى التى تحكم الآن وليس «الطبيعة».

ولكن هل دراسة تلك الثورات الاقتصادية والخلقية داخلة فى نطاق الجغرافيا؟ لا ريب ولكن بتحفظ.

---

(١) المطاط الطبيعى.

فالإنسان، وعمله، وآثاره المادية التى تتركها جهوده على سطح الأرض كل هذه تكون، كما كانت تكون فى الماضى، الآثار الجغرافية على سطح الكوكب. فكما قال فيدال دى لابلاش، ومن زمن طويل «إن الإنسـان بمؤسسـاته التى يخلقها على سطح الأرض، بآثاره على الأنهار، بل وعلى شكل تضاريس الأرض. وعلى الحيوان والنبات، كل هذا ينتمى إلى الجغرافيا؟ والفرق بيننا وبينه أنه يبحث عن السبب، وليس عن الأثر.

الإنسان مخلوق وهب القدرة على السلوك الذاتى، مزود بأسلحة لمجابهة قوى الطبيعة غير هيّاب ولا وجل، واثق من أنه سيصل إلى هدفه فى النهاية. ألم يفتح برزخ بنما بعد أن أتم فتح قناة السويس، أليس بمستطيع إذا شاء أن يحفر أنفاقا تحت بحر المانش، ألم يحرر نفسه من قيود الأرض ويطير فى أجواز الفضاء وأليس بقادر على تحويل «عراق» نيجيريا إلى حقول واسعة من القطن عندما يجد أن الصناعة تحتاج إلى ذلك؟ إن مصلحته فقط هى التى تملى عليه ما يريد.

وهكذا الإنسان، متمدين اليوم، قد أخرجته الجغرافيا كمخلوق سلبى، ولكنه رغم هذا قد احتل مكان الصدارة كعامل سائد من جديد.

خاتمة
واجبنا الحالى - المناهج الحيوية والمناهج الجغرافية

إننا لا نرى أن كتابا كهذا يحتاج لخاتمة. فما هو بكتاب مقرر، وليس هو بدراسة كاملة، ولكنه مجرد مناقشة نقدية، حاولت أن تصل إلى خاتمة عند كل مرحلة انتهت إليها، وأى تلخيص لها يصبح تكرارًا لا جدوى منه.

ولكن قبل أن نترك القارئ، يصح لنا أن نعود إلى نقطة واحدة تمكننا من الرد على أى اعتراض. فكل نقد يعرض صاحبه إلى شك مزدوج إنه يخلق مادة للنقد كى يتيح لنفسه فرصة هدمها، وأنه لا يقدم لنا إلا عملا هادما سلبيا، ونحن نعتقد أننا لا نستحق أى الاتهامين.

قد يعترض علينا أن كل هذا الحديث عن الحتم الجغرافى إنما هو وهم لا وجود له فى الحقيقة، فليس هناك من يعتقد فيه أو يتحدث عنه الآن وهنا لن يعدم المعترضون عددًا كبيرًا من الكتب ومن القصص الصحيحة التى لا تقبل الشك، وكلها يهاجم الحتم الأعمى، هذا صحيح، ولكن فلنتذكر دائما تلك الفقرة التى اقتبسناها من راتزال فى مطلع هذا الكتاب، وليس راتزال بالوافد أو الذى لا يؤبه له فى ميدان الجغرافيا. ولعله من الخير أن نكرر تلك الجملة المأثورة عنه عن سطح الأرض «المتشابهة دائما، الموجودة فى نفس الموضع من الفضاء، وهى مكان ثابت يحمل آمال البشر المتغيرة باستمرار» هذه الأرض التى «تتحكم فى مصائر البشر تحكمًا أعمى لا رحمة فيه» كما يستطرد راتزال، «تلك الأرض التى تذكر الناس بقوتها إذا عنّ لهم أن يتجاهلوها؛ وتحذرهم باستمرار بأن حياتهم كمجموع تنظمه دولة إنما تضرب بجذورها فى تربة الأرض»، وأخيرًا فهو يردد

الحكم الأخير الذى يجب أن نتذكره باستمرار: «يجب أن يعيش الناس على الأرض وأن يرضخوا لحكم الأقدار، يجب أن يموتوا عليها مسلمين بما قُدر لهم».

ولحسن الحظ، فإن كتاب مؤسس الجغرافيا البشرية ملىء بالحقائق والأمثلة التى تكشف اللثام عن خطأ هذا التأكيد التقريرى إلا أن راتزل وحدة ليس معين الجغرافيا الأوحد، فهناك فيدال دى لا بلاش الذى لم يقبل النظرية على علاَّتها، بل فكر وقدر وعبر عن آرائه الناقدة بحماسة من عنده هو أيضا، وكرر نقده لهذه الغلواء (بأوسع معانى الكلمة) التى ركن إليها راتزل، وأكثر من هذا فإنه لايزال فى العالم الآن أتباع لراتزل أو للراتزلية الجديدة، الذين فى محاولتهم لتصحيح آراء راتزل، اضطروا إلى غلواء أبعد من غلواء أستاذهم ليس هذا فحسب، بل هناك الجغرافيون الذين عارضوا راتزل أشد المعارضة. ولكنهم ناقضوا أنفسهم وتورطوا فيما وقعوا فيه من متناقضات، فإن المدرسة القديمة لا تزال تستحوذ عليهم وعلى تفكيرهم، وعلى ما يزعمون من مؤثرات.

لا يستطيع أحد أن يزعم أننا نناقض أنفسنا عندما ندافع عن الجغرافيا البشرية ضد نقد علم المورفولوجيا الاجتماعية. أو بعبارة أدق دفاعنا عن حقها فى الوجود الحر المستقل. بالرغم من أننا كنا ناقدين لأنفسنا فى صفحات الكتاب أكمله. فليس نقدنا موجها ضد الجغرافيا البشرية فى ذاتها ولكن ضد أى تصور غير صحيح لها أو لطبيعتها. كما أنه يجب أن يلاحظ أننا اعتدنا فى بحثنا كل الاعتماد تقريبا على كتابات عقل لم يخترع مطلقًا الجغرافيا البشرية (ومن الناس «اخترعها»؟)، كتابات عقل كبير لم يسمح لنفسه أن يضلل أو يتأثر بالتعميمات الكبيرة الجريئة، أو بالآراء المفلسة التى تخفى خطأها وراء احتمالات فلسفية، أو بنظريات راتزل المهلهلة - التى لا تؤيدها الحقائق مطلقا - ولكنه بنى لنفسه بصبر وتؤدة، وتواضع وبدون أى ضجة، خطوة خطوة، عن طريق التفكير المستقل، طريقة مثمرة للبحث فى مشاكل «الجغرافيا البشرية».

ولا حاجة لنا مطلقا إلى أن نحذر تلاميذه وأتباعه أو معتنقى آرائه أو هؤلاء الذين يتابعون طريقته المفيدة المتواضعة، من المغالاة والتطرف أو التبسيط الضعيف الخطر. ونحن لم يخطر لنا ببال أن نفكر فيمن يسمون أنفسهم جغرافيين الذين وجدوا من أنفسهم الجرأة على أن يظهروا للأبناء طموحا فارغا

لا ينهض على أساس متين، ولا يصلحون إلا للتأثير على الجهلة أو الهواة العوام، فهؤلاء لا يعرفون تماما ما تقدم أيديهم. إنما نحن نحذر الطلبة مخلصين؛ هؤلاء الذين يهتمون بكتابات من سبقهم الذين أورثوهم المشاكل التى لم يستطيعوا حلها، وهى موجهة إلى الذين يستخدمون كلمة «مؤثرات» والذين يلتقطون بعض آراء الجغرافيين دون تمحيص أو اختبار، ويحاولون أن يستنتجوا منها كثيرا من المبادئ أو النظريات عند دراستهم للتاريخ أو الأدب أو الفن على طريقة تين Taine القديمة.

إن المشكلة لا تزال غير واضحة، وطريقة معالجتها ليست كاملة بعد. ولكن عذرنا أنه ليس بين أيدينا بعد العدد الكامل الشامل من الدراسات وقليل من الدراسات المقارنة الممكنة، وهذا ما يجب أن نقوله وأن نكرره حتى لا نسمح لأنفسنا بأن تغرنا المظاهر البراقة الكاذبة التى قد تخدع البسطاء.

إننا لن نتعب من أن نكرر أن غرض الجغرافيا ليس البحث عن «المؤثرات كتأثير الطبيعة على الإنسان، أو الأرض على التاريخ. فهذه أوهام. فمثل هذه التحديدات لا شأن لها فى أى دراسة عميقة. بل وكلمة «مؤثرات» لا وجود لها فى القاموس العلمى، بل هى تعبير وهمى. إذن فلنترك المؤثرات جانبا نهائيا، نتركها للمنجمين والمهرجين كما قال الأستاذ بودان Bodin، بالرغم من أنه انزلق فيها بنفسه.

الحق أننا إما أن ندور حول أنفسنا مكررين بعض الكلمات التى نرفعها إلى صفة القوانين بمجرد كونها كلمات مجردة تزعم أن الإنسان خاضع للطبيعة، أو الطبيعة خاضعة للإنسان، وإما أن نعالج المشكلة وجها لوجه، إنها مشكلة «علاقات» وليست «مؤثرات». كلمة «علاقات» كلمة معقولة ولا يحيطها الغموض.

ما العلاقات بين المجتمعات البشرية الحالية وبين بيئاتها الجغرافية؟ هذه هى المشكلة الأساسية والمشكلة الوحيدة التى تحاول حلها الجغرافيا البشرية.

ولسنا بهازلين إذا قلنا «المشكلة الوحيدة» إذ إننا نرى أنه يجب علينا أن نميز بين مشكلتين، فالجغرافيا البشرية من ناحية عليها أن ترينا إلى أى حد وبأى طريقة يعتبر الإنسان عاملا جغرافيا، مثله مثل الماء أو الرياح أو النار التى تعمل

فى سطح الأرض بالتغيير والتعديل، ومن ناحية أخرى على الجغرافيا البشرية أن تبرهن أن العوامل الجغرافية كالسطح والمناخ.. إلخ، تلعب دورا حاسما كبير الأهمية فى حياة المجتمعات البشرية. والفرق بين الأمرين فرق أكاديمى دقيق لا يؤدى فى الواقع إلى شىء.

فالإنسان لا يقف بعيدا عن بيئته وهو يعمل فيها، فهو لا يهرب من قبضتها فى نفس الوقت الذى يحاول أن يجرب حظه فيها.

فالطبيعة التى تعمل فى الإنسان والتى تعدل من شكل المجتمعات البشرية ليست طبيعة عذراء، مستقلة عن كل أثر إنسانى، فهى طبيعة قد تناولتها يد الإنسان بالتعديل والتشكيل، فهناك باستمرار تفاعل وتجاوب بين الإنسان والبيئة ولذلك فإنه يستحسن أن نقول «إن هناك علاقات متبادلة بين المجتمع والبيئة» وهذا التعبير صحيح فيما يتعلق بالحالتين السابقتين المتمايزتين. ففى هذه العلاقات الإنسان يأخذ ويعطى كما أن البيئة تأخذ وتعطى.

ويجب على من يتصدى لبحث العلاقات المتبادلة بين المجتمع والبيئة أن يكون على علم تام بحقيقة الطبيعة ولصفات المجتمعات البشرية الحقيقية.

سيقولون لنا «معرفة تامة بالبيئة الجغرافية!» هذا أمر لا شك فيه لا بأس عليهم فيما يقولون. ولكنا لا نطلب هذا النوع من الدقة الهادئة الوادعة، التى تتأتى من قراءة الكتب والأبحاث، مهما كانت جيدة، بل نريد المعرفة العلمية ـ بكل ما تتضمنه من انكباب على العمل وشك وحماسة، يجب أن نتذكر أن الجغرافيا الطبيعية لم تولد إلا بالأمس القريب؛ وأنها علم حديث جديد، وأنها لاتزال تقتصر على عدد كبير من العلوم الأخرى الحديثة بدورها، والتى تظهر فيها كل يوم اكتشافات جديدة، أما عن المستقبل فنحن لابد لنا أن نعتمد على الدراسة القائمة على ملاحظة البيئة ملاحظة شخصية مباشرة، ملاحظة جميع عواملها، والانتباه إلى صفاتها الرئيسية والثانوية، ولا نعتمد على المعلومات السطحية المستعارة من الدراسات الأولى، هذه هى الخطوة الحاسمة اللازمة لتقدم الجغرافيا البشرية.

إن ميدان العمل فسيح، فى البحث والتفكير، فهناك أولا الجغرافيا الطبيعية، إذ عليها يعتمد كل شىء، كيف نستطيع أن نجادل عن العلاقات القائمة بين هذا المناخ أو ذاك أو عن تشكيل السطح أو عن طراز معين من المجتمع البشرى أو النشاط البشرى فى مجتمع ما، سواء فى منطقة معينة أو فى العالم كله كمجموع، إذا لم نتمكن من عزل إحدى حقائق المناخ أو السطح وعرفناها ودرسناها من جميع نواحيها، ليست دراسة علماء مناخ أو جيولوجيين بل دراسة جغرافيين، طبقا لطرق خاصة بالجغرافيا ولأهداف جغرافية خاصة بهذا العلم؟ ولكن هذا النوع من البحث فى العالم الطبيعى بواسطة الجغرافيين لا يزال فى طفولته. فما قيمة ثلاثين عاما من العمل النافع إذا تأملنا فى ضخامة المجهود الذى يجب أن نبذله؟ وأكثر من ذلك فهناك مناطق بأكملها ومساحات شاسعة من الأرض لم تر الآلات العلمية. فهناك أقطار خالية من المعالم، أو المحطات المترولوجية، أو وسائل الحصول عليها بسهولة، أو لا خرائط لها أو لا تزال فى دور الاستكشاف، وتلك هى الأقطار التى يسهل فيها، طبقا لنظرية تحتاج لشرح دائم وتفسير مستمر، أن نبين البيئة الطبيعية والمجتمع البشرى بشكل سهل ومفيد فى نفس الوقت.

التقدم العلمى فى هذا الاتجاه لا يأتى عن طريق الإلهام أو ومضات العبقرية ولكنه نتيجة بحث طويل شاق مشترك، وهو أحد جوانب العبقرية، البشرية التى لا تقل عن الجانب الالهامى أهمية أو نفعا أن البرنامج الوحيد النافع هو أن نعمل ونستمر فى العمل بصبر وننتظر ثمار هذا العمل.

أما عن فهم طبيعة مظاهر المجتمع البشرى بأوجهه المختلفة وفهم خواصه، فإننا نحتاج أيضا إلى أن نعرف ما نريد أن نعمل.

نحن لا نطلب من هؤلاء الذين يبحثون العلاقات بين البيئة الجغرافية، والمجتمعات البشرية أن يمتازوا بثقافة انسكلوبيدية، أو أن يحشوا رءوسهم بمعلومات فجة غير مهضومة اقتطعوها من الأتنولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والأخلاق، بل والفلسفة بحيث تتركهم غير قادرين على العمل المثمر الأصيل.

على العكس فإذا نحن طلبنا منهم الا يعرفوا عن الإنسان أى شىء لا يهم الجغرافيين. هؤلاء المتخصصين فى تحليل المظهر العام للأرض Landscape،

الذين لا يهتمون بدراسة المجتمع البشرى كما هو، من ناحية المظهر الخارجى، فإن طلبنا هذا سيكون ضربًا من المحال. إذ معنى ذلك ليس دراسة جميع الخصائص من النواحى التى أشرنا إليها من قبل فحسب، بل دراسة كل التفسيرات المترولوجية والجغرافية الممكنة لكل صورة من صور الحقائق البشرية من حيث كنهها متعلقة بسطح الأرض ويمكن تمثيلها تمثيلا تصويريًا (بالخرائط والرسوم مثلا - المعرب).

لسنا نحتاج لدائرة معارف إذن، بل إلى ذكاء.

الآراء تتسلل باستمرار وتتدخل بين الإنسان وبيئته الاجتماعية. فالحقائق البشرية لا تتصف قط بالبساطة، ومن ناحية أخرى لا تعمل الحقائق الطبيعية بشكل آلى أعمى قدرى على حياة الإنسان، يجب أن نقول ذلك ونكرره باستمرار حتى لا يبوء بعض الناس إلى نوع من «الطبيعة» من حيث لا يشعرون، عندما يتحدثون عن الإنسان أو المجتمعات البشرية وعن نشاطها على سطح الأرض. ونستطيع أن نقول إن كثيرًا من الجغرافيين يفضلون أقرب المجتمعات البشرية إلى الفطرة، حيث يظهر بوضوح أثر العوامل الجغرافية، كما لو لم تكن مجتمعات الإنسان المتمدين الراقى هى أقدر المجتمعات على وضع مشاكل الجغرافيا البشرية.

ليس علماء الاجتماع وحدهم هم الذين يضحون - إذا كانو يضحون - فى سبيل فكرة الإنسان البدائى أو الفطرى.

إذن فالدعائم الأساسية التى تقوم عليها أى دراسة جادة أو نافعة للجغرافيا البشرية هى: معرفة البيئة الطبيعية معرفة جيدة أصيلة وفهم عام لظروف التطور البشرى. ولا تختلف مشكلة الجغرافيا التاريخية فى أى حال عن المشكلة العامة للجغرافيا البشرية، ونعنى هنا الجغرافيا التاريخية بمعناها الصحيح التى لا تهتم بمجرد الأسماء أو الأقسام الإدارية التى قد يتعب بعض العلماء أمثال لونجنون Longnon، فى إعدادها، ونحن لا نطعن فى أهمية مثل هذا العمل كمجهود علمى فى حد ذاته ولكنا لا نعده بحال من الجغرافيا التاريخية.

إن الجغرافية التاريخية تعنى بمشاكل الجغرافيا الاجتماعية الحالية ولكن فى الماضى، تعنى بعلاقات المجتمعات البشرية فى الأزمنة الغابرة، فى عصور سابقة

من التاريخ فى أقطار مختلفة من العالم، علاقة تلك المجتمعات بالبيئات الجغرافية فى تلك الأزمنة والعصور، ومحاولة إعادة تصور تلك العلاقة بقدر ما تسمح به معلوماتنا، وهى تتطلب من الباحثين عنها ما تتطلبه الجغرافيا البشرية وأوجزناه فى الفقرة السابقة، وإلى جانب ذلك تتطلب معرفة نظرية وعملية بطرق البحث الجغرافى، إذ إنهم سيرجعون إلى النصوص والوثائق لإعادة تصور الحضارات البائدة وعلاقاتها بالبيئة الجغرافية، التى تغيرت الآن فى مظاهرها الطبوغرافية والمناخية عما كانت فى تلك العصور.

لا يهم بعد ذلك أن نسمى هؤلاء الباحثين جغرافيين أو مؤرخين أو اجتماعيين أو مورتولوجيين اجتماعيين. ولكن المهم أنهم يجب أن يبدأوا من الظروف الموجودة حاليًا وأن يوطدوا أقدامهم كجغرافيين بشريين: وسيكون غباؤهم متينًا مادام معتمدًا على أساس مكين من الجغرافيا الطبيعية، هذا الأساس الذى لا غنى عنه مطلقًا للجغرافيا البشرية. فكلما ازداد قربًا من عناصر البيئة الجغرافيا، كلما كانت نتائجنا فى الجغرافية البشرية أكثر دقة وأكثر قيمة، وكلما كان بحثنا فى الجغرافيا، ذلك الفرع الذى يمتاز بسعة الأفق والشمول، أكثر قيمة.

ولنعد ما قلناه من قبل: على الباحثين فى هذا المضمار أن يتعلموا كيف يبحثون وكيف ينتظرون ومهما كانت دقتهم فى البحث، فعليهم الا يهملوا الفروض، مهما كانت فجة، ما داموا سيعالجونها كفروض خاضعة للاختبار العلمى، فبركنر Bructner، لم يتعد حدوده قط مادام يبحث فيما إذا كانت الدورة المناخية مكونة من ثلاثين عاما أو أكثر أو أقل، وما دام يبحث فيما إذا كانت هذه الدورة ذات أثر أو غير ذات أثر فى حركات السكان فى أوربا وأمريكا الشمالية بالرغم من أن العامل المتغير هنا هو اعتماد المحاصيل الزراعية على أمطار الصيف والحرارة، ولكن - من الناحية الأخرى - ليس لنا قط أن نكبر من أهمية الغرض منذ البداءة، وأن نعلن فى حماسة أن الجنس البشرى يتحرك مع ارتفاع الترمومتر وانخفاضه أو ارتفاع مقياس الخطر وانخفاضه. كما أنه ليس لنا أن نرفض أى فرض مدفوعين بالتعصب الأعمى فحسب. بل علينا أن نتحلى بسعة الأفق، والتسامح الفكرى، وأن نكون على استعداد دائمًا لتقبل الآراء وتمحيصها ومقارنتها حتى يمكن تعذية علم حديث، أما تلك التعميمات الطموح، وتلك الآراء

الصبيانية، التى تتسمى «بفلسفات الجغرافيا» والتى تعتبر أسوأ ما فى «فلسفات التاريخ» القديمة فيجب أن نطرحها جانبًا، بكل ما يحيط به من لألاء فارغ وحتمية آلية ونظم عالية تحاول أن تربط بين الآراء المختلفة ربطًا مفتعلا، لا يستهوى إلا صغار الأحلام دون أن تحقق فرضًا أو تشرح أمرًا.

ونحن عندما نجاهد فى سبيل تغيير جوهرى فى طريقة البحث؛ وعندما نطلب إنهاء عصر الفلسفة السوفسطائية فى الجغرافيا إلى غير رجعة، نتساءل هل نحن نساير العلوم الأخرى التى نحاول أن نستفيد منها فى علمنا هذا الحديث أو نحن نتعارض معها؟

لعل فى تلخيص تطور علم الأحياء فى السنوات القليلة الأخيرة ما يطمئنا فى اتخاذ هذه الخطة التى فحصناها سابقا.

لقد كانت نظرية الملاءمة مع البينة هى السائدة دون منازع فى علم الأحياء حتى عهد قريب. وكانت تلك النظرية تحاول تفسير الصفات التى تبدو أنها ملائمة للكائن الحى لكى يؤدى وظيفته أو تجعله قادرا على أداء وظيفته، إذا التجأ إليها. وطبقا لهذه النظرية فإن ظروف الكائن الحى الحالية هى نتيجة حتمية آلية لا نعرفها لفعل العوامل الخارجية التى يتعرض لها. هذا ما كان يعتقده كل من دارون ولا مارك، أحدهما ينادى بأن الاختيار الطبيعى هو نتيجة الصراع فى سبيل البقاء. والآخر يرى أنها الحاجة، ولكن النتيجة فى الحالتين واحدة، ومن هنا فقط اختلفت نظريات التطور كما يدعى كونيو Cuénot، غير أن هناك فكرة واحدة تسرى فى كيانها، هى فكرة الآلية الحتمية، تلك الفكرة التى انتشرت بسرعة، وكان رائدها بشكل لم يعهد من قبل فى تاريخ العلم، لسبب واحد هو ضيقها وسهولتها. لقد افترض العلماء أن الكائن الحى سلبى ليست له القدرة على السلوك التلقائى الذى يمكنه من البدء من جديد فى بيئة غير متغيرة، تلك المقدرة التى تميز الحياة فى حقيقة الأمر، ومن هذا الفرض سار العلم فى غايته. ولكن بعد عدد كبير من الاكتشافات لم يجد العلماء مندوحة من الاعترافات فى علم الأحياء بنظرية برجسون التى سماها الدافع التلقائى Pre-adaptation والقوة الخالقة فى الحياة، وقد صور كوينو الاتجاه الجديد فى علم الأحياء بنظرية الاستعداد للتلاؤم الموجود لدى الكائن الحى، وبهذه النظرية عادت

الحيوية vitalism، إلى علم الأحياء وكانت ضربة فى الصميم أعقبتها نظرية الصدفة التى كانت القضاء النهائى على النظرية الآلية العمياء فى علم الأحياء. وقد أفرد هنرى بر Henry Beer, لنظرية المصادفة حيزا كبيرا فى كتابه عن التكامل التاريخى Synthése en Hist.

علينا أن نختار بين أمرين: إما ان الكائن الحى كائن سلبى يخضع لقوى البيئة الطبيعية، وهنا نستطيع أن نحسب انفعالاته بدقة ومن ثم نستطيع أن نتنبأ بسلوكه إذا حسبنا قوة مقاومته للقوى الخارجية المعروف تدرجها والتى تضغط عليه، وإما أن الكائن الحى مجهز بنشاط ذاتى وقادر على خلق أثار جديدة وإبداعها، وفى هذه الحال لابد من وضع حد للحتمية، بمعنى الكلمة، ولابد من استبدالها بالاحتمالات التقريبية، إذن فنحن من ناحية سنفقد بساطة التفسير الآلى القديم وتأكيده، وسنعتنق من جهة أخرى. كما لاحظ لافيت Lafitle، من زمن بعيد قديم، وجهة نظر أغنى وأوسع أفقًا وأكثر تعقيدا، وأقرب فى مجموعها لظاهرة الحياة المعقدة، ولهذا لابد من أن نسير فى طريق وسط، دون أن تطغى إحدى الكفتين على الأخرى دون أن نلعن اليوم ما كنا نمجده بالأمس، أو ننفى تماما مكان وجود الملاءمة بالمعنى القديم أو التخصص التدريجى طبقا لمقتضيات البيئة وأسلوب الحياة. ولكننا نعترض فقط على قبول المبدأ دون تمحيص، أو أن نستنتج من مقدمات لم تناقش. بل لابد من إخضاع الحقائق لوسائل الاختبار وأن تمحص، فى حد ذاتها دون أى اعتبار لأى نظرية دون أن نسمح لأى فلسفة من فلسفات الطبيعة بالتدخل فى عملنا العلمى.

لقد بينا أن فكرة الاستعداد للتلاؤم كانت المظهر المهم للاتجاه الفكرى الجديد فى علم الحياة، ولنا أن نتساءل ألم تكن فكرة أساليب الحياة فى الجغرافيا، التى نادى بها فيدال دى بلاش ترجمة لهذا الاتجاه الفكرى الجديد سواء أكان يقصد صاحبها ذلك أم عن غير قصد؟

ليس علم الأحياء وحده هو الذى واجه مهمة ضرورة تغيير الطريقة، والانتقال التدريجى من المرحلة الميتافيزيقية ذات النظم العامة إلى مرحلة الملاحظة والفرض والاختبار، وما ينبغى لنا أن نخشى الاعتراف بفكرة المصادفة. وهى تدخل فى تطور حياتنا، ومن الممكن أن تخضع للبحث العلمى وما ينبغى أن تخيف

هذه الفكرة أى جغرافى أو مؤرخ وما ينبغى أن يخرج أى طالب فى العلوم الأخلاقية أن يشارك زميله فى العلوم الطبيعية الأخذ بها خشية أن يقال إنه حاد عن جادة الصواب، فأمامهم رجال العلم الأفذاذ يرجعون إليهم.

يقول عالم الأحياء الأمريكى «دافنبورت . Davnport» كما يروى كونيو Cuéno: وجد الكائن الحى أولا وبعد ذلك بحث عن البيئة التى تلائم تركيبه» ومعنى ذلك للجغرافى فى رأى فيدال دى لابلاش أن الإنسان وجد أولا، وأن عاداته وصفاته الخاصة، وأسلوب حياته ليست بالضرورة نتيجة لوجوده فى هذه أو تلك، فهذه كلها ليست نتائج البيئة، إنه يحملها معه، وينقلها معه أنى ارتحل فهى نتيجة طبيعته الخاصة وما ينبغى لنا أن نسلم دون تفكير بأن منطقة كذا وكذا تلزم سكانها بالضرورة بأن يسلكوا أسلوبا معينا فى الحياة، بل الأجدر بنا أن نقول: «إن العادات والتقاليد البشرية لجماعة من الجماعات تقوى وتثبت مع الزمن وتتوارث من السلف إلى الخلف، وتؤثر تأثيرا كبيرا فى وجهة نظر أفرادها إلى الحياة» وهذا يؤدى فى النهاية إلى تغير مظاهر القطر من الأقطار تغيرا تاما، ونستطيع أن نقول إن الظاهرة العامة نتيجة نشاط السكان أنفسهم، هذا جانب آخر من الحقيقة لا يحق للجغرافيا مطلقا أن تهمله إما من أجل مصلحتها هى بالذات، قد تتدهور إلى شكلية لفظية مملة تردد قوانين راتزل التنجيمية دون تفهم أو بصيرة، وإما من أجل التاريخ الذى يعتمد تقدمه على نشاط البشر الذى يحتاج من أجل تفهمه إلى وثائق الجغرافيا المستنيرة.

لقد وصلنا إلى تلك الرحلة من «التكوين» عندما يبدأ النور يبين من دياجير الظلام، وأمامنا مجهود كبير ضخم يواجه كلاً من الجغرافى والمؤرخ إلى ما شاء الله. وليس لدينا وقت لأن نجلس فى بلاهة نفخر بنظام عقيم ضئيل مقفر لا جدوى منه ولا عناء، بناه أسلافنا، نظام يعتمد على غير أساس حتمية لفظية تدفعنا إلى الخجل، ليس أمامنا سوى طريق واحد . هو أن نعمل.

ثبت بالمراجع التى أشار إليها مؤلف الكتاب

A. — ATLAS

BERGHAUS (H.), **Physikalisher Atlas,** 1re éd., Gotha, 1849-52, 6 fasc. in-folio. — Nlle éd., Gotha, 1887-1892, 7 fasc. in-folio: a) **Geologie,** par BERGHAUS; b) **Hydrographie,** par le même; c) **Meteorologie,** par HANN; d) **Erdmagnetismus,** par NEUMAYER; e) **Pflanzenverbreitung,** par DRUDE; f) **Tierverbreitung,** par MARSHALL; g) **Volkerkunde** par GERLAND...... ١

BARTHOLOMEW (J. G.) **Physical Atlas.** Vol. III. **Atla of meteorology** par BARTHOLOMEW et HERBERTSON Edimbourg, S. d. (1899), in-folio. — Vol. V. **Atlas of Zoogeography,** por BARTHOLOMEW, CLARKE et GRIMSHAW..E dimbourg, 1911, in-folio ٢

STIELER (A.), **Hand-Atlas,** 9e éd., Gotha 1905, in-folio (10e éd. "Hundertjahrausgabe, 1821-1921" en cours) ٣

VIDAL DELA BLACHE (P.) **Atlas général, historique et géographique.** Dern. éd.. remaniée, Paris, 1921 in-folio ٤

KIEPERT (H.), **Atlas Antiquus,** Zwolf Karten zur alten Geschichte, 6e éd. Berlin, 1876, in-folio ٥

SPRUNER (k. v.), **Hand-Atlas fur die Geschichte des Mittelalters u. der neueren Zeit,** 3e éd., avec texte de Th. MENKE, Gotha, 1880, in-folio.......... .. ٦

DROYSEN (G) **Allgemeiner historischer Hand-Atlas.** Bielefeld et Leipzig, 1880, in-folio ٧

SCHRADER (F.), **Atlas de géografie historique,** Paris 1896, in-folio.................................. ٨

POOLE (R. L.) **Historical Atlas of modern Europe from the decline of the Roman Empire,** Oxford, 1896-1902 in-4o ٩

BARTHOLOMEW (J. G.), **Atlas of the World's Commerce,** Londres et Edimbourg, 1907, in-folio...... ١٠

BARTHOLOMEW (J.G.), **Atlas of Economic Geography** Londres, 1914, in-4.............................. ١١

B — REVUES ET PERIODIQUES

Annales de géographie, Paris, depuis 1891 (avec fascicules distincts de Bibliographie géographique annselle, publiés sous la direction de L. RAVENEAU, 1er bibliographie, 1893; dernière parue, 1913-14; suite en préparation) ١٢

La Géographie, Bulletin de la Société de Géographie de Paris, Paris, depuis 1900, in 8o ١٣

Petermann's Mitteilungen aus Justus Perthes Géographisches Anstalt, Gotha, depuis 1855, in-4o. Fascicules distincts, Erganzungshefte, groupés en volumes, Erganzungsbande (Band 1, 1860-1861).. ١٤

Géographische Zeitschrift hrsg. von A. HETTNER

eipzig, depuis 1895, in 8o ١٥

The Géographical Journal, including the Proceedings of the R. Geogr. Society, Londres, depuis 1893, in-8o......................... .... ١٦

L'Anthropologie, Paris, depuis 1890, in-8o ١٧

L'Année sociologique, Paris, depuis 1896, in-8o.... ١٨

Revue de Synthèse historique, Paris, depuis 1900, in-8o ١٩

Scientia (Rivista du Scienza), Bologne, Londres, Paris, depuis 1907, in-8o ٢٠

C. — QUESTIONS DE MÉTHODE

BERR (H.) La Synthèse en histoire. Paris, 1911, in-8o ٢١

BERR (H.), Histoire traditionnelle et la Synthèse historique, Paris, 1921, in-16 .... ٢٢

DURKHEIM (E.) Règles de la méthode sociologiques, Paris, 7o éd., 1919, in-16 .... ٢٣

HAUSER (H.) L'enseignement des Sciences sociales, Paris, 1903, in-8o ٢٤

MANTOUX (P.), Histoire et Sociologie (Rev. Synthèse, 1903) ٢٥

RAUH (F.), De la méthode dans la phychologid des sentiments, Paris, 1899, in-8o ٢٦

RAUH (F.) Etude de morale: La Patrie. Paris, 1916, in-8o

EIGNOBGS (Ch.) La méthode historique appliquée aux Sciences sociales, Paris, 1904, in-8o ٢٧

SIMAND (F.), Méthode historique et Science sociale (Rev Synthèse, 1903) ٢٨

VIDAL DE LA BLACHE (P.), Le principe de la géographie générale (Ann. de géogr., IV. 1895-1896) ٢٩

VIDAL DELA BLACHE, Des divisions fondamentales du sol français (en tête de La France, 1 vol. du Cours de géographie de VIDAL DE LA BLACHE et C. d'ALMEIDA, Paris, 1897, in-12 .... ٣٠

VIDAL DE LA BLACHE Les cônditions géographiques des faits ciaux (Ann de Géogr., XI, 1902) ٣١

VIDAL DE LA BLACHE, La géographie humaine, ses rapports avec la géographie de la vie (Rev. Synthèse, 1903, t. VII) ٣٢

VIDAL DELA BLANCHE, Les caractères distinctifs dâ la géographie (Ann. de Géogr. XXII, 1913) ٣٣

GALLOIS (L.) Régions naturelles et noms de pays, Paris, 1907, in 8o ٣٤

D. — E PROBLEME DU MILIEU: HISTORIQUE

HEIBEIRG (J.L.), Théories antiques sur l'influence morale du climat (Scientia, XXVII, juin 1920) ٣٥

BODIN (J.), Les six livres de la République, éd. reveue corrigée et augmentée de nouveau, Lyon, 1580 in-folio (l.V, ch. I, p. 461 sq.)..... .... ٣٦

CHAUVIRÉ (R.) Jean Bodin, auteur de la République Paris, 1914, in 8o ٣٧

DUBOS (J.-B., abbé), Réflexions critiques sur la Poésie et la Peinture (1719), Paris, 7e éd., 1770, in-8o ... ٣٨

BRAUNSCHVIG (M.), L'abbé Dubos, rénovateur de la critique au XVIIIe siecle, Parls, 1904, in-8o (These Paris) ٣٩

MONTESQUIEU, De l'Esprit des Lois (1er éd , Genève, 1748; utiiisée, éd. de Londres, 1757)............ ٤٠

DEDIEU (J.), Montesquieu et la tradition politique anglaise en France: les sources anglaises de l'Esprict des Lois, Paris, 1919, in-8o (Thèse Bordeaux) ٤١

BUFFON, Œuvres, choisies, t. I, Paris, Didot, 1861 in-12 .... ٤٢

LAMARCK, Philosophie zoologique, Paris, 1809, 2 in-8o (réimpr., Paris, 1908, in-8o) ٤٣

MICHELET (J.), Histoire de France: Préface de 1869 et livre III, Tableau de la France ٤٤

JULLIAN (Cam.), Introduction au vol. d'Extraits des historiens français du XIXe s., Paris,6e èd., 1910. in-18 ٤٥

TAINE (H.), Histoire de la Littérature anglaise, Paris, 1864, in-12. .... ٤٦

TAINE (H.), Philpsophie de l'art, Paris, 1881, 2 in-12 ٤٧

LACOMBE (P.), La psychologie des individus et des sociétés chez Taine, historien des littératures, Paris, 1906, in-8o ٤٨

LACOMBE (P.), Taine historien et sociologue, Paris, 1909,in-8o. ٤٩

DARWIN (Ch.), De l'origine des especes, trad. Barbier, Paris, 1876 ... . ٥٠

BRUNETIERE (F.), L'Évolution des genres dans l'histoire

de la littérature. I. Evolution de la critique depuis la Renaissance jusqu'a nos jours, Paris, 1890 in-16 .... ٥١
CUÊNOT (L.), La genese des especes animales, Paris, 2e éd., 1921, in-8 .... ٥٢

E. — LE PROBLEME DU MILIEU : DONNEES PHYSIQUES ET ETHNIQUES

MARTONNE (E. de), Traité de géographie physique, Paris, 3e édit., 1921 .... ٥٣
SUPAN (A.), Grundzilge des physischen Erkunde, Leipzig, 6e éd , 1916 .... ٥٤
SUESS (E.), La Face de la Terre, trad. E. de MARGERIE Paris, 1897-1901, 3 vol. in-8o en 7 fasc. (dont 1 de tables) ٥٥
PENCK (A.), Morphologie der Erdoberflaehe, Stuttgart, 1894, 2 in-8o ٥٦
HANN (J.), Handbuch der Klimatologie, Leipzig, 3e édit, 3 vol., 1908- 1911 .... ٥٧
HANN (J. von), Lehrbuch der Meteorologie, Leipzig, 3e édit, (p.p. Suring), 1915, in-8o ٥٨
DRUDE (O.), Manuel de géographie botanique, trad. Poirault, Paris, 1897, in-8o ٥٩
SCHIMPER (A. F. W.), Pflanzengeographie auf physiologischer Grundlage, Iéna, 2e édit., 1908 .... ٦٠
QUATREFAGES (A. de), Introduction à l'étude des races humaines, Paris, 1887-1889, 2 vol. in-8o ٦١

DENIKER (J.), Races et peuples de la Terre, Paris, 1900 in-8o ٦٢

PITTARD (E.), Les races et l'Histoire (Introduction elhnographique è l'histoire), Paris, 1922, in-8 (L'Evolution de l'humanité, no 5) ٦٣

GUMPLOWICZ (L.), La lutte des races, trad. fr, Paris 1895; in-8o. ٦٤

F. — GÊOGRAPHIH HUMAINE ET GÈOGRAPHIE POLITIQUE (OUVRAGES GÉNÉRAUX.)

BACEHOT (W.), Lois scientifiques du développement des nations, trad. franç., Paris, 1885, in-8o ٦٥

BRUNHES (J.), La géographie humaine, Paris, 1910, in-8o (2o édit, 1942) ٦٦

BRUNHES (J.), La géographie de l'histoire, (Rev. de géogr. ann., t. VIII, 1914, fasc. I) ٦٧

BRUNHERS et VALLAUX (C.), La géographie de l'histoire, Géographie de la paix et de la guerre sur terre et sur mer, Paris, 1921, in-8o ٦٨

CHERUBIM (C.), Flusse als Grenzen von Staaten und Nationen in Mitteleuropa, Inaug. Diss., Halle, 1897, in-8o ٦٩

CURZON OF KEDLESTON (Lord), Frontiers (The romanes lecture. 1907), Oxford, 1907, in-80 .... ٧٠

HUCKEL, La géographie de la circulation F. Ratzel (Ann de Géogr., XV, 1906 et XVI, 1907) ٧١

HUMBOLDT (A. de), Cosmos, essai d'une description physique du monde, trad. FAYE, Paris, 1855-1859 4 in-8o ٧٢
HUMBOLDT (A. de), Tableaux de la nature, 3e édit, Stuttgart, 1849 .... ٧٣
HUNTINGTON (E.), Civilization and climate, New-Haven, 1915, in-8o ٧٤
JULLIAN (C.), L'ancienneté de l'idée de nation (Rev. pol. et litt, janvier 1913) ٧٥
JUNGHAUS (O. E.) Der Fluss inseiner Bedeutung als Grenze zwischen Kultur und Natur-Vôlkern, Leipzig, 1899, in-8o..... .... ٧٦
KRAEMER (H.), Der Mensch u. die Erde, Berlin-Leipzig, 1905-1915, 10 in-4o, trad. fr. par SCHALCH DE LA FAVERIE; L'Univers et l'Hmanité, préf. d'E. PERRIER, Paris, s. d., 5 vol. grand in-8o ٧٧
KRETSCHMER (K.), Historischen Geographie von Mitteleuropa, Leipzig, 1904, in-8o ٧٨
LESPAGNOL (G.), L'Évolutionde la Terre et de l'Homme, Paris, 1905, in-16........................... ٧٩
MEILLET (A.), Introduction à l'étude comparative des languesindo-européennes, Paris, 3e édit., 1912, in-8o. ٨٠
MEYER (Ed.), Histoire de l'antiquité, t. I, Introduction à l'étude des Sociétés anciennes: Evolution des groupements humains. trad. DAVID, Paris, 1912, in-8o. .. ٨١
PENCK (A.), Klima, Boden und Mensch (Jahrb. f. Gesetzgebung, hrsg. v. G. Schmoller, 1907, p. 577 sq) ٨٢
RATZEL (F.), Anthropogeographie, t. I. 3e édit., Stutt-

gart, 1909. — T. II, 2e édit., Stuttgart, 1912 ٨٣

RATZEL, Politische Géographie (Gographie der Staaten, des Verkehrs und Krieges) Munich et Berlin, 2e édit., 1903 .... ٨٤

RATZEL, Kleine Schriften (p. p. H. Helmot), 1906, 2e in-8o ٨٥

RATZEL, Le Sol, la Société, l'État (Année sociol., 1898-1899) ٨٦

RECLUS (E.), Nouvelle Géographie universelle: la Terre et les Hommes, Paris, 1875-1804, 19 in-4o ٨٧

RECLUS (E.), La Terre, 3e édit., Paris, 1876, 2 vol. in-4o ٨٨

RECLUS (E.), L'Homme et la Terre, Paris, Librairie Universelle, s. d., 6 in-4o ٨٩

RITTER (C.,) Géographie gènèrale comparée, trad. Buret et Desor, Paris , 1836, 4 in-8o. ٩٠

SEMPLE (E., miss), Influences of geographic environment, Londres et New-York, 1911, in-8o ٩١

SIEGFRIED (A.), Tableau politique de la Francedel'Ouest sous la 3e Républipue, Paris, 1913, in-8 o ٩٢

SIEVERS (W.),Allgemeine aLanerkunde, Leipzig et Vienne, 6e édit—Europa, p. PHILIPPSON, 2e édit., 1906 Asien, par SIEVERS, 1893. — Afrika, par HAHN, 2e édit, 1901. — Nord-Amerika, par DECKERT, 3e édit 1913. — Sud u. Mittel-America par SIEVERS, 3o edit, 1914 - Australien Ozeanien u. Polarlander, par SIEVERS, et KUKENTHAL, 2e èdit., 1902 .... ٩٣

VALLAUX (C.) Géographie sociale: le Sol et l'Ètat Paris, 1911, in-16 .... ٩٤

VENDRYES (J.), Le Langage (Introduction linguisrique à l'Histoire) Paris 1921, in-8o (L'Évolution de l'Humanité, no 3) ٩٥

VIDAL DE LA BLACHE (P.), La Géographie Politique d'apres les écrits de M. Fr. Ratzel (Ann. ee Gèogr. VII, 1898) ٩٦

VIDAL DE LA BLACHE (P.), Les genres de vie dans la géographie humaine (Ann. de Géogr , XX, 1911) ٩٧

VIDAL DE LA BLACHE (P.), La répartition des hommes sur le globe (Ann. de Gèogr, XXVI, 1917) ٩٨

WOEIKÖF (A.) De l'influence de l'homme sur la terre (Ann. de Géogr. X. 1901) ٩٩

WOEIKOF (A.), Verteilung der Bevolkerung auf der Erde unter dem Einfluss der Naturverhaltnisse und der menschl. Tatigkeit (Peterm. Mit., LII, 1906, p. 241-251 et 205-270; 4 cartes, pl. 17-20) ١٠٠

G. — LES EXPLOITATIONS DE L'HOMME: VEGETALES, ANIMALES ET MINERALES

BERNARD (A.); Le Dry-Farming et ses applications dans l'Afrique du Nord (Ann. de Géogr, XX, 1911) — Republié, avec remaniements, en tête de Widtsoe, CXXII.............................. ١٠١

BILLARD (R.) La vigne dans l'antiquité, Lyon, 1913, gr in-8o . ١٠٢

BRUNHES (J.), L'irrigation dans la Pénin ule ibérique

el dans l' Afrique du Nord, Paris, 1902, in-4o. ١٠٣

CANDOLLE (A. de), L'origine des plantes cultivées, 2e édit., Paris, 1896, in-8o ١٠٤

COSTANTIN, Les végétaux et les milieux cosmiques, Paris, 1898, in-8o ١٠٥

COSTANTIN, Biologie de la végétation tropicale (Ann. de Géogr., VII, 1898) ١٠٦

COSTANTIN, La nature tropicale, Paris, 1899, in-8o.. ١٠٧

DÉHÉRAIN (P.-P.), Les plantes de grande culture, Paris, 1898, in-8o ١٠٨

ENGELBRECHT (Th.-H.), Die Landbauzonen der aussertropischen Lander, Berlin, 1898-1899, 2 in-8o ١٠٩

FISCHER (Th.), Der OElbaum, seine geographische Verbreitung, seine wirtschaftliche u. kulturhistorische Bedeutung (Petenm. Mit., Erg. no 147), Gotha, 1904, in-4o ١١٠

FISCHER (Th.) Die Dattelpalme, ihre geographische Verbreitung und kulturhistorische Bedeutung (Peterm. Mit'. Erg. no 64), Gotha. 1881, in-4o..... . ... ١١١

GALLOIS (L.) et LEDERLIN, La culture du coton dans le monde (Ann. de géogr., VII, 1898) ١١٢

GAT N (C. L.) Les palmiers (Encycl. du Dr Toulouse), Paris (s. d.), in-12 .... ١١٣

GIBAULT (G.), Histoire des légumes, Paris, 1912, in-8o ١١٤

HAHN (Ed.), Demeter und Baubo (Versuch einer Theorie der Entstehung unseres Ackerbaus.), Lubeck, 1896. in-8o ١١٥

HEHN (V.), Kulturpflanzen und Haustiere in ihrem Uebergange aus Asien nach Griechenland und Italien sowie

in das übrige Europa, 8o édit., par O. Schrader, Berlin, 1911, in-8o. — Cf. remarques critiques du même O Schr., Die Auschauungen V. Hehns von der Herkunft unseren Kulturpflanzen und Haustiere im Lichte neuerer Forschung, Berlin, 1912, 17 p. in-8o ١١٦

JORET (Ch.) Les plantes dans l'antiquité et au moyen âge, histoire, usages, symbolisme. — I. Les plantes de l'Orient classique, Paris, 1897, in-8o ١١٧

RICHTHOFEN (F.v), Vorlesungen über allgemeine Siedlungs u. Verkehrsgeographie, hrsg. von O. Schluter, Berlin, 1908, in-8o ١١٨

RISLER (E.), Géologie agricole, t. I, II, III, IV. Paris, 1884-1897, in-8o ١١٩

ROCHÉ (G.) La culture des mers en Europe : piscifacture, pisciculture, ostréiculture, Paris, 1898, in-8o ... ١٢٠

ROSCHER (W.), Nationalôkonomik des Ackerbaues u. der verwandten Urproduktionen, 13e édit., par H. Dade, Stuttgart et Berlin, 1903, in-8o ١٢١

SEMLER (H.), Die tropische Agrikultur. Ein Handbuch fur Pflanzer und Kaufleute, Wismar, 1866, in-8o ... ١٢٢

SOMEREN BARND (Van), Les grandes cultures du monde, luer histoire, leur exploitation leurs différents usages, trad. du hollandais, par F. RODE, Paris 1905, in-4o ١٢٣

WIDTSOE (J. A.), Le Dry-Farming, trad. A.-M. BERNARD, Paris, 1912, in-16 (Préface d'Aug.BERNARD) ١٢٤

WILDEMAN (E. de), Les plantes tropicales de grande culture, Bruxelles, 1902 ١٢٥

WOEIKOF (A.), La géographie de l'alimentation humaine

(La Géographie, XX, 1909) ١٢٦

WOEIKOF (A.), L'étude des sols (Ann. de Géogr. XVII, 1907). ١٢٧

CAULLERY (M.), Animaux domestiques et plantes cultivées (Ann. de Géogr. VI, 1897) ١٢٨

GROFFIER (V.), La production de la soie dans le monde (Ann., de Géogr., IX, 1900) ١٢٩

HAHN (Ed.), Die Haustiere und ihre Beziehnngen zur Wirtschaft des Menschcs ; oine geographische Skizze. Leipzig' 1896, in-8o ١٣٠

HESSE (R.), und DOFLEIN (Fr.) Tierbau u. Tierleben, t. II, Das Tier als Glied des Naturganzen, Leipzig et Berlin, 1904, in-8o ١٣١

KROPOTKINE (P.), L'Entr'aide,un facteur de l'évolution (trad. Bréal), Paris, 1906, in-16 ١٣٢

MULLER (R.), Die geographische Verbreitung der Wirtschaftstiere mit besonderer Berücksichtigung der Tropenlander, Leipzig, 1903, in-8o ١٣٣

LAUNAY (L. de), L'or dans le monde, Paris, 1907, in-18 ١٣٤

LAUNAY (R.), La conquéte minérale, Paris, 1908, in-18.

LOZÉ (Ed.), Le charbon dans le monde (Économiste français, 1904-1905) ١٣٥

LOZÉ (Ed)., Le minerai de fer dans le monde (Ibid., 1906. ١٣٦

LOZÉ (Ed)., Le fer et l'acier dans le monde (Ibid., 1906 - 1907.) ١٣٧

MENGEOT (A)., Du pétrole et de sa distribution géographique dans le monde (XVIe Congrès Soc. franç. de

géogr., Bordeaux, 1895)............ ١٣٨
VILLAIN (G.), Le fer, la houille et la métallurgie à la fin du XIXe s., Paris, 1901, in-8o ١٣٩
ZIMMERMANN (M.), Les foyers de production de l'or dans l'antiquité et au moyen âge (Bull. Soc. géogr., Lyon, XX, 1905) ١٤٠

BOURDEAU, Histoire de l'habillement et de la parure, Paris, 1904, in-8o.............. .... ١٤١

H— CIRCULATION DES HOMMES ET DES PRODUITS : INSTALLATIONS HUMAINES

ANDREE (K.), Geographie des Welthandels, hrsg. von Fr. Heiderich u. Rob. Sieger, Francfort, 1910 -1913, 3 gr. in-8o ١٤٢
BAULIG (H.), Sur la distributien des moyens de circulation et de transport chez les indigènes de l'Amérique du Nord (Ann. de Géogr., XVII, 1908) ١٤٣
BÉDIER (J.), Les légendes épiques, Recherches sur la formation des chansons de geste, 2e édit, Paris, 1914-1921, 4 in-8o ١٤٤
HUBER (F. C.), Die geschichtliche Entwickelung des modernen Verkehrs, Tubingen, 1893, in-8o. ١٤٥
HUVELIN (P.), Essat historique sur le droit des marchés et des foires, Paris 1897. in-8o ١٤٦
ROUSIERS (P. de.,) Les grands ports de France.

leur role économique, Paris,1909, in-16 .... ١٤٧
BERNARD (A.), et LACROIX (N.), L'Évolution du nomadisme en Algérie (Ann. de Géogr., XV, 1906) ١٤٨
FABRE (L.-A.), L'exode montagneux en France (Bull. géogr. hist. dt descrip, 1908 .... ١٤٩
GONNARD (R.), L'Émigration européenne au XIXe s ; Paris, 1806 .... ١٥٠
LEROY-BAULIEU (P.), De la colonisation chez les peuples modernes,6e édit, Paris, 1908 2 in-8o... ١٥١
BLANCHARD (R.), Grenoble, étude de geographie urbaine, Paris, 1911, in-8o ١٥٢
BLANCHARD (R.), Annecy, esquisse de géographie urbaine (Rec. trav. Institut géogr. alpine, Grenoble. t. IV. 1916) ١٥٣
DUPUY (P.), Le solet la croissance de Paris (Ann. de Géogr., IX, 1900)........................... ١٥٤
HASSERT (K.), Die Staedte geographisch betrachtet (vol. 163 de la coll. Aus Nrtur und Geisteswelt), HLeipzig, 1907, in-16 .... ١٥٥
HETTNER (A.), Die Lage der menschlichen Ansiedlungen (Geogr. Ztsch., 1895).................. ١٥٦
HETTNER (A.), Die wirtschaftlichen Typen der Ansiedlungen (Geogr. Ztsch., 1902)................ ١٥٧
LEVAINVILLE (J.), Rouen, Étude d'une agglomération urbaine, Paris, 1913, in-8o.................. ١٥٨
MASQUERAY (E.), Formation des citéschez les populations sédentaires de l'Algérie. Paris, 1886,in-8o ١٥٩
MEURIOT (P.), Des agglomérations urbaines dans

l'Europe contemporaione, Paris,1897, in-8o ١٦٠
PASQUET (D.), Le développement de Londres (Ann. de Géogr., VII, 1898) ١٦١
PIRENNE (H.), Les anciennes démocraties des Pays-Bas, Paris, 1910, in-18.................. .. ١٦٢
RATZEL (Fr.), Die geographische Lage der grossen Stadte (dans Die Grosstadt, Dresde, 1903 in-8o). ١٦٣
MEITZEN (A.), Siedelung und Agrarwesen der Westgermanen und Ostgermanen derKelten, Romer,-Finnen und Slawen, Berlin. 1895, 4 in-4o,atlas.... ١٦٤

Ministére. de l'Instruction publique. Comité des travaux historiques Enquête sur les conditions de l'habitation en France, les Maisons types, avec une introduction d' A. de Foville, Paris, 1894, in-8o ١٦٥
Ministère de l'Instruction publique. Comité des travaux historiques, t. II, avec une étude de Flach (J.), L'origine historique de l'habitation et des lieux habités en France, Paris, 1899, in-8o...... ١٦٦

I. — LES SOCIÉTÉS HUMAINES : MONOGRAPHIES

A. — PRÉHISTOIRE ET ANTIQUITÉ.

ARBOIS DE JUBAINVILLE (H. D') Les Premiers habitants de l'Europe, 2e édit., Paris, 1889-1894, 2 in-8o ١٦٧
BÊRABD (V.), Les Phéniciens et l'Odyssês Paris, 1902-1903 in 4o ١٦٨
BOULE (M.), Les hommes fossiles. Eléments de

paléontologie humaine, Paris, 1921, in-8o. ١٦٩

BUCHER (K.), Etudes d'histoire et d'Économie politique, trad. Hansay, Bruxelles et Paris, 1901, in-8o ١٧٠

DAREMBERRG (Ch.) et SAGLIO (Edm.), Dictionnaires des antiquités grecques et romaines, t. IV, Paris, 1877 sq., in-folio ١٧١

DÈCHELETTE (J.), Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine, Paris, 1910-1921, 6 vol. in-8o (dont 2 d appendices) ١٧٢

FRAZER (J.G.), Le Rameau d'or, trad STIEBEL et TOUTAIN (sur la 2e édit.) Paris, 1910-1911, 3 vol. in-8o

JULLIAN (cam.), Histoire de la Gaule, Paris. 1908-1920, 6 vol. in-8o ١٧٣

MEILLET (cam.), Aperçu d,une histoire de la langue grecque, Paris, 1913, in-16 .... ١٧٤

MORGAN (J. DE), Les premiéres civilisations. Etudes sur la préhistoire et l'histoire, Paris, 1909, in-8o ١٧٥

MORGAN (J. DE), L'humanité préhistorique ('Evolution de l'Humanité 1re section, t. 11), Paris, 1921, in-16 ١٧٦

B. — AFRIQUE.

BARTH (H.), Reisen und Entde ckungen in Nord und Central Afrika (1849-1855), Gotha, 1857-1858, 5 vol. in-8o ١٧٧

BERNARD (A.), La Maroc, Paris, 1913, in-8o ١٧٨

BURTON, Voyage aux grande lacs de l' Afrique

orientale, trad. LOREAU, Paris, 1862, in-8o ١٧٩

CHEVALIER (A.), L, Afrique centrale française(1902 -04), Paris, 1908, (in-8o récit de voyage de la mission Chari-Tchad) ١٨٠

CUREAU (Dr. Ad.), Les sociétés primitives de l'Afrique équatoriale, Paris, 1912, in-18.......... ١٨١

DECORSE (J.), La chasse et l'agriculture au Soudan (Anthropologie,1905) ١٨٢

GAUTIER (E.), La conquéte du Sahara, Paris, 1910 (2e édit., 19;9), in-16 .... ١٨٣

GAUTIER (E.), Études sahariennes (Ann. de Géogr., XVI, 1906) ١٨٤

GAUTIER et CHUDEAU (R.), Missions au Sahara, t. I, Sahara algérien, par GAUTIER, Paris, 1908, in-8o; t. II, Sahara soudanais, par CHUDEAU, Paris 1909, in-8o ١٨٥

HUBERT (H), Mission scientifique au Dahomey, Paris, 1906, in-8o ١٨٦

HUBERT (H.), Contribution à l'étude de la géographie physique du Dahomey, Paris, 1908, in-8o (Thése sciences, Paris) ١٨٧

HUBERT (H.), Mission scienttfique au Soudan, 1 er fascicule (météorologie), Paris, 1916, in-8o ١٨٨

MENIAUD (J), Haut-Sénégal, Niger (Soudan français). Séries d'études publieès sous la direction de M. le gouverneur Clozel; 2e série, Géographie économique, Paris, 1912, 2 in-8o ١٨٩

NACHTIGAL (G.), Sahara et Soudan, trad. GOURDANET, Paris, 1883, in-8o ١٩٠

SCHWEINFURTH (G.), Au coeur de l'Afrique, trad. TOREAU, Paris, 1870, 2 in-8o ١٩١

C.— ASIE

CAHUN (L.), Introduction à l'histoire de l'Asie, Paris, 1896, in-8o ١٩٢

HEDIN (Sven), Durch Asiens Wüsten, Leipzig. 1899, 2 in-8o, trad franç. : Trois ans de lutte au désert d'Asie, Paris , 1889 . . . . ١٩٣

HEDIN (Sven), Im Herzen von, disin, Leipzig, 1903, 2 in-8o ١٩٤

HEDIN (Sven), Transhimalopar Entdeckungen u. Abenteuer in Tibet, Leipzig, 1909, 2 in-8o . . ١٩٥

HUC, Souvenirs d'uu voyage dans la Tartarie, le Thibet et la Chine pendant les années 1844, 1845 et 1846, Paris, 1850, 2 in-8o ١٩٦

LANDON (P.), A Lhassa, la ville interdite. Description du Tibet central et des coutumes de ses habitants, Paris, 1906, in-8o (trad. de l'anglais)

LEGRAS (J.) En Sibérie, Paris, 2e édit., 1904, in-16

LUNET DE LA JONQUIÈRE (E.), Ethnographie du Tonkin septentrional, Paris, 1906, in-8o ١٩٧

MAITRE, Les Jungles Moï, Pario, 1912, in-8o . . ١٩٨

PALLAS (P. S.), Xoyages en differentes provinces de l'Empire de Russie et dans l'Asie septentrionale trad. de l'allemand par GAUTHIER DE LA PEYRONIE. Nouv. édit., revue par LAMARCK et LANCLES, Paris, an 11, 8 in-8o, 1 atlas gr. in-4o. ١٩٩

RECLUS (E. et O.), L'Empire du Milieu. Le climat, le sol, les races, la richesse de la China, Paris,

1902, in-8o ٢٠٠
RICHTOFEN (F. von), CHina, vol. I, Introduction, Berlin, 1877, in-4o; vol. II, Nôrdliche China, 1882, in-4o — Atlas von China, I, Nôrdliche China, 1885, in-folio.— Vol. III. Südliche China, p.p. Tiessen, 1912, in-4o. — Atlas von China, II, Sudliche China, par GROLL, in- folio, s. d. (1912 ?) . ٢٠١

SION (J.), Le Tibet méridional (Ann. de Géogr., XVI 1907) ٢٠٢
VIDAL DE LA BLACHE (P.), Le peuple de l'Inde d'apres la série des récensements (Ann. de Gèogr., XV, 1906) ٢٠٣
WOEIKOF (A.), Climat de la Sibérie orientale (Ann. de Cèogr., XII, 1898) ٢٠٤
WOEIKOF (A.), Le Turkestan russe, Paris, 1914, in-8o ٢٠٥

D. — AMÉRIQUE.

BEUCHAT (H.), Manuel d'archéologie américaine, Paris, 1912, in-8o ٢٠٦
BRIGHAM (A. P.), Geographic influences in American hiotory, Boston, 1903 in-16 .... ٢٠٧
LE COINTE (P.), Le Bas-Amazone (Ann. de Géogr., XII, 1903)....................... .... ٢٠٨
LE COINTE (P.) La Foret amazonienne (Bull. Soc. géogr. commerc., Paris, XXV, 1903) ٢٠٩
CAPITAN (L.)et LORIN (H.) Le travail en Amérique avant et apres Colomb, Paris, 1914, in-8o ٢١٠
METIN (A.), Etude sur la colonisation du Canada, La Colombie britannique, Paris, 1907, in-8o ٢١١
SEMPLE (E.C.), American history and its géographic conditions, Boston et New-York, s.d. (1903) in-8o ٢١٢

E. — OCEANIE, AUSTRALIE.

COOK (J.), Voyages dans l'hémisphere austral et autour du monde .... écrit pr Jacques Cook, trad. de l'anglais, Paris, 1776-1778, 4 in 4o — ٢١٣

FRASER (J.F.) L'Australie. Comment se fait une nation, adapt. FEUILLOY 6e édit, Paris, 1916, in 8o — ٢١٤

LESPAGNOL (G.), Sur le caractere desertique de l'Australie intérieure (Ann. de Geogr., VII, 1898) — ٢١٥

PRIVAT-DESCHANEL (P.), L'Australie pastorale (La Géographie, XVII, 1908) — ٢١٦

QUATREFAGES (A. de,) Les Polynésiens et leurs migrations, Paris. 1866. in-4o — ٢١٧

RUSSIER (H.), Le partage de l'Océanie, Paris 1905in-8o — ٢١٨

SION (J.). Océanie et Indo-Chine: Notices bibliographiques (REV. de géogr. ann. t. I. 1906-1907, paris, 1907 in-8o) — ٢١٩

SPENCER (B.) et GILLEN (F. J.), The native tribes of Central australia, Londres, 1899, in-8o — ٢٢٠

SPENCER (B.) et GILLEN (F. J.), The northern tribes of Central Australia, Londres, 1904, in-8o — ٢٢١

F. — SOCIETES POLAIRES.

BYRAN (A.), Die Polarvolker (vol. 63 de la coll. Wissenschaft und Bildung, Leipzig, 1909, in-16) — ٢٢٢

MAUSS (M.)et BEUCHAT (H.), Essai sur les variations saisonnieres des sociétês eskimos. Etude de morphologie sociale (Année sociol., XI, 1904-1905) — ٢٢٣

NORDESHJOLD, Le Monde polaire, trad PARMENTIER et ZIMMERMAN, Paris, 1913 in-8o — ٢٢٤

G. — EUROPE ET FRANCE.

BLANCHARD (R). La Flandre, Lille 1906 in-8o ٢٢٥

BOYE (P.), Les Hautes Chaumes des Vosges, Paris, 1903 in-8.

BRIOT (F.), Etudes sur l'Economie alpestre, Paris-Nancy ١٩٠٧ in-8o ٢٢٦

BRIOT (F.), Nouvelles étndes, Paris, 1907, in-8o ٢٢٧

BRUNHES (J.), Géographie humaine de la France, 1er vol. (t. 1 de G. HANOTAUX, Histoire de la nation Française), Paris, 1921, in-4o ٢٢٨

BUREAU (P.), Le paysan des fjords norvégiens, paris, 1906, in- o ٢٢٩

CUIJIC (J.), La penisnule balkanique: Géographie humaine paris, 1918, in-8o ٢٣٠

DEMANGEON (A.), La picardie leset régions voisines, paris, 1905, in-8o ٢٣١

LEVAINVILLE (J), Le Morvan, étude de Géographie humaine Paris, 1909. in-8o ٢٣٢

MANTOUX (p.), La révolution industrielle en Angleterre au XVIIIe siecle. Essai sur les commencements de la grande industrie moderne en Angleterre, paris 1906in-8 ٢٣٣

MILIOUKOV (p.), Essais sur l'histoire de la civilisation Russe, trad. DRAMAS et SOSKICE, paris 1901 in-8 ٢٣٤

RABOT (CH , Aux fjords de Noverges et a: x forets du Suede. paris, 1906, in-8o ٢٣٥

SION (J.), Les paysans de la Normandie Oriental, etude Geographique, Paris, 1909, in-8o ٢٣٦

SORRE (M.), Les Pyrenees mediterraneenres, essaie de Geographie biologique, Paris, 1913, in-8o ٢٣٧

VALLAUX (C.), La Basse-Bretagne, etude de Geographie hnmaine, Paris, 1907, in-8o ٢٣٨

VIDAL DE LA BLACHE (p.), Tableau de la Géographie de la France t. I. de LAVISSE Histoire de France paris, 3e éd,i, 1908, in-4o ٢٣٩

H. — EXPANSION MARITIME.

HERRE (P.), Der Kampf um d. Herrschaft in Mittelmees Leipzig, 1909. in-8o ٢٤٠

MAHAN (A. T.), Influenee de la puissance maritime danr l'histoire, trad. BOISSE Paris, s.d. (1899), in-8o ٢٤١

PHILIPPSON (A.), Das Mittelmeergebiet, seine geogra, phishe und kulturelle Eigenart, 2e Auflage. Leipzig. 1907, in-8o ٢٤٢

SCHOTT (G.), Geographie des Atlantischen Oseans, Hamburg, 1912, in-4o ٢٤٣

VALLAUX (C.), Géographie sociale. La Mer, Paris, 1908, in-18. .... ٢٤٤

التصحيح اللغوى : وجيه فاروق
الإشراف الفنى : حسن كامل



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



ليس هذا الكتاب مقدمة جغرافية للتاريخ بالمعنى الحرفى للعبارة، إذ لم يضع المؤلف نصب عينيه أنه يقدم كتابا لقراء التاريخ، ولكنه شغل بمشكلة أهم فى نظره، وفى نظر علماء الجغرافيا فى ذلك الحين، ولا تزال هذه المشكلة محل بحث وموضوع مناقشة حتى الوقت الحاضر. هذه المشكلة هى ماهية العوامل الجغرافية وموضوع أثر البيئة فى الإنسان. وهنا يقف الأستاذ لوسيان فيفر موقف المتشكك فى "أثر البيئة" – وفى "الإنسان" نفسه، إذ ليس هناك بيئة لها أثر فى إنسان مجرد، بل ليس هناك مثل هذا المخلوق المجرد، فالإنسان يعيش عضوا فى مجتمع ، ينتمى إلى طائفة من طوائف هذا المجتمع أو طبقة من طبقاته.

تصميم الغلاف: مروة أحمد

